كوتسيكا

غادة العبسي

رواية

فريق متميزون
E-BOOK

المحروسة

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كوتسيكا

رواية..

الكاتب: غادة العبسي.

إهداء..

إلى حَبَّتيْ قلبي النَّاجِيَتَيْن من الدنيا: جدَّتي زينب، وابنتي سِدرة...

إلى زوجي الحبيب: لو أنَّكَ لم تسألني يوميًّا: "كم كلمةً كتبتِ؟"

لما أُنجِز هذا العمل...

إلى أبي وأمي... دائمًا، وأبدًا...

إلى ضحايا كو□يد 19...

إلى أطبَّاء مصر...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(1)

برتقالة حمراء

"جايَّه تعملي إيه في الدنيا يا مَرَه؟!"...

قالتها "شوقة" بتهكُّم، وذَيَّلَتها بضحكة ساخرة والوليدة قد انزلَقَت للتَّوِّ من رَحِم أُمِّها إلى كفَّيْها ولم تبكِ بعدُ، بينما علا نحيب "صبر الجميل"، وسالت دموعها الحارقة من عينيها، اختلط مِلحُها بعَرَقها الغزير الذي يُغطِّي وجهها وجسدها...

"جايَّه تعملي إيه في الدنيا يا مَرَه؟!"...

قالتها في نفسها بأَسًى؛ فلقد كانت "صابرة" -واسمها المقيَّد بشهادة التَّسنين "صبر الجميل"- تنتظر ذَكَرًا، عِوضًا عن "سعد"، الولد، ابن الأربع سنوات، والذي توفَّاه الله بعد إصابته بالحُمَّى، "الواد كان منوَّر بين الصبايا"، الصبايا هُنَّ بناتها الأربع، وها هُنَّ قد أصبحن خمسًا في عين العدو الشامت، ولا حول ولا قوة إلا بالله...

ولكن لا عِوض عن الولد إلا بوَلَدٍ مثله...

"يا سعد يا زين... م العين دي قبل العين دي"... ينادي المنادي إذا مرَّ ببَيت صابرة، يهرع سعد إلى أسفل مع إخوته البنَات لشراء "سلاطين الزبادي" الطازج من عربته، ويُصرُّ على إعطائه المالَ بِيَدِه الصغيرة، يلعب مع الديك "سعد": صديقه الذي كان يحبه ويُطعِمُه- يرتدي خاتمه الذهبي (أبو فص أزرق)، أمَّا بذلته التي فصَّلَتها له صابرة عند الترزي، مات المسكين قبل أن تُحضِرَها له فيرتديها ويفرح بها!

جَمَعَت شوقة كلَّ مُتعلَّقات سعد وأخذتها عندها في بيتها، كفَّ بائع الزبادي عن المناداة باسم سعد، والجارة ذبحت الديك الذي طالما أحبَّه الولد وأطعمه...

ما الذي تبقَّى منها ليأخذه هذا الحزنُ فينمو ويكبر هكذا مع مرور الزمن؟ وماذا تأكل تلك النار المقيمة في روحها لتزيدها احتراقًا؟

محالٌ أن تنسى صابرة... مُحال...

"أيوه يا شوقة... مَرَه يعني مُرّ"...

شردت صابرة في جدوى الحياة، ماذا كان يريد القَدَرُ بوجودها أصلًا؟ ربما قالت أمُّها العبارة ذاتها عندما جاءت إلى الدنيا: "مَرَه يعني مُرّ"، ولا تظن أنها فرحت بها مثلما فَرِحَت بأخيها الأكبر ولا بأيٍّ من أخواتها اللاتي جِئنَ تِباعًا، الواحدة تلو الأخرى، هي مجرَّد هَمٍّ ثقيلٍ إلى أن يُزَحزِحَه من فوق صدرها رجلٌ يطلبها إلى الزواج، كما حدث مع صابرة بكل بساطة، كانت في الحادية عشرة من عمرها عندما خطبها عبد العليم لنفسه، وقدَّم إليها الشَّبكَة من الذهب البندقي: دلَّاية على شكل مصحف، وسلسلة مجدولة، وخاتم- ارتدته بسهولةٍ؛ كان واسعًا على إصبعها الصغير، فأخذته والدتها

بحُجَّة أن تحتفظ به لها حتى تكبر قليلًا ويمكنها ارتداؤه دون أن يسقط منها... تمتلئ عيناها بالدّموع ثانيةً وتتذكَّر أن الأيام فقط هي التي كانت تسقط منها ومن بعدها العيال! لم تَرَ صابرة هذا الخاتم بعد ذلك، ولكنها كلما حمَلَت وسقط حملها تذكَّرَته، فلرُبَّما حمل إليها الكثير من الحظ، وحالت أُمُّها دون ذلك!

ماذا لو كان خاتم سليمان الذي يُحقِّق كُلَّ الأمنيات؟!

لو أنها تعرف فقط! لو أنها تعرف مع مَن هذا الخاتم الآن...

كلَّما سأَلَت والدتها قالت لها في أسًى: "لقد ضاع. ولا تعرف له طريقًا"!

تمسح صابرة دموعها الحارَّة وهي تسترجع ليلةَ خِطبَتِها، وكيف اصطحب عبد العليم الأسرة بأكملها إلى مكانٍ ما، وعندما توقَّف الحنطور، نزل الخطيب ينادي على "الخواجة بِلّا" والذي استقبله بترحاب، ما إن علم بأنه من طرف الخواجة "ستافانوس". حاول عبد العليم أن يشرح لأبيها رغبته في التقاط صورة له مع صابرة بمناسبة خطبتهما، كما يفعل أهل الذَّوات، ولكن الرجل انزعج بشدَّة، ورفض، وبعد مُحايَلات ومحاولات لإقناعه بأنها عادة البكوات والباشوات، وافق بشرط أن تقف فاطمة أخت العروس الصغرى كحائِلٍ بينهما في الصورة! مهما مرَّ على صابرة من أيام حلوة ومُرَّة لكنها أبدًا لن تنسى ذلك اليوم البعيد، ولا الخواجة بِلّا الوسيم الذي أعطاها الحلوى كَي تكُفَّ عن البكاء، كانت لا تزال طِفلَةً، ولا تدري حتى تلك اللحظة كيف أصبحت أمًّا للمرة السادسة، وكيف تحمَّل قلبها كل هذا الحزن!

ولكنها تذكر بفخر كيف كانت أوَّلَ بِنتٍ في مصر العتيقة يتم تصويرها، وكثيرًا ما كانت تتشاجر مع أختها فاطمة بسبب تلك الصورة، ظفرت بها صابرة ووضعتها في صندوق الذهب والذي على مَرِّ السنين ظلَّ يعجُّ بما يحويه من قِطَعٍ ذهبية يشتريها لها عبد العليم كُلَّما سنحت الفرصة، حتى اضطرَّت إلى استبداله بشكمجيَّة أكبر... عامان قضتهما في بيت والدها كضيفة حتى جاء اليوم الموعود، يومَ أن تدفق دَمُ الدورة الشهرية منها لأول مرة، وظلت تبكي، لا تعرف كيف تخبر والدتها بتلك المصيبة التي قضت على مستقبلها كفتاةٍ بِكر، تحاول استرجاع كل ما حدث لها خلال اليوم فيكون قد تسبَّب في فَضِّ بكارتها!

أنقذتها ثمرة برتقال!

اقتسمتها مع أختها فاطمة وعندما قطعتها بالسكين وجدتها حمراء اللون! تعجَّبَت بشدَّة، وذهبت إلى والدتها تسألها عن سبب حُمرَة هذه البرتقالة العجيبة، قالت الأمُّ ضاحكةً:

- أصل عندها العادة!

ومن هنا عرفت "صبر الجميل" للمرة الأولى ما هي العادة الشهرية، وتعجَّبَت من والدتها التي أخذت تغني طيلة اليوم جيئةً وذهابًا: "لونك برتقان شتلة جناين النيل"، فرحت عندما أخبرتها بما حدث لها، هي التي ظلَّت دومًا تحذرها من الدم ورؤيته... الدم بالنسبة لصابرة ليس إلَّا نذير شؤم.

"لماذا تكون عادة البنت منّا أن ترى الدماء في حجرها كل شهر؟ ما الذي يجب أن يتغيَّر فينا كل شهر؟ ولماذا؟ لكي نذبح الطيور بِدَمٍ بارد؟ أم لندفن أطفالنا بدمٍ بارد؟".

كانت صابرة تتأمَّل قرص الشمس من سطح البيت، تراه متوهِّجًا فوق رؤوس العباد ثم يبدأ في الاحمرار قبل أن يغرب، منذ يوم البرتقالة الحمراء وقرص الشمس الغارب ليس إلَّا ثمرة برتقال عندها العادة... ما أن بدأت الشمس تعرف الحُمرة، ما أن بدأت الفتاة تحيض وتضع أحمر الخدود والشفاه، حتى اقتربت النهاية.

لم تنتظر الطِّفلَةُ سوى بضع أسابيع حتى زُفَّت إلى بيت عبد العليم...

هذا الرجل الغريب عنها والذي لا تعرف عنه الكثير، ينزل بعد أذان الفجر يستقلُّ القطار إلى طُرَة، ولا يعود إلا بعد صلاة العشاء.

تبكي الوليدة بعد أن رَبتَت شوقة على ظهرها عدَّةَ مَرَّات، بكت بكاءًا مرًّا، كالباكي على ماضٍ أتعسه أو مستقبل يخشى مجيئه. يختلط بكاء الأم بالرضيعة، وشوقة تضحك والجارة تزغرد، ولا حول ولا قوة إلا بالله...

- أبوها بِسَمِّيها...

احتضن عبد العليم الوليدة الباكية، وقبَّلها، حامِدًا الله على عَطِيَّته وقد وضع في يد شوقة حلاوة المولودة، ثم مال على رأس صابرة يلثمه بقُبلَةٍ طويلة فَهِمَت مغزاها، نظرت باستنكارٍ وعتاب لاذعين:

- آخرِة شغلك الوِسِخ...

صمت الرجل ولم يُعقِّب، خرج من الحجرة ليلقى بناته اللاتي تَعَلَّقن بجيوبه، يطلبن حلاوة المولودة الجديدة.

- هنسمِّيها إيه يا بابا؟

- سِتّ أبوها!

قالها بفخر، وبصوتٍ مرتفع لكي يُسمع صابرة، والتي لم تَكُفَّ عن البكاء... لحظات وبدأ الجيران في التَّوافُد على البيت يسألون بفضول:

- إن شاالله ولد المرَّة دي؟

- سِتّ أبوها...

- معلهش... ربنا يعوَّض عليكم...

"كيف يُعوِّض الله علينا ويسعد قلوبنا وهو يعمل في هذا المكان النَّجِس؟".

قالتها صابرة في نفسها بحَسرَة...

وأتى بعدها "جميل"، والذي يبدو وكأنه استوحش الدّنيا فذهب من حيث أتى بعد أربعين يومًا فقط من ولادته، تأكَّدَت بعدها صابرة أن ثمَّة ما يقتل أولادها عمدًا، أو أنها لعنة انصبَّت عليها من أثر عمل زوجها المحرَّم...

- يعني نبقى مجاورين السيدة وتشتغل الشغلانة دي؟!

لا حول ولا قوة إلا بالله...

"ولماذا لا تكون "أُمّ الصُّبيان" يا صابرة؟

كان ذلك تفسيرَ شوقة، والتي لديها قَناعة تامَّة بأن "أُمّ الصُّبيان" القرينة الحقودة الغيور هي مَن تؤذي ذكور صابرة؛ حسدًا وغِلًّا لأنها لا تَلِد؛ فتُمرضهم وتقتلهم قبل أوانهم، أحيانًا تقف فوق بطن الحامل، أحيانًا تضربها بعنف لكي ينزل الجنين مُبكِّرًا ولا يرى الحياة!

لم يكن أمام صبر الجميل إلا التسليم بهذه الفكرة، والتي جعَلَتها تتشبَّث بالأمل من جديد، فلأُمِّ الصبيان تلك "صِرفة"، سوف تشتري "السَّبع عهود السُّلَيمانية" من عند العَطَّار، وتضعها في رقبة ابنها عندما يأتي وينير دنياها، سبعة عهود أعطتهم أم الصبيان للنبي سليمان عندما أمسك بها ولم يتركها من قبضته إلَّا إذا عاهدته على ألَّا تؤذي ذَكَرًا يضع تلك العهود في رقبته، فخلَّى النبي سبيلها.

أتُراها هي التي سرقت خاتمها أيضًا وأخفته؟ خاتم سليمان!

هل تبحث عن العهود أم الخاتم؟

حيرة!

أمَّا سِتّ أبوها فكانت الأكثرَ جمالًا بين أخواتها، يغَرْن منها فيَقُلْن لها:

- قَاتْلة..مَوِّتي اللي قبلك واللي بعدك!

تبكي صامِتَةً ولا تستطيع الرَّدَّ عليهن، لا تخبر أمها التي لا تُنصِفها أبدًا ولكن تنتظر أباها الذي يعود نعسانَ ومُنهَكًا لتخبره بما حدث، يضمُّها إلى صدره ويصرخ فيهنَّ:

- دي ست أبوها يا ولاد الكلب!

الطَّلق يسري فيها من جديد، صابرة تسدُّ أذنيها لا تريد أن تعرف نوع المولود! إن وضعَت أنثى تجدَّدَت خيبة الأمل، وإن وضعَت ذكرًا خشيت عليه ممَّا أصاب أخَوَيْه النائِمَيْن تحت التراب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

من هيلاس([1]) إلى راكوتيس([2])

لو أن للمدن العظيمة خرائط بارزة منقوشة فوق الماء! فمن تبعها وصل إليها مُطمَئِنًّا!

أسوأ شيء في الترحال أنك لا ترى الشاطئ الآخر، فلربما لو أنك أبصَرتَه هانت مَشقَّة الرحلة. يُخيَّل إليَّ أن هذا البحر الواسع الغامض يمتلئ عن آخره كل يوم بفضل دموع الراحلين، يتغذَّى على مآسيهم ومخاوفهم، البحر سجني منذ قدومي إلى هذه الدنيا، الكائن الذي يرفض أن يعاهد البَشَرَ على أمانٍ مُطلَقٍ حتى بعد أن عقد هدنته مع الرب فتقلَّصَت سطوته وخَبَت حدود مملكته اللا محدودة، طالما كان البحر هو العقبة التي يجب أن أتخطَّاها قبل أن أصل إلى ما أريد، أودِّع كاريستو، أودِّع إيـ□ويا، البحر يطاوعني هذه المرة كما طاوع الراحلين من قبلي ومن بعدي، حتى يمتلئ بدموعنا ويحيا، البحر الذي مشى المسيح على صفحته يصافحني الآن ويمثِّل البكاء معي، ومن أجلي، أنا ذلكمُ الشاب الذي لم يرحل عن اليونان قطُّ، وآن الأوان ليبحر مع الآلاف خارجها، الجموع المتَّجِهَة إلى أرض الأحلام الجديدة مع طلوع شمس كل يوم جديد، أيها البحر العتيق، إلى أين تأخذنا؟ هل يخفي هذا الهدوءُ المزيدَ من الأسرار؟ هل يهبُّ نوءٌ عظيم مثلما حدث لسفينة يونان الهارب من وجه الرب؟ أنا أيضًا هارِبٌ من جحيم وطني، آهٍ من جحيم الأوطان وما تفعله بقاطنيها! الروائح تتضخَّم في الماء وتَشتَدُّ، حتى الحيتان كانت لَتعافُ رائحة الخوف المنبعثة منَّا وتتراجع عن فكرة التقامنا فتتركنا للمجهول! أهازيج الطيور المهاجرة تحيط بي من كل جانب على مَتنِ السفينة السوداء وعلى ألسنة رفاق الرحلة، تحسبهم يُغنُّون وهم في الحقيقة ينزفون من حنجرة رَجُلٍ مُسِنٍّ يعزف على البُزُق:

يا كل السنوات البائسة

والأزمنة التي مَضَت

الشباب لن يعود

لا الشباب ولا الجمال

ولا كبرياؤنا الدفين!

مراكب الصيد تختفي تدريجيًّا عن مرمى البصر، الأعماق تختطفنا نحو المستقبل، لا أرى الآن سوى عيون أبي وأمي الدامعة، ووشاح أخي بوليخروني الذي طالما رقص به معي، يلوِّح لي به على أعتاب كاريستو بحماس، يَعِدُ باللحاق بي قريبًا فور حصوله على شهادة تخرجه، تعجُّ رأسي بصور العجائز في بلدتنا وهُنَّ يصنعن السِّلالَ بأيدٍ مرتعشة، ببيوت التِّنِّين المنتشرة فوق الجبال والتي طالما اختبأتُ بداخلها، وهرعتُ خارجًا منها كلما سمعت صوتًا يخيفني أتصوَّر أنه صوت التِّنِّين العائد، القلعة الحمراء بأحجارها الضخمة وملمسها المميَّز وأحلامي المضحكة بإتمام بنائها فوق رُفاتها بيتًا أُقدِّمه لحبيبتي "أماليا"، جامِعَة أثينا وأول مرَّة أغادر فيها كاريستو، وهذا القدر الذي كتب عليَّ السفر إلى الإسكندرية أرضِ الأحلام.

كانت السُّفن ترحل كل يوم إلى أمريكا وكندا وأستراليا، وبالطبع إلى مصر، حامِلة الكثير من جيراني وأصدقائي وأقربائي، لم يَعُد هناك بيت في اليونان بدون مهاجر، مسافرون كثر، تارةً تحسبهم قرابين لا بُدَّ من تقديمها للآلهة لكي تنصلح الأحوال، وتارةً تحسبهم فئرانًا تهرب قبل غرق السفينة القديمة البالية التي أشبعها القراصنة نهبًا وسرقةً!

ولكني كنتُ مُشبَعًا بالأمل، مثل الهواء المشبع برائحة السمك في شباك الصيد، أحمل طموحًا جامحًا لا يَسَعُه وَطَنٌ، أحضِّر له منذ قرَّرتُ أن ألتحق بجامعة أثينا لأدرس التجارة، ويا لها من رحلةٍ مُضنِيَة، كنتُ أعمل وأدرس ليل نهار لأتخرَّج بشهادتي التي أحملها بين جلدي ولحمي، لا أنكر أنني تمنَّيتُ السفر إلى بريطانيا أو فرنسا، لم أرد أن أشحَن إلى مصر مثل من سبقونا من أصحاب الحِرَف لخدمة أعدائنا الأتراك، ولكني خشيتُ من الأمر، خشيتُ من صِغَر سِنِّي وقِلَّة خبرتي أمام الغرور الإنجليزي الفرنسي، ثم فوجِئتُ بأخبار الراحلين إلى الإسكندرية المصرية وكيف أنهم وجدوا ضالَّتَهم هناك، وأسَّسوا عالمهم الخاص دون تكدير أو مزاحمة، جمعوا ثروات كبيرة نحكي عنها لبعضنا البعض في أماسينا وأعراسنا وأعيادنا، حلمنا بامتلاك مثلها قبل أن نُسلِم جفوننا للنوم، سمعنا وسمعنا وسمعنا، أن إخواننا في أغلب الأحيان، لم يضطهدهم أحدٌ هناك.

عرفنا أن أبناء هيلاس عاشوا في مصر تحت مظلَّة محمد علي لا تحت مظلَّة الأتراك، عرفنا أنه كأنما أوصى بهم لمن خلفه ألَّا يُؤذِيَهم أو يقصيهم أحد!

ينقضي يومٌ وراء يوم في البحر، والرحلة تقترب من نهايتها، أو بالأحرى أوشَكَت على البدء، الدوار الذي يصيبني بالغثيان يجعلني أفكِّر أن للغُربَة سمومٌ بدأت تجد طريقها لجسدي النحيل، أن أُفارِقَ أماليا سُمٌّ، وأن أهجر جزيرتنا الصغيرة سُمٌّ، ولكنَّ الفَقرَ سُمٌّ فتَّاكٌ أيضًا لا قِبَلَ لي به، مَن يُصدِّق أن موطن الآلهة يصير موطنًا للفقر والحرب واليأس؟

أعرف ما أريد جيدًا يا فنار المدينة العتيقة، أنتِ يا شعلةَ الأمل الجديدة، يا من تبرقين في ظلمة نفوسنا الجريحة ذات الكبرياء الدفين كما تقول الأهزوجة، فلتشهدي أني لن أتنازل عمَّا أريد...

يغريني الأمل بمدينة الأحلام، ويلهيني عن تذكارات الأحِبَّة، يُصوِّر لي الإسكندرية المصرية تلك قَبَسًا من أثر بانيها، أفضى إليها بسرٍّ ما دون كل المدن السكندرية التي فتحها، سرٌّ لا تفشيه إلا للحالمين بوطنٍ فاضل ومثاليٍّ...

"تأمَّلْ: انظر جيِّدًا في الأشياء لتتذرَّع بالأمل"...

قالها أحد الرُّكَّاب للشاب الذي ظهرت عليه أمارات الاضطراب والقلق بمجرَّد رُسوِّ السفينة واستعداد رُكَّابها للنزول إلى اليابسة، فردَّ بانحناءةِ احترامٍ قائِلًا:

- سأحاول سيِّدي.

وصل تيوخاري كوزيكا بالفعل إلى ميناء الإسكندرية للمرة الأولى، خرِّيجًا حديثًا من جامعة أثينا بعدما درس المحاسبة، تاركًا خلفه وطنًا تتنازع فيه الآلهة، وحبًا لم يكتب له البقاء طويلًا، جاء إلى أرض الأحلام غضًّا، لم يتجاوز العشرين ربيعًا، عندما نظر إلى سمائها شَعَرَ بعناقٍ إلهي، بين آلهة الإغريق وآلهة المصريين، كانت الصورة الأسطورية تكتمل يوميًّا بوصوله ووصول المئات من بنِي

جنسه إلى الميناء. أن تولد أسطورة قديمة جديدة عن الإله بوسيدون إله البحار والمحيطات الذي تخلى عن صراعاته ونزاعاته مع ربَّات الأولمب واستسلم للإلهة المصرية "نايت": ربة البدايات، والتي تُرَبِّت على أكتاف الوافدين من بلاد الإغريق وتَعدُّهم أبناءً لها، بعد "شو" و"تفنوت" أول مخلوقَيْن جاءا إلى الدنيا! أو أن تتجدَّد أسطورة إيزيس، وبدلًا من أن تلملم أشلاء أوزيريس في رحلةٍ مُضنِيَةٍ، تقع في غرام أبوللون!

جذب تيوخاري هواءَ المدينة لأول مرَّةٍ إلى صدره، هو الذي شبع من الموانئ والبحار، هو القاطن بميناء كاريستو بإيـ□ـويا، لم يَمشِ على اليابسة قدر ما سبح وأبحر، ولكن يَظلُّ هواء هذه المدينة أَخَفَّ من أن يُحمَل، أثمن من أن يُستنشق ويحترق في الصدور، هواءٌ يلتفُّ حول الروح يزيدها حياةً ويعيذها من الموت والحزن...

من المؤكَّد أن مشاعره كانت مُختَلِطَة، وأدرك أنه يشبه البلد الذي يؤويه الآن، مختلط الأجناس والأعراق والأشغال والبنايات والطبقات والمحاكم أيضًا!

استقلَّ الحنطور إلى "كوكينيا": الحي الأحمر، أو الإبراهيمية، حيث يسكن عَمُّه الخواجة "يؤانِّس" أو كما يطلقون عليه تدليلًا وتخفيفًا:"يانِّي"، وهو الذي صار حديثَ العائلة بعد هِجرَتِه من اليونان، وكيف كوَّن ثروةً كبيرة من التجارة والتوريد عبر هذا البحر، والذي سوف يتوسَّط لتيوخاري للعمل هنا في الإسكندرية. في الطريق، ومن كثرة ما شاهد تيوخاري من يونانيين حار للحظات؛ فلرُبَّما لم يبرح اليونان بعد! يرفع أحدهم قُبَّعَتَه متحدِّثًا إليه بِلُغَتِه:

- ياسو كاليميرا! كالو تاكسيدي!((3))

انفرجت أسارير كوزيكا، وكاد أن يوقف الحنطور ليردَّ تحية الصباح ويشكر الرجل على تمنياته برحلة مُوفَّقة، ولكن الخيل كانت قد سبقت أمنيته فرَدَّ التحية بصوتٍ مرتفع وهو يرفع قُبَّعَته شاكرًا الرجل، ناظرًا إلى الخلف في سعادة:

- كاليميرا! سي ايـفخريستو بولي!((4))

عاد ليتأمَّل من جديدٍ روحَ الإسكندر المقدوني التي تسري في كل مكان، أخذ يقرأ لافتات المقاهي والبارات التي تحمل أسماء أهل بلاده، أوتيل بوسفوراس المملوك لصاحبه ديلاريس، مخبز چورچيو ليكاس ومقهى باراديسوس ومطعم فاردوليس، وهنا محل ساراندينٍ لبيع الكتب والصحف، شيء لا يُصدَّق، وعاد لحيرته من بعد انبهاره: هل صنع فعلًا اليونانيون كلَّ هذا بمفردهم؟ كيف استطاعوا رسم ملامح اليونان على جدران المدينة المصرية بكل تلك المهارة والصَّخب؟ أم تُراها عادت أدراجها من تلقاء نفسها إلى عهد بطالمتها القدامى؟

شرد في حضارتين متشابهتين إلى حدٍّ كبير: الفرعونية والإغريقية، آلهة مُتعدِّدة، ثقافة عريقة، ممالك حكمت العالم لقرون، ثم ما الذي تبقَّى؟ مجرَّد رُفات، ومئات الآلاف من الفقراء... هل هذا الركود والنوم الطويل ضريبة حضارية تدفعها الأمم العظيمة فيما بعد للزمن؟

يعود ليتأمَّل بحر الإسكندرية الخَلاب، لونه ورائحته وأهله الذين أداروا ظهورهم للعالم ليحدِّثوا البحر أو ليشكوا إليه، المصريون هنا -أو كما يُسمِّيهم الأوروبيُّون: "الفلَّاحين"- مثل نغمة شاردة خارج السياق صدرت عن عازفٍ بكونشرتو للبيانو والأوركسترا بشكل عفويٍّ ودون قصد! الفقر هنا مفضوحٌ وسطَ الأبَّهة والفَخامة وملابس الأوروبيين باهظة الأثمان. لماذا يريد تيوخاري أن يبكي الآن؟ هل لأن الفلاحين يُشبهون الناس في بلده؟ هل لأن ذلك الطفل الأسمر حامل الحقائب يجرها جرًّا، يجتهد أن يفعل ذلك بمفرده ولا يظهر أيَّ امتعاض خشيةَ أن يُحرم أُجرَته التي ينتظرها بفارغ الصبر؟ أمثال هذا الطفل المسكين يملؤون هيلاس، ينتظرون السفن التي توشك على الرُّسوِّ، يصعدون بخفَّةٍ ليحملوا حصاد الإسفنج -بعد صيده من الأعماق- فوق رؤوسهم الصغيرة...

فكَّر تيوخاري كيف أن الإسفنج لن يتعذَّب بخروجه من الماء، مثلما يتعذَّب هو بخروجه من هيلاس ولو كان على أرضٍ كأنما قفزت من مئات الجزر المبعثرة في بحر بلاده، استعاد ما قاله له أبوه:

- الإسفنج أسعد حيوان في هذا الكوكب، والأطول عمرًا؛ لأنه بلا رأسٍ ولا قلب ولا أذرع ولا أرجل، مجرَّد ثقوب تختزن أثمن شيئَيْن في هذا الكون: الماء والهواء...

"بدون أماليا، أنا مجرَّد كومة من الإسفنج يا أبي، تبتلع الوقت والحسرة"...

تركها إرضاءً لأبيه الذي ألحَّ عليه طويلًا ليسافر إلى الإسكندرية، أحلام الثراء لعبت برأسه وقال في نفسه سأسافر الآن وأعود لاحقًا لآخذها معي، ولكن الحزن الذي استوطن في قلب أماليا عندما عَلِمَت بقراره دفعها إلى الغضب، وغَضَبُ أماليا كالنَّوءِ العظيم الذي لا نجاةَ منه، بسرعة تزوَّجَت، وتركته للرحيل يصنع به ما شاء.

ولكنها لم تبرح خياله، تُلِحُّ عليه صورتها الأخيرة، وجهها المكفهِر، الصليب الخشبي عند منبت صدرها، شعرها الذهبي عندما أعطته ظهرها وأخذت تمشي مُسرِعَةً غاضبة، تدوس الأرض بقدميها الصغيرتين الضعيفتين، وكيف كان مشفقًا عليهما خشيةَ أن تحطِّمَهما الخطوات، وكيف ابتسم بثقة المحبِّ في مَحبَّةٍ مقابلة -وربما تفوق محبَّتَه- لأنها سوف تعود. بعد خبر زواجها، تحوَّلَت صورة أماليا وهي تمشي غاضبة إلى الغوص حتى التلاشي، ولكن ما أن تتلاشى حتى تعود الصورة القديمة مجدَّدًا مع أول نقرة فوق القلب المشتاق إلى طيفها.

وصل الشابُّ اليوناني إلى بيت يانِّي، أعجب بمعماره البطلمي وأعمدته وتماثيله التي ذكَّرَته بالأكروبوليس في أثينا، استقبله عَمُّه وزوجته ألكسندرا بترحابٍ جَمٍّ، وسألوه في شوقٍ عن أحوال البلاد، كيف حال "هيلاس"؟! الجيران القُدامى، الشوارع، والبحار، والأعراس؟ حاول تيوخاري أن يحكي لهم ما استطاع وهو يدفع الرغبة في البكاء، ثم دار حديثٌ طويل في المساء بين يانِّي وتيوخاري بعد تناول طعام الغداء وأخْذ قسطٍ من النوم والراحة بعد الرحلة الشاقَّة:

- سأناديك بكوزيكا كما لو كنتُ أحدِّث أباكَ! أريد أن أستحضر اسمه مجددًا على لساني إن لم يكن لديك مانع!

- بالطَّبع يا عَمِّي.

- لا تتثاءَبْ هكذا أمامي، ولا تقنعني يا فتى بأن الرحلة كانت شاقة، إن اليونان أقرب للإسكندرية من أسوان! انظر يا كوزيكا، أفضل شيء قام به والِدُكَ هو أنه حرص على إلحاقِكَ وأخيك بوليخروني بالجامعة، لطالما كان أبوك رجلًا بعيدَ النظر، في غمار الأزمات تجد معه مالًا، الناس تبكي خوفًا من المجهول وهو يضحك عاليًا في تحدٍّ كأنه نصف إله، أبوك من قلب قلب "هيلاس"، ولكنه لم يكن يفعل مثلنا.

- أفتقد أبي جدًّا يا عمي! أفتقد صوته الذي طالما شبَّهَته أُمِّي بصوت التِّنِّين لكي تخيفنا منه أنا وبولي، لكي نَكُفَّ عن اللهو ونستذكر، كُنَّا نتخيَّل أنه سيقفز في أي لحظة من سقف البيت إلى داخل حجرتنا مثل تنين جبل "أوكي"!

- وتُرى مَن الذي اختار لك ولأخيك أن تتخصَّصَا في المحاسبة؟

- أبي هو الذي اختار لنا.

- قلتُ لك! هذا الرجل غير معقول!

- لماذا؟

- يا بُنيَّ، المال هو الذي يحكم العالم، هو المتحكِّم بمصائر الشعوب، وأدرى النَّاسِ بالمال وأَخبَرُهُم به هم المحاسبون، سأروي لك حكاية صغيرة: لم يكن يخطر ببال أحدٍ أن حربًا أهلية تقع في أمريكا قد تتسبَّب في ملء جيوبنا بثروةٍ لا قِبَلَ لنا بها، والفضل للقطن، آهٍ يا كوزيكا، كانت أعوامًا خمسة أغرَقَنا فيها القُطنُ المصري بالخير الوفير، من 1861 وحتى 1866؛ لأن أوروبا التي كانت تعتمد على القطن الأمريكي تحوَّلَت إلى القطن المصري بعد الحرب، أكثر من ربع مليون فدان كان مزروعًا بالقطن، وأخذ المحصول في التَّضاعُف مع الرقعة المزروعة به حتى وصل أربعة ثم خمسة أضعاف، لا يمكن أن تتصوَّر حجم المكاسب التي حقَّقناها!

- ولكن هل تعمل في زراعة القطن؟

- بالطبع لا يا بني، أنا مُجرَّد تاجر، تقوم تجارته على شيئَيْن لا ثالِثَ لهما: الحاجة والماء...

- الحاجة والماء؟ لا أفهم!

- هذا التاجر الصغير يانِّي، واحد من مئات التجار الأجانب في الإسكندرية الذين يُقرضون تُجَّارًا أصغر في قرى الدلتا بفائدة تقترب من الخمسة عشر بالمائة كل عام، هؤلاء التجار الصغار يُقرضون الفلاحين الأموال اللازمة لزراعة القطن؛ ذلك لأنه يُكلِّفهم كثيرًا، وتتطلَّب زراعته ثمانية أشهر، غير أن منهم مَن حوَّل زراعته نحوه على حساب محاصيل أخرى طمعًا في الربح، لدرجة أن ما يقرب من نصف الدلتا أصبح مزروعًا بالقطن! المهم، أن تُجار القرى كانوا يقرضون الفلاحين بفائدة تقترب من الخمس بالمائة شهريًّا، لا أحتاج لكي أقول لك أن غالبية هؤلاء التُّجَّار يونانيون...

المسلمون هنا يطلقون علينا صفة: المُرابين، ويحرمون ذلك في دينهم أشد التحريم، ولكن المكسب جعل الجميع يتناسى ما عُقِد في قلبه، يُبرِّرون ذلك لأنفسهم على سبيل الاضطرار، ولكن صدِّقني إنه المال والمال فقط ما يريد هؤلاء وغيرهم... نحن مُجرَّد بنوك صغيرة مُتنقِّلة، تفيد وتستفيد...

- آه فهمت... تلك هي الحاجة... ولكن ما شأن الماء الذي تعتمد عليه تجارتك؟

- النيل والقنال والبحران الأبيض والأحمر... على صفحاتهم تُحمل أموالي على هيئة بضائع أُرسِلها لمَن يدفع ثمنها وأكثر، أنا مَن يجلب كل شيء لمشتهيه، جلبتُ اللحم والشحم والتَّبغ والحرير والنبيذ، حتى السلاح... أنا نقَّال الرغائب ومُجري العجائب بين هنا وهناك...

- أوه يا إلهي، لا بُدَّ أن الطريق كان وعرًا جدًّا!

- فوق التَّصوُّر يا كوزيكا، ولكن اعلم أنني أيضًا سلكتُ طريقًا مختصرًا، أي طريقٍ لا يسلكه العامَّة طريق مُختَصر، وهذا سِرُّ النجاح هنا وفي أي مكان، اختر لنفسك طريقًا غير مألوف ولا مأهول بالسالكين، ليكن طريقا مُظلِمًا، أنِرْه. للسبق مَيزَةٌ كبرى هنا يا بُني؛ لأن من يسبق يَصِر له حَقُّ الاختيار. فعندما كان الجميع يتَّجِهون نحو أوروبا ببضائعهم، ذهبتُ أنا في طريقٍ عكسيٍّ، فتجارتي تقوم بالأساس على السوادن وما تحتها. وقد تدفَّق مالٌ وفير عبر هذا النيل لسنوات طويلة...

- إنك لخبيرٌ بهذا العالم الغامض المُخيف!

- المهم، لم أكمل لك حكاية القطن يا كوزيكا! هذا الحلم الجميل لم يستمرَّ طويلًا، انتهت الحرب الأهلية الأمريكية، وعاد القطن الأمريكي لينافس القطن المصري بقوة، انخفض سِعرُه للنصف! هل تُصدِّق؟ تكاثَرَت الديونُ على الجميع، غير أن هذا الخديو المعتوه إسماعيل صرف أموالًا طائلة، حتى إن مصر استدانت من بورصات أوروبا ومصارفها، وطبعًا أنت خبيرٌ بما تفعله مصارف أوروبا في مثل هذه الحالات!

- استغلُّوا الأمر لصالحهم بالطبع!

- استغلوا الأمر؟ لقد استدانت مصر بما يقرب من ثمانٍ وستين مليون جنيهًا ولكن في الحقيقة لم يصلها سوى سِتٍّ وأربعين مليون، وذلك بعد خَصم العمولات وسعر الفائدة، فمثلًا: القرض الذي استدانت به مصر من أوبنهايم المصرفي وصاحب البنك كان يبلغ اثنين وثلاثين مليون جنيهًا، وبعد خصم الفائدة التي تُقدَّر ب- 14% وعمولة أوبنهايم نفسه، حصَلَت على عشرين مليون جنيهًا فقط!

لا تُصدِّق أن الملوك وساسَتَهم هم مَن يسيطرون على العالم، أمثال أوبنهايم ونوبار باشا هم من يتحكَّمون بكل شيء، حتى بمُقدَّرات الشعوب ومصائرها، الوسطاء هم الآلهة الجُدُد يا كوزيكا. تخيَّل أن تلك الديون هي التي دَفَعَت إسماعيل لبيع حصَّة مصر من أسهم قناة السويس للحكومة البريطانية بأربعة ملايين جنيه استرليني فقط! وليت الأمر توقَّف عند هذا الحد؛ إذ إن بريطانيا وفرنسا أرسَلَا خبيرين من خبراء المال من قبلهما لتقييم الوضع المالي، وكان وجودهما السبب الأساسي وراء إعلان إفلاس مصر!

- يا إلهي، أشعر بأن حكايتك تأخذني نحو اليأس بعد أن كنتُ متفائلًا! هل أخطأتُ عندما جئتُ إلى هنا؟

- بالعكس يا بني، كنتُ أودُّ أن أخبرك بأن مِهنَتَكَ هي الأهم الآن... الجميع في حاجةٍ إلى خبير ماليٍّ؛ إمَّا ليزيد من ثروته أو لِيُسدِّد ديونه، الجميع في حاجة إلى وسيط يُقرِّب المسافات حتى بين الدول

الأعداء المتنازعة... كلنا نستدين من بعضنا البعض، ندور بلا توقفٍ، دنيا الربح والخسارة تحاصرنا، ولكن لا تنسَ أنَّكَ أجنبي، يوناني الجنسية، وتلك ميزة كبرى في مصر الآن، وهذا ما جعلني أرسل لأبيك ليشجِّعَكَ على القدوم؛ فوجود محاكم مختلطة مَكسَبٌ كبير لكل أجنبي يعيش بمصر... هل فَهِمتَ الآن؟

- نعم يا عمِّي، ولكني قَلِق، يبدو أن انجلترا وفرنسا تتنازعان أيهما تُهَيمِن على مصر، لا أعرف فيمَ سأعمل، وكيف سأُدبِّر أمري حتى أجد العمل المناسب في هذا الوقت الحَرِج.

- انظر يا بُنيَّ، إنها مسألة وقت، ستفرض انجلترا سَيطَرَتَها آجِلًا أم عاجلًا، ولكن لن يؤثر ذلك علينا في شيء... أؤكِّد لك...

- ها أنا ذا قد هربتُ من حربٍ وشيكة مع التُّرك في بلادي، لحربٍ وثورة في مصر... وما قصَّة "عُرابي" هذا؟ وهل سيستطيع رَدعَ قُوَّتَيْن ضد بلاده؟

- الثورة جيِّدة للمصريين، ستجعلهم في روحٍ معنوية عالية تدفعهم إلى المزيد من أحلام الرخاء والطموح المادي، توهمهم بأن هناك فرصًا حقيقية للتغيير، وهذا ما يهمُّ تاجِرٌ مثلي لن يرد أحدًا طلب مساعدته ليحسِّن من وضعه المالي، "وكله بثمنه" كما يقول إخواننا المصريون...

- والغُربَة؟ ماذا فَعَلتَ معها؟

- أي غُربَةٍ أيها الساذج؟ أنا هنا في وطني! في راكوتيس المدينة التي باركها الإله!

أمَّا الآن فلا تُفكِّر إلَّا في عملك معي، وبالتدريج ستفهم كل شيء، تذكَّر: أنت منذ الآن مسيو كوزيكا، حَسِّن من فرنسيَّتِكَ، وكُنْ حريصًا على التَّحدُّث بها من وقتٍ لآخر؛ سيجعلك ذلك تبدو كواحدٍ من أبناء الطَّبقة العُليا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(3)

خَنَّاق الكتاكيت

لا تعطي شوقة الأمانَ مُطلَقًا لأي قابِلَة، وطوال سنوات معرفتها بصبر الجميل وهي لا تسمح لأي واحدةٍ منهن أن تقتحم هذه اللحظةَ الفارِقةَ في حياة صاحبتها الوحيدة، وبرغم قسوة الأمر عليها تعلَّمَته شوقة بكل حبٍّ ورضا؛ حمايةً لتلك المسكينة صابرة، التي لا تعرف الكثير عن غدر الدنيا وقساوة البشر مهما بَدَا عليها أنها "واعية" و"عاقلة"، لا... إنها لم تَرَ شيئًا...

كانت شوقة على علمٍ تام بقصة تسميتها، وبكل ما عانته أمُّها حتى حَمَلَت بها، بنَفاد صَبرِ أبيها الذي تزوَّج بأخرى بعد مرور ثلاثة أعوام على زواجه من والدتها، وبتلك الليلة الرهيبة عندما تَعلَم امرأةٌ بأن رَجُلَها في لحظةٍ آنيَّةٍ يُسلِّم جسده لأخرى، ويُفضي إليها كما أفضى إليها من قبل! يا لهولِ تلك اللحظة عندما لا يكون لها حولٌ ولا قوَّة في القلب الذي انقلب عليها، فتنقلب الدنيا بما فيها فوق رأسها... ولا حول ولا قوة إلا بالله!

إذا كان الأمر ينقلب هكذا فمن أين أتت تلك التسمية: "بيت العَدَل"؟ أليس ذلك معناه أن ينعدل حال الفتاة من دول بزواجها؟ يستقيم لها الأمر وتدنو لها الأفراح فتطيب لها الدنيا في كَنَفِ زوجها؟ أم تراه بيت "العَذَل" حيث اللوم والتأنيب والتفريق؟

تعرف شوقة كُلَّ شيء عن استجداء أمها له في الليالي المظلمة، بعد انطفاء لمبة الجاز، كيف تمسَّحَت في جسده الراقد بجانبها بعد وجبةِ حُبٍّ مشبعة عند زوجته الأخرى، بل إنها تكاد أن ترى تلك الدمعة التي طفرت من عينها عندما نهرها قائلًا: "نامي يا مَرَه"... كانت تدرك ما وراء محاولاتها المضنية، لم يكن الأمر وَحشَة امرأةٍ تشتاق رجلًا، بل كان هذا الأمل المعذَّب في مجيء شوقة إلى الحياة، حتى لو أنها لا تطيق رائحته أو لمسته، حتى لو أصبح الأمر بالنسبة إليها شبيهًا بالذبح.

وجاءت شوقة بعد ذَكَرَيْن متتالِيَيْن من زوجته الأخرى، جاءت من رحمٍ لم يكن ينزف دمًا، بل ينزف حزنًا وألمًا، نتاج ليلةٍ يتيمة "من تحت ضرس" الأخرى، وأصرَّت أُمُّها على تسميتها بهذا الاسم: "شوقة"؛ حيث كَرَم الله الذي أنصفها بعد شوقٍ وعطش.

ولكن لم يكن يخطر ببال شوقة ما سوف يحدث لها، "ولا في الأحلام ولا في الكوابيس" كما اعتادت أن تقول، تزوَّجَت شوقة من مصطفى، والذي أَحَبَّها حبًّا جمًّا من الليلة الأولى، لم تفهم أبدًا سِرَّ تَعلُّقِه بها من لحظة أن رآها جالِسَةً على السرير النحاس تَحفُّها عمدانه اللامعة، تخيَّلْ أنها في "تَخْتَروان" يطير بها في السماء، ولا عندما يمسك بضفيرَتَيْها السوداوين بكلتا يديه ويظل يشمُّها وعبير زيت الياسمين يضوعها، كانت تستغرب أفعاله وتلك الكلمة التي يُردِّدها بلوعةٍ تحرق باطنه عندما يعتليها فجأة: "باحِبِّك يا بِتّ"... كانت تضحك، وتشعر بِزَهوِ أنثى تمتلك المحروسة بأكملها، لم يكن ينغِّص عليها حياتها مع مصطفى سوى أُمِّه المتسلِّطة، التي لا ترضى أن يهتم ابنها بشوقة إلى هذا الحد، لم يكن في استطاعتها أن تشاهدهما معًا في مكانٍ واحد، فعادةً ما تختلق المشكلات من العدم، وتمطر الشابَّ بطلباتها التي لا تنتهي، كيف ينظر الولد إليها هكذا؟ يحسب أن أمَّه لم تَرَه غامزًا بعينه لشوقة

فتقول بصوتٍ مرتفع: "قِلة حَيَا"! وينتهي الأمر بطردهما من بيتها؛ فيسرعان إلى مسكنهما المواجه لها في نفس الطابق لِيُكمِلا وَصلَة الغمز والهمس واللمس، كانت شوقة تشعر بالحزن أحيانًا ولا تدري لماذا تكره أمٌّ لابنها أن يتزوَّج ويصير سعيدًا هانئًا في بيته؟ حتى عندما زفَّ مصطفى إليها خبر حملها، لم تُظهِر أيَّ فرحة، وقالت في نفسها:

"بُكرَة تِركَبَك يا محروس"!

وبعد عام من زواجهما جاءها المخاض، وأرسل مصطفى في طلب القابِلَة "أم شلبي"، رأته أمه حائرًا يكاد ينفجر من القلق عليها، ثم خطرت لها حيلةٌ لا تخطر ببال بَشَر، انقلبت الحماة إلى أمٍّ حَنون فجأة، وربتت على كتف ابنها وأخبرته بأنها لن تترك شوقة لحظةً واحدة حتى يصل حفيدها المُنتَظَر، وعندما وصلت أم شلبي طلبت منه أن يتركَهنَّ وينتظر في المقهى حتى تأتيه البشارة، حينها كانت شوقة تتألَّم وتصرخ بشِّدة، همَّت أم شلبي بمساعدتها لتخرج الطفل، فمنعتها الحماة وهمست في أذنها، أخرَجَت من صدرها قطعةً ذَهبيَّةً وانطلقت المرأة تجري على سُلَّم البيت إلى أسفل، ظلَّت أم مصطفى تنظر إلى شوقة بتشفٍّ وهي تتألَّم وتصرخ، تطلب النجدة ولا أحد يعينها، إلى أن فقدت الوعي واصفرَّ وجهها، عادت أم شلبي بعد وقتٍ قصير تخفي شيئًا بين يديها، وعندما وصلت ورأت وجه شوقة ارتعدت من الخوف وخشيت أن تكون المرأة قد أسلَمَت الروح، صفعتها عدَّةَ مَرَّاتٍ على وجهها حتى استعادت وعيها وبدأت تجاهد في دفع الطفل خارجها، وبعد مُعاناة نزل المسكين مختنقًا من داخل رحم شوقة، تلقَّت الجدَّةُ الطِّفلَ في الوقت الذي غمزت فيه لِأُمِّ شلبي لكي تكمل عملها المطلوب، فأخرجت ما كانت تخفيه، فإذا بها تُدخل "عِرسَة" حيَّة في حجم كفِّ اليد مكان الطفل، لمحت عينيها الكبيرتين قبل أن تغوص في حمَّام الدم المتدفق من شوقة، وتسبح في أعماقها بجسدِها المَرِن ولونها الطِّينيِّ، كان من المفترض أن يبكي الطفل، أن يظهر أي علامة حياة، ظلَّت الجدَّةُ تَهزُّه مرَّاتٍ ومرَّات دون جدوى، بينما عادت شوقة للصراخ من جديد، انسلَّت أم شلبي من الغرفة وهربت مُسرعَةً قبل أن يصل مصطفى ويسألها عمَّا حدث، لقد رأى الابنُ تلك النظرة على وجه أُمِّه لبُرهَة، حاولَ أن يُكذِّب نفسه، مستحيل أن تكون تلك نظرة تشفٍّ وانتصار، وذلك قبل أن تُغيِّر ملامحها في لحظِة وتفتح صوتها بالعويل والبكاء، تقمَّصَت الدَّورَ جيدًا وجلست بجوار شوقة تعزِّيها وتحتضنها والمسكينة لم تهدأ دقيقة واحدة منذ أطلقت أم شلبي العِرسة الحيَّة بداخلها تنهش في لحمها، أمَّا مصطفى فكان في حال، لا يدري ما يفعل، بين موت ابنه وبين زوجته التي يبدو أنها على وشك الموت أيضًا، فقدت وعيها ثانيةً فحملها بين ذراعيه وفوقها ابنه الذي أسلم الروح، وهبط بهما عبر السلالم إلى أسفل، يمشي في الحارات والأزِقَّة، وحمَّامُ الدَّم لا يتوقف، استوقف حنطور وطلب منه أن يذهب بهم إلى أقرب مشفى، وبعد أكثر من ساعة وصل بَهما إلى هناك، أخذوهما منه وأدخلوا شوقة غرفة عمليات ثم خرج الطبيب إليه لا يدري ما يقول، اعتقد مصطفى أن شوقة ماتت هي الأخرى ولكن قال الطبيب أنه اضطرَّ إلى استئصال الرحم بسبب النزيف الذي لم يتوقَّف، وأن هناك أمرًا عجيبًا ساعد على زيادة النزف، فلقد وجد الطبيب بداخل رَحِمِها "عِرسَة"!

وضع مصطفى يده على فمه وكاد يقع على الأرض من هَوْل الصَّدمة! ماذا فعلت بها تلك المرأة أم شلبي؟ ماذا عساه يفعل الآن؟ وماذا يقول لشوقة؟ هل لأُمِّه دَخلٌ بما حدث؟ هل تلك النظرة أخفت أكثر ممَّا أبدت؟

"خَنّاق الكتاكيت" في رَحِم شوقة؟

لا حول ولا قوة إلَّا بالله!

انهمر في البكاء وجلس على أرضيَّة المستشفى الباردة لا يدري أين المفر من هذا القدر، لا حول له ولا قوة، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

انهار مصطفى تمامًا وبدت عليه أمارات الجنون... يضحك ثم يُجهش بالبكاء، تذكَّر كيف كانت أمه تحثُّه وهو صغير لكي يبحث عن جُحور العِرَس، في شقوق بيتهم والبيوت المجاورة قائلةً:

"يا سَعدُه اللي يلاقي جُحر العِرسَة"!

وعندما شرحت له كيف تسرق العِرسَة الذهب وتخفيه في بيتها واستفاضت في سرد قصص مَن اغتنوا من العدم في حارتهم والحارات المجاورة، انطلق مصطفى يبحث في كلِّ مكانٍ عن الكنوز المخَبَّأة، يلاحق العِرَس ويطاردها ويراقبها ليلًا وهي تخنق الكتاكيت وتمصُّ دماءها الطازجة، ثم يئس من البحث ونسي الأمر حتى تزوَّج شوقة، فوجد الذهب الخالص بين ساقيها، لذَّة العمر وسكن الروح وشهد الليالي المُرَّة كالخمر التي يصنعها.

ضحك حتى البكاء، لقد وجد أخيرًا جُحر العِرسَة بعد كل تلك السنوات: رحم شوقة الذهبيَّ...

ولكن "ابن عرس" خنق أغلى ما فيه! ابنه!

آهٍ يا ربَّ هذه الأرض الملعونة...

ولكن تلك هي تصاريف القَدَر، عادت شوقة إلى بيتها وقد شُفِيت بمعجزة، وقبل أن تترك المشفى بأيَّام سألت الطبيب كيف يمكنها الاحتفاظ بجثة ابنها الميِّت، تعجَّب الطبيب وأشفق لحالها وحاول قَدرَ إمكانه أن يثنيها عن هذا الأمر، ولكن هيهات، فقد أصرَّت شوقة على طلبها، فوضع الطبيب طفلها المكتمل في إناءٍ زجاجيٍّ مملوءٍ بسائل شفَّاف يحفظه، بعد أن قام بعملية تحنيط صغيرة لم تستغرق منه وقتًا طويلًا، أصرَّت على حَمل الإناء الملفوف في الورق خشية أن يقع وينكسر من مصطفى، فلربَّما ضاع ابنها منه مُجدَّدًا، وما إن دخلت شوقة البيت حتى أقبلت على الإناء الزجاجي تكشفه وبداخله الطفل السابح فيه يتدلى منه الحَبلُ السُّرِّيُّ الذي كان يربطه بها، حاولت شوقة أن تستوعب ما ترى، ولكنها فشلت في ذلك، دموعها التي تنهمر بدون صوت تشرح كل شيء.

لم تستطع شوقة الانتقامَ ممَّن آذوها، لم يكن لديها طاقة لذلك؛ فلقد قضى الحزن والألم والحسرة على ما تبقَّى من مقاومتها كإنسانة، كانت تنظر إلى مصطفى بحنقٍ وكراهية، تصبُّ عليه العذابَ صبًّا، لم تعد الأمور أبدًا كما كانت، مهما حاوَلَ الرَّجُلُ إرضاءها أو تعويضها، بالذهب والمال والبيت الجديد، حتى عندما مرضت والدته بداء عُضالٍ لم يفلح أحدٌ في معرفته، يجعلها تنزف بغزارة من الشرج، وانتهى بها الأمر في النهاية إلى الموت وحيدةً داخل دورة المياه، كل ذلك لم يفلح في إعادة شوقة لسيرتها الأولى.

"واد يا صابرة... واد...

شيلي إيدك من على وِدنِك...

فرحة الصبي تخرق طبلة الودن وتخرق خِتم العذارى يا بت"...

قالت شوقة بفرح وصوتها يعلو، ترتجُّ له جدران الغرفة التي لا تكتمل فيها الأفراح أبدًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(4)

ركلة في رقصة هاسابيكو([5])

"إيَّاك أن ترُدَّ مُقترِضًا، لن تعرف حَجمَ المكسب الذي قد يؤول إليك بفضل قرضٍ صغير، وهل أتى اليونانيُّون إلى مصر إلَّا بفضل المال الذي اقترضه محمد علي باشا في "كا□الا"([6]) من تيودور أحد أبناء توسيزا؟".

باتت نصائح العم يانِّي تحيط بي ليل نهار، في عالم يستثقله أغلب العاملين فيه، المال والعمولات والفوائد، الأرقام والحسابات، المكسب ثم المكسب ثم المكسب... ثم ذلك الشيء الرهيب الذي يخشاه الجميع وقد يموتون كمدًا بفضله: الخسارة. حتى هذه اللحظة، لم يكن لديَّ شيء لأخسره، ولكن تلك النصائح التي تتردَّد في نفسي جعلتني أفكِّر طويلًا، وخاصَّةً حكاية محمد علي تلك، كيف أن قرضًا صغيرًا يتسبَّب في دعوة الوالي للرَّجُل الذي أقرضه ليفتح له بوَّابَة هذا العالم، أي نعم كان تيودور توسيزا ابن تاجر فِراءٍ، ولكنه ومن بعد صداقة الوالي صار أغنى أغنياء الجالية اليونانية في مصر، وتوسَّعَت تجارته في كل أوروبا!

الحظ مع بُعد النظر!

ليتني وُلِدتُ في هذا الزمان، وقبل الجميع، فسبقتُهم إلى الطريق كما قال العم...

أحسدهم... نعم أحسدهم... أن تحسد خيرٌ من أن يُشفَق عليك!

كانوا تُجَّارًا أربعة من هيلاس: توسيزا، دي أناستازي، زيزينيا وكاسولي، عقل وأذرع محمد علي، كانوا يفكِّرون له وفي الوقت نفسه يحتمون به في ظِلِّ حكوماتٍ يونانية ضعيفة، آثروا مصر وصمتوا عن الدخول في حروبٍ قد تُحرِج الوالي أمام التُّرك: أَلَدِّ أعدائهم، حتى أنهم بنوا ثلاث سفن في أسطول الباشا! قال العم يانِّي: لا يهم أن تكون منحازًا أو على الحياد، المهم كيف يؤول الأمر في النهاية إلى حتميَّة المكسب.

تلك هي شريعة التاجر...

بعد فترة وجيزة من مكوثي بالإسكندرية اكتشفتُ شجرةَ العائلة المباركة، التي بدأت بزواج خوريمي من بولوديا، زيوس وهيرا جديدان أنجبا 11 ابنًا وبنتًا، ثم تزاوج الأبناء والبنات فيما بين عائلتَيْ بيناكي وسال□اجو، ذلك التلاحم الذي أفرز آلهة جبل الأولمب السكندري، حيث لا يتغيَّر الزمن ولا تتعاقب الفصول، حيث النعيم الدائم والسعادة المقيمة والحياة السهلة الميَسَّرة بلا هموم، رفاهة وسطوة وخلود...

السابقون السابقون إلى أرض الأحلام!

ويا لهفي على مَن لا عائلة له...

ولهذا چورچيو أيروف هو المفضّل لديَّ!

حكى لي عمِّي أنه في غمار ازدهار بيع القطن، حلَّ بالقاهرة وباءُ الكوليرا المميت، فَزِع تُجَّارُها فزعًا دفعهم وذويهم للهروب إلى الإسكندرية تاركين خلفهم أطنانًا من القطن حيث لم تمهلهم الكوليرا لبيعه وتحصيل ربحه، أمَّا أيروف فلم تكن لديه عائلة يخشى عليها من الوباء ولا شريكة تهتمُّ لأمره وتحثُّه على النجاة بنفسه وبها. أتخيَّله جالسًا بين الفلاحين الموتى مُحاطًا بجوالات القطن المقطوف بأيدٍ يَسري فيها الوباء، لا مُبالٍ، يتمنى في قرارة نفسه أن يموت مثلهم، ينتظر الضيف الثقيل بين لحظة وأخرى، ولكنه لم يأتِ، وأرسل إليه ثروةً كبرى بالنيابة عنه. فقد استطاع أن يشتري كل القطن المهجور بأزهَدِ الأثمان، ليُحقِّق من هذه الصفقة مكسبًا يزيد عن 120 ألف جنيه مصري!

المحظوظ نجا من الكوليرا وربح ثروةً لم يَسعَ إليها، لينتقل في نهاية العام إلى الإسكندرية مُعزَّزًا مُكرَّمًا، لا هربًا ولا اضطرارًا، وعلى أفضل ما يكون!

إذًا هي المقامرة يا كوزيكا، والمقامرة تعني المجازفة، والمجازفة تتطلَّب شَجاعَةً، وهذا يعجبني...

يعجبني أيضًا أن أخرج من جوِّ الحسابات الخانق إلى اتِّساع البحر، أن أقف هكذا أمامه وأستمع إلى حديثه الصاخب، لماذا لا يبقى المرءُ طفلًا لوقتٍ أطول؟ أصوات الموج المتلاحقة تشبه أيامي التي تتعاقب عليَّ دون أن أشعر، أفتقد عائلتي وأنتظر وصول أخي بولي بفارغ الصبر... لم يتَسنَّ لي أن أصنع صداقاتٍ بَعدُ، رجل يتعامل مع المال، لا بُدَّ وأن يكون حريصًا أشدَّ الحرص مع مَن حوله...

ربما كان ذلك سبب عدم اكتفائي، ما العُمر إلا رقصة "هاسابيكو" يا كوزيكا يُعضَّد فيها الرَّاقِصُ بذراع أخيه... أوه! ما أثمن تلك اللحظات! كنَّا -مَعشَرَ الفتيان- نراقص الفتيات، نصنع دائرةً كبيرة، لا من أجسادنا فقط، بل من أحلامنا ومَحبَّتنا الخالصة، نركل الهواء بأقدامنا المرفوعة في الهواء ونضحك، ما من شيء سيقف أمام إرادتنا القوية لنحيا... تَفرَّقنا، وبقيت الخطوات في قلوبنا تراقص ذكريات كاريستو على إيقاع الاغتراب والشتات.

تأخذني الخُطى إلى شوارع جديدة كل يوم، أكتشف أن ميدان محمد علي قسم هذه المدينة العجيبة إلى ثلاث مدن: مدينة التُّرك، حيث رأس التين كالتَّاج فوق جسد العروس، عن يمينها الميناء الشرقي حيث المدينة الأوروبية الراقية بأسماء شوارع فرنسية ومعمار بَطلَميٍّ وروماني وإنجليزي قديم؛ فتشعر أنك في مارسيليا أو نابولي أو ميناء بيريوس، وعن شمالها الميناء الغربي إذ يقطن المصريون البسطاء، العاملون بالفلاحة أو الصيد أو غيرِها من المهن التي لا تغني فقيرًا في هذي البلاد، بيوتهم صغيرة ومُكدَّسة، ولكن بين نوافذهم والبحر ألفَة ما، ولو دَقَّ الصقيع عظامهم في الشتاء ولو اصطفُّوا بالفؤوس على الرصيف المواجه يتوسَّلون أي عمل يَسدُّ جوع أطفالهم. يظل البحر يُحبُّهم أكثر ويشملهم بحمايةٍ تقيهم شَرَّ ما غاب عن أنظارهم في أعماقه وخلف السُّفُن الرائحة والغادية كل ساعة.

عندما تَكرَّم عَمِّي وسمح لي بالسَّكَن معه وزوجته في بيته الكبير الفخم بكوكينيا، كان قد وفَّر عليَّ الكثير من المال، ولكن لم يمنعني ذلك من التفكير في الأمر: أين سأعيش عندما تنقضي تلك الأيام؟ في قرارة نفسي لا أشعر بأنني أنتمي للحي الشرقي مثلما يشعر يانِّي، هم منسجمون ومتناغمون فيما بينهم، أبناء العائلات الكبرى، أصحاب الثروات، ربما أستطيع العيشَ بين الفلاحين والصيادين

المصريين في "المَكَس" مثلًا، أو "الأنفوشي"، حتى أن سواد اليونانيين العاديين السارية في عروقهم دماءٌ هيلانية فحسب وليس مُهلًا كعروق آلهة الأولمب الجُدُد- يخالطونهم ويصادقونهم ويسكنون معهم.

على غير عادته بَدَت على عمي يانِّي أمارات القلق والاضطراب، هو الذي بات واثقًا من كل شيء كعينٍ كاشفة ترى المستقبل بوضوح، مطمئِنٌّ على الدوام، كنتُ أفسِّر هذا الاطمئنان على أنه اطمئنانُ مَن يَملِكُ ولا يُملَك؛ فصاحب هذه الثروة التي تجري عبر النيل والبحرين لا يُعقَل أن يُقلِقَه شيء، ولكن كنتُ مخطئًا، وكذلك عمِّي!

فلا ثروة قد تحمي أجنبيًّا في بلدٍ مضطرب، ثائِرون أَهله وساخطون، ألم يرسل أبناء هيلاس مَن يغتال توسيزا الابن عندما آثر البقاء على الحياد وقتما ثارت اليونان؟ ربَّما جاء هذا الثائر على متن سفينة من سفن توسيزا نفسه... ثروته تلك لم تحمِه من النَّفي خارج مصر، ولا الموت في أثينا كَمَدًا...

في غفلةٍ منَّا وصلت البوارج البريطانية والفرنسية إلى الإسكندرية، أصبَحَت في المواجهة تمامًا مع أحلام الناس ومستقبلهم، والحركة الوطنية العرابية تَستَفزُّ الدولتين الكُبرَيَيْن، ولكي يزداد الأمر سوءًا وصلت سفينتان من اليونان بادِّعاء حماية الرعايا في الإسكندرية!

لا أعرف الكثير عن المصريين، ولا يعرفني أيٌّ منهم بالطبع، مجرَّد تبادُل ابتسامات مع الباعة الجائلين، إلقاء تحايا الصباح والمساء على الخدم والحمَّالين في الرَّملة، حيث أعمل، نظرات التعاطف التي تفلت مني إذا أبصرتُ طفلًا يعمل فوق طاقته، الأحاديث القصيرة بلُغَةٍ عربية ركيكة مع الحوذيِّ في الطريق إلى بيت عمي، أو في حانات ترعة المحمودية، أو بحري، لو جلستُ أحتسي شرابًا رخيصًا حيث يجلس أولاد البلد، ولكن ما اكتشفته أن قلبي منحازٌ إلى الضُّعَفاء، مستنكر لمبدأ القوة التي تُفرض على البشر فرضًا، أحاول أن أفهم ما يحدث، ولكنَّ الأمرَ مُعقَّدٌ للغاية، أشعر بالحرج بسبب هاتين السفينتين، ولو أني لم أصادق سكندريًّا بعدُ أخشى عليه من البطش.

أسمع كلامًا غريبًا عن قتل الأجانب والانتقام منهم، وأن الأَوْلى بالخشية على حياته هو أنا، عمِّي يشتري السلاح ويعطيني واحدًا لأدسَّه تحت سُترَتي، ويقول: احتفظ به في غرفتك، لا أحد يعلم ماذا سيحدث في الأيام المقبلة، أقول له كيف أحمل هذا السلاح؟ أنا حتى لا أعرف كيف أستخدمه! يرد عمي يانِّي بأنها أوامر قنصل الإسكندرية كليون رانجا□يس، ومن فوقه رئيس الجالية! أسترجع ما قاله لي قبل أشهر: أنا هنا في وطني! أشعر بالخوف والارتباك، أريد العودة إلى هيلاس، أحتضن أمي، وأقبِّل أبي، وأرقص مع بولي رقصةً نركل فيها الهواء معًا...

حتى جاء يومٌ انقلبت فيه الدنيا فوق رؤوسنا، يوم من أيام الآحاد الجميلة التي يروق للمرء فيها التنزُّه والتَّريُّض، يوم صيفيٌّ هادئ، نسمات البحر تهبُّ على المارَّة من حينٍ لآخر تُهَدهِدُ قلوبهم وتُمنِّيهم بأيام أجمل، الكثيرون من سُكَّان الميناء الشرقي في الإبراهيمية وميدان القناصل والرمل ذهبوا مع أُسَرِهم إلى شاطئ ستانلي، يوم صيفي هادئ رغم تِلَل الفتيان الهامسين باسم عرابي في أعقاب يوم الاضطراب قبل شهور، رغم ما يُحاك في قصور التُّرك والقناصل من خُطَطٍ، وما يُكتَب ضدَّ عرابي في صُحُفٍ مثل "التيمس" و"اليال مال غازيت"، وحتى "التاكيدروماس" اليونانية، كنتُ أتنزَّه بالقرب من الحدائق الفرنسية، عاقدًا العزم على التوجُّه نحو البحر لأتناول غداءً خفيفًا مع شراب

مُنعِش، لم يُرِد عَمِّي وزوجَتَه تَرْك البيت، كانا يترقبان حدوث ما أشيع من أبناء الجالية بل ومن رئيسها نفسه، يتباحثان فيما بينهما عمَّا سوف يفعلانه لو حدث مكروهٌ للأجانب هنا، حتى سمعتُ أصوات طلقات رصاص، انخلع صدري من المفاجأة ووجدتُ العشرات قد فزعوا من الصوت، مُطلِقين صيحات الاستغاثة، فارِّين، شعرتُ بالخوف والضياع، صوت الرصاص لا يتوقَّف، الكل يهرب إلى بيته، ما الذي يحدث؟ وكيف سأعبر إلى بيت عمِّي؟

تجمَّدَت الدماء في عروقي، وقفتُ بلا حراك أبتلع ريقي، أحاول أن أفهم أو أفعل أي شيء!

باسم الآب والابن والروح القُدُس... أنا الآن فعلًا كومَةٌ من الإسفنج بلا أذرع ولا أرجل، أوشك أن أفقد رأسي وقلبي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(5)

جَروٌ وسَبعُ رَضعاتٍ مُشبِعات

منذ ذلك اليوم و"صبر الجميل" تُصرُّ أنها "الوِلدة الأولى" لها على طريقة القطط، وكل اللاتي جِئن قبل "طلعت" وساخة بطن ليس أكثر، تظل مستيقظة إلى جانبه، لا تقدر على نوم يحرمها رؤيته أو مراقبة ما يُحاك له من وراء ظهرها؛ عمل يُنثَر على وجهه، تعويذة شيطانية يُتمتَم بها في أذنه، أو حتى سُمٌّ يوضَع على شفتيه الدقيقتين، يكاد الشَّكُّ أن يقتلها، ولا أحَدَ في مأمنٍ من شكوك الست صابرة، حتى تلك التي تَرَبَّت معها وتعتبِرها أختها التي لم تَلِدها أُمُّها: شوقة، ولماذا نذهب بعيدًا؟ حتى أخواتها وبناتها لم يَكُنَّ آمِناتٍ من تلك الظُّنون...

أسرعت في طلب "السَّبَع عهود السُّليمانيَّة" وعَلَّقَتها في رقبة الرضيع، ولكنها لم تشعر بالاكتفاء، ظلَّت خائِفةً ومُترقِّبة ولم تعد تقدر على النوم من شدة القلق الذي يعكِّر فرحتها بالذَّكَر.

أشارت عليها الجارة بأن تُرسِلَ في طلب زنوبة الغجرية، هي الوحيدة التي تستطيع أن تحمي الولد من أي مكروه، بحيلها التي لا تنتهي، جاءت زِنوبة وفِضَّتُها تُشَخشِخ في معصميها وقدميها وفوق صدرها، نظرت إلى وجه الرضيع بين ذراعيْ أمِّه، وقالت:

- هاتصرَّف!

ونزلت مسرعةً وعادت بعد ساعة أو أكثر تحمل بين يديها جروًا أسود اللون بنقطة بيضاء عند مبتدأ ذيله الصغير، صرخت (شوقة):

- ناوية على إيه يا زنُّوبة؟

- لازم ترضَّعه مع اسم النبي حارسه عشان يعيش!

وضعت شوقة يديها خلف رأسها وتأهَّبَت للصياح بالصوت الحيَّاني، فوضعت صابرة كفَّها فوق فمها بحزم، وتناولت الجرو من يد زنوبة بهدوء بعد أن تركت ابنها في حجر شوقة، أخرجت ثديها السَّخي صامتةً وهي ترتعش، والجرو ينبح بصوتٍ غير مكتَمِل بعد، يبعث على الشفقة، يقشعرُّ بَدَنُها كله ما أن لمس فراؤه الأسود لحمها الأبيض، تَصلَّبَت عضلاتُ جسمها من الرُّعب، لا تجرؤ على رفض أي شيء قد يطيل عمر طلعت، سوف توافق على كل شيء وأي شيء، لو طلَبَت تلك الغجريَّةُ -والتي تعرف صابرة كم تكرهها وتتمتَّع بتعذيبها في مواقِفَ كهذه-حتى أن تأكل خراء هذا الجرو لن تتأخَّر، أن تقطع من لحمها وتؤكِل كلاب حي السيدة بأكمله ستفعل أيضًا... المهم أن يحيا طلعت ويكبر حتى المشيب ويقف في جنازتها ويأخذ عزاءها.

مرَّت تلك الأفكار بصابرة والجرو الجائع يمصُّ ثَديَها ولبنها يتدفَّق في جوفه، خُيِّل إليها أن لبنها قد يدفع النقطة البيضاء الوحيدة على فراء الجرو -تدريجيًّا- إلى الاتِّساع لتحتلَّ مكان السواد الذي يخيفها، في الوقت الذي تسمَّرَت فيه شوقة والجارة كلتاهما لا تقدران على التَّفوُّه بكلمة أمام هذا

المشهد الغريب... الأمر الذي دفعهما إلى التفكير: هل بإرضاع هذا الجرو خمس مرَّاتٍ تكون صابرة أمًّا له ويصير أخًا لطلعت وأخواته البنات؟

وما نَفعُ هذا وهو في النهاية مجرَّد جرو؟ فلن ينطق هذا المسكين ويقول الست صابرة أرضعتني، وبالطبع لن يأتي يومٌ يطلب فيه إحدى بناتها للزواج!

ولكن هل سيطاوعها قلبها لتلقي به إلى الشارع مرة أخرى؟ أو أن تعيده ليرضع لبنَ الكلاب بعدما ذاق لبنها؟

ابتسمت شوقة وهي تدرك أن معرفة صابرة كانت الشيءَ الوحيدَ الذي أنقذها من الجنون، أبناء صابرة وهموم صابرة والمحبة الخالصة التي لا شِيَةَ فيها، حتى أنها كانت في بعض الأحيان تنسى ما حدث لها... نعم... سوف تُقسِم شوقة على القرآن أنها نسيت العِرسَة التي أكلت رَحِمَها عندما رأت صابرة تُرضِع الجرو من ثديها، سوف تقسم أنها تحمل وتَلِد في كلِّ مَرَّة معها وتنسى تمامًا أمر الإناء الزجاجي الذي يحوي ابنها الميت... الأكثر من ذلك أن شوقة كانت تدعو مع صابرة أمام مقام السيدة نفيسة أن يُعوِّضَها بالذُّرِّيَّة الصالحة، مع صابرة كانت شوقة تنسى تمامًا أنها امرأة بلا رَحِم، امرأة لا تَلِد مثل الجنِّيَّة "أم الصبيان"!

وفي كل مرة، بعد الدعاء والبكاء والاستجداء، تخرج كلٌّ منهما مُتَّكِئَةً على الأخرى، تعرف بالتحديد عِلَّتها، أو بمعنى أدق لعنتها:

- كله من شُغل الرِّجَّالة الوِسِخ...

نبقى مجاورين السيدة ويشتغلوا الشُّغلانة دي؟

لا حول ولا قوة إلا بالله...

مرَّةً بعد مرَّة، أَلِفَت صابرة الجرو، حتى أنها تتعامَلُ معه كطفل دون أن تشعر، تُربِّت على ظهره بعد انتهاء الرضعة مثلما تفعل مع طلعت تمامًا، تنزعج إذا توقَّف فجأة عن الرضاعة، وتبحث عن آثار لزُرقَة وجهه؛ خشيةَ أن تخنقه قطرة لبن... الأمر الذي جعلها تُفكِّر كيف ستدرك أن ذلك قد حدث فعلًا مع الجرو ببَشرَته السمراء التي سوف تحجب الزُّرقَة؟

وبعد انتهاء الرَّضعات الخمس المُشبِعات اللازمة لحماية طلعت من الموت لا قدَّر الله، لم تتوقَّف صابرة عن إرضاع الجرو، وقالت في نفسها:

- زيادة اطمئنان برضه.

تذمَّرَت ابنتها الكبرى وداد، وقالت لأخواتها إن ما تفعله الأم ضرب من الجنون، كيف تحتمل أن ترضع كلبًا؟

ألهذا الحَدِّ مُهمٌّ طلعت هذا؟

وإلى هذا الحد هي لا تأبه بحالِهنَّ؟

ولكن الأم أصرَّت على الاحتفاظ به وإطعامه بنفسها، تستغرب نظراته لها وكأنه يشكرها فتلتفت إلى البنات:

- ما جاتش منكم يا غَجَر!

ظُفر "شحاتة" برقابيكم كلكم!

نعم، سمَّت الجروَ "شحاتة"، لطالما توسَّلَت ذَكَرًا من الله، ذكرًا يحيا طويلًا، ونَذَرَت أن تُسمِّيه "شحاتة"؛ لأنها طلبته من ربِّها مذلولَةً بإلحاح الشَّحَّاذين... ولما جاء ابنها إلى الدنيا سمعت المنادي ينشد في الحارة:

"طَلَعَ البَدرُ علينا"...

فصاحت من فَورِها وقالت:

"طَلْعت! طِلِعْت يا بدر علينا"!

أمَّا اسم "شحاتة" المنذور فوجدت أنه يناسب هذا الجرو المطيع المسكين، وسامَحَت عضَّه لثديها الذي طالما أدماها، حتى الحساسية التي أصابت جلدها الناعم ولم تفارقها طوال حياتها، والتي جعلته يبدو أكثر سُمكًا من ذي قبل، لم تشكُ منها لأحد، فقط ترفع رأسها إلى أعلى وتُحدِّث الله قائلةً إن كل ذلك لا يهمُّ، وأنها راضية وشاكرة طالما أن طلعت بخير!

"ست أبوها" كانت الوحيدة التي لا تشعر بالغُبن من جهة أخيها، بالعكس التصقت بطلعت وأحبته حبًّا جمًّا، كانت مشاعرها حقيقيَّةً وصادقة وليست مُجرَّد رغبة في إبعاد التهمة التي وُصِمَت بها: أنها قاتلة لأبناء أمها الذكور، كانت وداد تصطحبها إلى السيدة نفيسة، حيث تشعر بالراحة والطمأنينة بجانب قبرها الشريف، تبكي فتربِّت الطفلة على كتف وداد، تنظر إلى كل الفتيات والنساء من حولهما تجدهُنَّ في حالة بكاءٍ أيضًا، تعلو أصواتهن بالدعاء، يطلبن من السيدة نفيسة أشياء عديدة ب- "عشمِ المُحبِّين وحَوْجِة المحرومين"، تبكي هي أيضًا بحُرقَة، فتقف بسنواتها الست أمام المقام، مُمسِكَةً بقضيبه اللامع ورائحة البخور تملأ صدرها الصغير، تطلب منها ألَّا تَدَعَ طلعت يموت مثل مَن سبقوه، بينما تنهمر دموع وداد راجيةً منها أن ترسل إليها بابن الحلال وقد أوشكت على بلوغ السادسة عشرة، فمتى تتزوَّج وتنجب؟ تقول للسيدة إن صابرة أنجبتها وهي ابنة ثلاثة عشر عامًا! وأنها في قرارة نفسها تشعر بأن لا أحد سوف يتقدَّم لخطبتها أبدًا!

تسألها وداد بصوتٍ خفيض باكٍ إذا كانت تَقبَلُها أم تتبرَّأُ منها بسبب عمل أبيها، وإن كان هذا ما يحول دون قبول دعوتها! ولكن في النهاية ما حيلتها في ذلك؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(6)

خراب مالطا

قد أكون الخادِمَ الأكثر حظًّا في الإسكندرية، بل وفي مصر كلها، كَوني خادِمًا لمستر كوكسون القنصل الانجليزي هذا يجعل مني شَخصًا ذا كلمة مسموعة هنا! وإن كنتُ خادِمًا فأنا حُرٌّ لا أُسأل، أتمتَّع بامتيازات بريطانيا العظمى وإن لم أكن إنجليزيًّا، أنا فرانشيسكو زاميت خبَّاز مالطي من الياتًا، لا يقدر أحد على إيذائي أو إغضابي، مُعتزٌّ بشخصي وبوظيفتي ولا أتمنَّى بالمناسبة أن أتبادل الأدوار مع مستر كوكسون، هذا الرجل مسكين لا يستطيع أن يقضي يوم الأحد مُتَنقِّلًا من بار إلى بار كما أفعل الآن، لا يستطيع ترك نفسه للويسكي والبراندي حتى وصول نهاية النهاية من السُّكْر الأقصى، نعم لا يقدر هذا المُتَعَجرِف على الجلوس وسط الفلاحين لكي يسخر منهم ومن أشكالهم وألوانهم ضاحكًا، كل ما في وسعه أن يعمل ضدهم في الخفاء، كل العداء والكراهية لا بُدَّ وأن تظلَّ في السِّرِّ، المؤامرات والخطط التي تسقِط الوزارات والملوك والثورات تبقى هكذا في السِّرِّ، صناديق السلاح التي وصلت بيت المستر في جُنح الظلام لتُباع إلى الأجانب، كل ذلك يحدث مع ابتسامة مُهذَّبة لا تَنمُّ سوى عن تحضُّر الإنجليز وتَأدُّبهم واحترامهم للمصريين البسطاء!

أنا أفخر بأني خادم المستر كوكسون؛ لأنني أقوم بما لا يقدر هو على تحقيقه، لن يقدر على إذكاء شرارة حرب تُرضي حُكَّامه، تُمهِّد الطريق للسيطرة على مصر وخنق عرابي والعرابيين! أنا ذراع المستر وسأفعل ذلك بنصف عينٍ، مخمورًا دون أدنى تفكير، ما أسهل ذلك على خادم جناب القنصل!

سوف أسحل ذلك الحمَّار بحماره الهزيل ورائي من حانة إلى أخرى، دون أن أدفع له، ولأنه ذليلُ بضعِ قروشٍ سينتظر وينتظر حتى يحصل على أجرته، الأمر الذي لن يحدث أبدًا...

تَعلَّمْ يا مستر من خادمك كيف تُثار الفِتَن بنصف عينٍ وبضع جنيهات، وشكرًا لويسكي ديوارس لأنه يضع في فؤادي بدلًا من القلب شيطانًا متحدِّيًا للمشيئة الإلهية!

اذهبي أنتِ يا ماتيلدا إلى الكنيسة وصَلِّ بالثوب الحريري باهظ الثمن، والذي اشتراه لكِ خادم المستر المخمور...

أنا ثَمِلٌ، و"جدع" كما يصيح الفلاحون مُنتَقَصو الرُّجولة ضاحكين.

"تَوقَّفْ هنا يا وَلَد". على ناصية شارع إبراهيم الأول عند بار أبناء عمومتي، بالقرب من مقهى القزَّاز، حيث الزحام، ولا مكان لموطئِ قَدَم، وحيث ينتظرني قريبي ورفاقنا من أبناء مالطا وهيلاس! انظُرْ يا مستر كيف سأجعل الحمَّار ابن الكلاب يصل إلى منتهى الغضب والحنق مثلما وصلت أنا إلى قمَّة السُّكر والنشوة، ولن يقدر حتى على المساس بخادم المستر كوكسون!

- الأُجرة يا بك.. الأجرة!

- خُذ!

- ما هذا؟ بعد ساعتين قرش واحد؟!

- هاته إن لم يعجبك!

اسمع وانظر يا مستر كيف دفعته إلى الجنون وهو يصيح بأعلى الصوت بأن هذا ظُلمٌ وحرام! نعم يا فلَّاح يا تربية الحمير... ظُلم وحرام... وأَرِني ماذا ستفعل لخادم القنصل!

جُنَّ جنون الولد، تجرَّأ وأمسك بتلابيبي، أنا مخمورٌ، وأرى فقط بنصف عينٍ، ولكن أستطيع أن أدافع عن نفسي: يتدلَّى سكين الجُبن على حائط البار، رأيته لامعًا يبرق في وهج الشمس التي اشتدَّت في ظهيرة اليوم الصيفي الحار، انظري أنتِ أيضًا كيف سيفعلها خادم القنصل في عِزِّ الظهر، التقطتُ السكين وطَعَنتُ الولد طعنةً نافذة في ظهره، سقط بين يدي مثلما ستسقط بلاده في أيدي الإنجليز قريبًا جدًّا...

أحاط بي رُوَّادُ مقهى القزاز من الفلاحين، تركوا المعسِّل والبيرة وأكواب العرقي وكأن دماء أخيهم أيقظتهم من الخَدَر الساري فيهم، أمَّا أنا فلن أستيقظ، ولن يقدر أحدهم على إيذائي. صحتُ: "أنا خادم المستر كوكسون"، أسرع قريبي ألفونسو الشريك في المقهى بالوصول إلى جسدي المحاط بأفواههم وأذرعهم ليُخلِّصني، مشيرًا إلى واحد من رفاقنا ليُتِمَّ ما اتفقنا على فعله...

لم يعد لديَّ طاقة لأدنى مقاومة، هزمني السُّكر بعد طعنة المكاري، ولم أشعر حتى برفاق ألفونسو عندما سحبوني من وسط الجموع حتى أوصلني أحدهم إلى بيتي...

تركتهم يموجون في بعض، الطبنجات في أيدي الرفاق، تجمَّع الفلاحون بهراوات ونبابيت وعِصيٍّ وأرجل الكراسي، وقامت العركة، الرصاص في رؤوس وقلوب الرعاع، والناجون منهم يطاردون أي أجنبي يرونه في شارع إبراهيم الأول حيث بدأت الشرارة كما أردتُ لها أن تبدأ، يضربونه ضربًا مبرِّحًا، امتدَّت الفتنة عبر الشوارع المجاورة، وامتدَّت أيدي الرعاع على محال ومقاهي وحانات الرفاق بالنهب والسلب، ولكن إلى أين تذهبون؟ اصطادهم الأهالي الأجانب بالطبنجات من أعلى البيوت والنوافذ كالفراخ، في بضع ساعات كان قلب الإسكندرية مشتعلًا بين فئتين نَسِيَتا حتى سبب العراك! نَسِيَتا أمر ذلك القتيل الغارق في دمه على عتبة المقهى، وعلى بُعد فراسخ من قسم اللَّبَّان، ذلك الذي لن يتذكَّر اسمه أحد!

جاء رجال البوليس، ولكن "بعد خراب مالطا" كما يقول الرِّعاع هنا، أصابهم الرصاص ومُلِئَت عربتهم بالجثث، ذوقوا أنتم أيضًا الخرابَ كما ذُقناه!

أَرِنا كيف ستحفظ الأمن الآن يا عرابي باشا!

ولكن هل ترى يا جناب القنصل كيف فعلها رَجُلٌ من مالطا، بِنصفِ عَينٍ، وبِضعَة جنيهاتٍ، وبِدَمٍ بارد؟

السيد هو اسمي وليس صفتي ولا مهنتي، من كوم الشقافة البرَّاني، نعم أنا وجيراني وغيرهم من ساكني الإسكندرية مثل العملة البَرَّاني التي لا رواج لها، تستطيع أيضًا أن تقول إننا برَهَّ حيِّز الاهتمام، برَّه الأولوليات، برَّه الحياة؟ جائز جدًّا، لا تحسبني جاهلًا نسبةً لما أقول الآن، مع أنني لا

أنكِر جهلي، فلا يعرف السيد سلام شيئًا عمَّا خلف القصور والقلاع والأردية الغالية والأموال والذهب، لا أعرف ما الذي تخفيه القُبَّعات ولا حتى ما وراء عيون النسوان الحلوة من هنا أم من هناك.

ولكن حتمًا أعرف كيف أشتري نصف أوقية دخان، وكيف أرطن بكم كلمة روميَّة على طلياني، وكيف أصطفي السَّمكات الطازجات، أعرف أيضًا كيف أصبر على طعام واحد.

كلهم أراد معرفة مَن أنا، وماذا أصنع، وكيف قامت الدنيا ولم تقعد بسببي... سأخبرك بكل صراحة، أحاول أن أتذكَّر ما حدث، ولكن يبدو أنني مُشوَّش، مشوَّش جدًّا في الحقيقة، لدرجة أني لا أذكر صنعتي، ولكن من المؤكَّد أنِي من كوم الشقافة البَرَّاني كما أخبَرتُك، فوق رأس الحارة التي فيها سراي الشيخ حسن عبد الله، أنظُر إلى هيئتي، فلا أجد ما يميِّزني عن أقراني لأعرف به نفسي، كُلُّنا سُمر، بجلباب أبيض مرفوع ومثنيٍّ ومُثبَّت عند البطن بحزام من الجوخ، بعصابة رأس كالحة من الحر والصهد والعَرَق، كلنا كما يقولون عَنَّا: عبيد، دون أن يشترينا أحد، هل أنت متأكِّد أن اسمي هو السيد فعلًا؟

أنا متأكِّد بالطبع، اسمي السَّيِّد سَلَّام، وجد الحسين، وأعيش في كوم الشقافة، ولكن تبًّا... لا أذكر صنعتي، ولكن أذكر أني وَقَعتُ على البازلت الأسود، حملقتُ فيه، شيء ما التصق بي منه: خطوات خلق الله الرائحة والغادية، ورَوَث الخيل والحمير والبغال، فوجئتُ بأنني أستطيع تمييز روائح الثلاثة، يخطر لي أني حمَّارٌ أو عربجي مثل غالبية أهل بلدي، أو تراني عجَّانًا؟! أذكر أنهم نادوني مرَّاتٍ بالسيد العجَّان، مشاهد أقراص الخبز والمطارح تجلَّت أمامي الآن بوضوح أيضًا. المشكلة أني طرَقتُ كل الأبواب من قبل، ليس هناك من صنعة إلَّا واشتغلتُ بها...

عطشان يا مسلمين، كم أرغب في كوب عرقسوس مثلَّج في هذا الحر، أو شقة بطيخ من هذا الشَّادر القريب... أحاول استجماعَ قواي لأنهض، لا أستطيع، الدماء تتدفَّق من ظهري، "الحقوني يا خلق، الحقوني يا مسلمين... نادوا على اخويا"...

نعم، أخي مليجي سيأتي، كلانا آخر غُلب والله، كان أخي في الحبس لأنه لم يستطع دَفعَ دَينِه للحاج سليمان الشُّمكشي، ثلاثة جنيهات يا ولداه، دفع جنيهًا وقالوا ادفع ستين قرشًا أول كل شهر، لم يستطع بالطبع، لولا حماته الست صفية رَجَت الكاتب بقلم التحصيلات أن يُخفِّف القسط.

كيف أذكر كل ذلك ولا أستطيع أن أتذكَّر صنعتي؟

وبعد أن جاء مليجي، حلَّ حزامي المربوط على خصري وربط به الجرح، الخلق كثيرون، طوب ورصاص حي يندفع نحونا من تَراسينات الشارع، مَن أنا وكيف جئت إلى هنا؟

يا هوه... غيتونا...

ياه، أحدهم يحملني، بالتأكيد مليجي، أبتعد عن البازلت، أم أبتعد عن أرض الإسكندرية؟ أم أبتعد عن الحياة أكثر مما أنا وإخوتي عليه من بعد؟ برَّاني يا السيِّد... برَّاني...

على كل حال أنا محمول الآن على الأعناق، ما أجمله من شعور، أوقن الآن أن أحدهم ركلني وطعنني من الخلف، لا يهم كيف حدث ذلك، لا يهم إن كان مالطيًّا أو روميًّا، مخمورًا أو في قِمَّة اليقظة، لا يهمُّ أيضًا إن كنتُ حيًّا أم ميتًا، ما يهم فعلًا أن ما حدث كان لأنني لم أرضَ بالظلم، والحكاية ليست حكاية قرش مقابل توصيلة على حمار استغرقت ساعتين، ولا من أجل عشرين بارة مقابل شروة سمك، ضُرب من أجلها ابن عَرَب على يد أصحاب الدكان المالطيين، فدافعنا عنه بروحنا، أنا جاهل يا اخوانًا صحيح، لكني لستُ جبانًا، الحكاية كانت أكبر من ذلك، أكبر من كل ما سوف يُشاع بين الخَلق وينشر في الصُّحف، على الرغم من أني ما زلتُ مشوَّشًا وكل شيء ممتزج ببعضه البعض في ذاكرتي، ولا أذكر على وجه التحديد صنعتي، إلا أني أذكر نظرة هذا الرجل الذي سبَّ ديني وطعنني، كانت كراهية خالصة لم أصادفها في أي يومٍ من قبل...

الأجانب يتحدَّثون عن مذبحة، "الفلاحون المسلمون يقتلوننا، ابتعدوا عن شارع إبراهيم الأول!"، إلى أين أذهب إذًا؟ وجدتني أتوجَّه إلى شارع شريف، مشيتُ بمحاذاة الكورنيش، أحاول أن أملأ صدري من الهواء قبل أن أحرم منه، لا أدري، شعرتُ بذلك، عندما لاح لي تمثال محمد علي، بدأت الجثث تطفو على البازلت الأسود، الدماء تغطي القُبَّعات وعصابات الرأس المبعثرة على قارعة الطريق، الرصاص ما زال حيًّا، رائحة البارود تصارع رائحة البحر على حلبة قتال غير مفهوم سببه، اختبأتُ وراء صخرةٍ ممدَّدة على الساحل؛ لأشاهد أغرب وأبشع مشهد في حياتي: وابل من الرصاص ينطلق من البيوت الفخمة والنوافذ الواسعة، يستهدف الفلاحين الذين ملؤوا الشوارع فجأة، والبقية أمسكوا بالهراوات وأخذوا يضربون الأجانب، يطاردونهم ويسحلونهم، معركة لم أشهد مثلها من قبل، إلى ذلك الحد تمكَّنَت الكراهية من الجميع؟ كيف وصل الأمر إلى هذا الحد؟

أمام حانةٍ على مقربة من مقهى القزاز الواقع على ناصية شارع إبراهيم الأول، حيث يتلاقى مع شارع بحري بك توقَّف حوذيٌّ من حيث أمره سيده المالطي، بعد أن أخذه في جولةٍ من حانة إلى حانة على ظهر الحمار، طلب الرَّجُل أُجرَتَه فرفض المالطي، وتشاجَرَا معًا، إلى أن طعن المالطي المكاري وفرَّ هاربًا...

انتفض المصريون الذين شهدوا الواقعة وثاروا لأخيهم المطعون، ولدمه الساخن المُراق بلا ذنب، دفعهم الغضب وعماهم عن الجاني الأصلي للجريمة، وانطلقوا لأخذ الثأر من أقرانه الأجانب المشمولين برعاية واحترام هذا البلد على أكمل وجه، حتى على حساب أصحابها وسُكَّانها الأصليين.

الغريب حقًّا هو تأهُّب الأجانب لتلك المعركة للدرجة التي جعلتهم يشترون كل هذا السلاح! أوه يا إلهي، السلاح الذي اشتراه لي عمي ما زال في غرفتي بمنزله، الحمد لله أني لم آخذه... تُرى هل يكون العم ياني واحدًا ممَّن يرمون أولاد البلد بالرصاص من أعلى؟ ولكن كيف سأعبر من أمام هذه المعركة الدامية؟ الحل الوحيد أن أنتظر مع هذي الصخرة الحنون حتى تنقضي تلك الأحداث التي لا يعلم كلانا كيف ستنتهي.

مع غروب الشمس كان الوضع قد وصل إلى أقصاه من السَّلب والنَّهب والقتل، واستطعتُ بأعجوبة أن أصل إلى بيت العم يانِّي وزوجته ألكسندرا، ضَمَّني إلى صدره وحمد الرب على رجوعي سالمًا، وبدأ يحدثني كيف سيقوم بترتيبات للسفر والرحيل عن الإسكندرية ومصر كلها...

بعد أن شربتَ كوبًا من الماء وابتلعتَ ريقي وصليتَ للرَّبِّ الذي أعادني سالمًا، لم يَكفَ قلبي عن الخَفَقان، ما زال صوت الرصاص وصيحات الغوغاء تحيط بنا، أغلق عمي النوافذ والأبواب، إنها حربٌ علينا، كان لديَّ ألف سؤالٍ لعمِّي، ولكني صمتُّ...

راقبتُ نظرات العم، كانت بائِسَةً حزينة، دموعه لم تجفَّ، وَددتُ لو أستطيع سؤاله، وكان مُتشبِّثًا بالسلاح لا يتركه: هل قتلتَ أحدهم اليوم يا عمي؟ هل تِلكُمُ الدُّموع تذرفها حزنًا أم ندمًا؟

ما زالت نصائحك تتردَّد في آذاني، اللهجة الواثقة من المستقبل، الطموح، الأمل الكبير في هذا البلد الذي سمَّيتَه وطنًا لك، كل ذلك يتلاشى الآن، كل الأحلام التي عبرتُ بها البحر وتركتُ من أجلها حبيبتي أماليا دهستها أقدام الرِّعاع.

تُحدِّثني الآن عن الرحيل؟

بأي شيء أعود إلى كاريستو؟

بدأ جيراننا في التَّوافُد على البيت، يخشون المبيتَ وحيدين؛ فلربَّما اقتحم عليهم المصريون منازلهم، جلبوا أسلحتهم وتجمَّعوا في صالة الاستقبال في الطابق السفلي لبيت عمي... حكوا عن اليوم الطويل الثقيل، طرحوا عشرات التساؤلات فيما بينهم، خطَرَت كلها ببالي ولم أجد إجابات شافيةً، كيف تَخاذَلَ البوليس وتلكَّأ حتى اشتعلت هذه الحرب، وكيف اختفى عمر لطفي محافظ الإسكندرية من المشهد تمامًا، وعرابي الذي وعد بحفظ الأمن في البلاد، وهل كانت مؤامرةً إنجليزيَّةً فعلًا وقعنا جميعًا في شَرَكها!

- إنهم يكرهوننا، المسلمون يكرهوننا، سواء كانوا أتراكًا أم مصريين... لا عَيشَ لنا هنا بعد اليوم.

- وكيف نترك تجارتنا وأموالنا ومحالَّنا ونذهب هكذا؟

- نبيع كلَّ شيء ونرحل...

- سنبيع كُلُّنا، ولن نشتري سوى الخسارة... الأمر يحتاج إلى ترتيبٍ... وصبر.

- بريطانيا العظمى لن تَدَعَ الرعاع يحكمون البلاد!

- بريطانيا العظمى؟! لقد ضُرب كوكسون اليوم بالنبابيت... لا، لن يقدر أحد على إيقاف عاصفة الكراهية تلك.

- والحل يا رفاق؟

انهمك العَمُّ يانِّي ورفاقه في محاولاتهم لإيجاد حلول للوضع الحالي، وفي غمار شعوري بالإجهاد شعرتُ براحةٍ مُفاجِئَة ما أن تحدَّثَت فتاة رائعة الجمال ابنة جارنا الطيب نيكولاس، سمعتهم ينادونها بكيكي، قالت بصوتٍ خفيض واثق نابض بالأمل والحياة:

- هل تعرفون كيف وَصَلتُ إلى الحيِّ اليوم؟

كنتَ بصحبة صديقتيَّ بينلوب وكريستينا نسبح في ستانلي، كنّا كثرًا، تبعث كَثرَتنا فينا اطمئنانًا، خاصَّةً كلما اختلسنا النظر فوجدنا الجميع ما زال هنا، نَأتَنِسُ بتلك النظرات التي تخبرنا بأنْ لا شيء قد يقلقنا أو يُفسِد علينا هذا الصيف البديع، فَلِمَ القلق وكلُّ أُسَر الحَيِّ الأوروبي تقريبًا إمَّا في المنتزه أو في الرَّملَة بفندق أوروبا، أو حولنا تسبح وتلعب على الشاطئ بالرمال الممسوسة بالماء فتسكنه القصور والقلاع، كُنَّا نلوِّح للبوارج والسفن الإنجليزية والفرنسية، ولمحنا عَلَمَ هيلاس يرفرف على سفينتَيْن أخريَيْن، وتَخَيَّلنا هيئة الضُّبَّاط على مَتنِها، والبحارة القادمين من قلب اليونان، وفجأة سمعنا جَلبَةً ورأينا الناس يفرُّون من البحر فرارًا، متوجِّهين نحو اليابسة، بالكاد ارتدوا ملابسهم، لحقنا بهم دون أن نفهم شيئًا!

- حاولنا أن نستوقف حنطورًا، كلَّما أشرنا لواحدٍ سمعنا مَن حولنا مُحذِّرين: لا تَركَبْنَ معهم، إنهم يذبحون الأجانب! انخلعت قلوبنا من الخوف، ماذا نفعل الآن؟ شرعنا في البكاء، وقرَّرنا أن نمشي بحَذَرٍ مُمسكين بأيدي بعضنا البعض، محتمياتٍ بصُلبانِنا، سمعنا طلقات الرصاص والصراخ وبدأنا نرى جثث القتلى على مرمى البصر، السَّحل والضرب بالعِصيِّ وركل الأجساد، لم نقدر على التحرُّك أكثر، هالَنا ما رأينا، على الشاطئ كانت جماعة من الفلاحين ينهالون على رَجُلَيْن أوروبيَّيْن بالضَّرب، أبصرنا رأس أحدهم وقد تَهشَّم تمامًا، ولمَّا تَيقَّنوا من موتهما ألقوا بهما في البحر، لا نستطيع الصراخ، لو صرخنا لفُعل بنا الأمر نفسه، ثم أصبحنا في مواجهة أحدهم وجهًا لوجه، كان مُمسِكًا بهراوة، مرتديًا جلبابًا أبيض مُغَطًّى بالدماء، أخذ ينظر إلينا طويلًا فعرفنا أنه مخمور، طلبنا منه أن يدعنا نعبر، ظلَّ يضحك وينظر إلى صدورنا، نشيجنا يعلو ويتقاطع مع صوت ضحكاته المخيفة، وفجأة سقط الرجل أمامنا بلا حراك ليظهر فلَّاحٌ آخر من الخلف، ضربه ضربة قاصمة على الرأس، سألنا أين نسكن وطلب منَّا أن نمشي خلفه، كان يبتعد عن البيوت والشوارع المزدحمة كدليلٍ مُحترَفٍ يجوب بنا المجهول، نمرُّ على الشوارع ذاتها التي ضَمَّت خطواتنا وضحكاتنا وصِبانا، أَتِلكُمُ هي فعلًا الإسكندرية؟ لا يمكن! يسمع حامينا بُكاءَنا، يتحدَّث بعَرَبيَّتِه العَذبَة: لا تَخَفْنَ، سأوصلكنَّ إلى بيوتكن، أنتُنَّ في رقبتي... كِدنا نصل إلى كوكينيا، بالقرب من بيت بينلوب، كان أبوها وأخوها في الشرفة، صوَّب كلاهما السلاح نحو فارسنا الشُّجاع من أعلى: "لا، لم تفهما حقيقة الصورة"، صرخنا طلبنا منهما ألَّا يفعلا ذلك، ولكن الرصاص سبق أصواتنا الجريحة، سقط الرجل الذي دافع عنَّا حتى موته!

- بَكَينا... بكيناه، وأنتم جميعًا تسحبوننا إلى أعلى، تاركين الرجل مُضرَجًا في دمائه ككَومَةٍ من القمامة على حافَّة الطريق...

- لم نَشكُره حتَّى... لم تُعطونا فُرصةً... لماذا؟ لأنَّه فلَّاح؟ لأنه مصري مسلم؟

- كان قتلًا خَطأً، لم يتصوَّر أحدٌ أن يكون ذلك الفلَّاح هو مَن أنقذكنَّ!

- لا مسيو يانِّي، لم يكن قتلًا خطأً، لقد صَوَّبَا السلاح نحوه، نحو رأسه، لقد مات دون ذنب، كان ذنبه أنه أنقذ بناتكنَّ.

انفجرت كيكي في البكاء، دموعها طعناتٌ متتالية لقلبي الضعيف، لا أحتمل أن أراها هكذا، عرفتُ أنها أنچيليكي ابنة نيكولاس وهيلانة، وقد أنجباها هنا في الإسكندرية، يخفق قلبي بشدَّة، كومة الإسفنج

تنتفض، نَبَتَ لها قلبٌ، وذراعان يريدان ضمَّ "كيكي" بشدّة.

قفَزَت صورة أماليا وهي تمشي غاضبةً مرَّةً أخرى، تضرب الأرض بقدميها الصغيرتين، كان حنقها عليَّ قد وصل إلى منتهاه، ولكني لم أبالِ تلك المرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(7)
تجريح ذَكَر النَّخلَة

لا شيء قد يصف فرحة أَبٍ بولدٍ من صُلبِه.

الوَلَد.. الذَّكَر.. شَيَّال الحمول!

هذا أوَّلُ ما ورد بذهن عبد العليم عندما بشَّرَته شوقة بالمولود، قبل دقائق كان اليأس قد تسرَّب إلى روحه كالمعتاد، تأهَّبَ لسماع الخبر نفسه مثل كل مرَّة، حتى أنه ظلَّ يُرتِّب الكلمات التي سوف يردُّ بها على جيرانه أولاد القِحاب، عندما يسألون في تَشفٍّ خَفيٍّ: "جابت إيه ان شاء الله؟".

- الواحد منهم يجرّ وراه خمس دكوره، معلوفين زي الديوك الرومي ويستكتر عليَّا حِتِّة واد! مات واد ورا واد! ولا حول ولا قوة إلا بالله!

في قرارة نفسه، كان يحمل عبئًا آخر أكثر ثِقَلًا من كلمات جيرانه التي سوف يرجمونه بها لو لم يأتِ الوَلَد، كان هذا العبء هو نظرات صابرة اللائمة له، في كل مرَّة تنجب فيها ابنةً أو يعود فيها ولد لخالقه، وذلك قبل أن تمطره بوابل من الشتائم، وتصبَّ عليه حُرقَتَها، تكويه بماء النار على اللحم الحي!

آه من تلك النظرات والكلمات! من هذا "التلقيح" المستمرّ! حالُه من حال ذَكَرِ نَخلَةٍ يُجَرِّحونه، يُشَرِّخون بسكين حاد سُباطَتَه الممتلئة بمسحوق الذكورة الخالص!

هو يعرف جيِّدًا أن كل ذلك من وراء قلبها الأبيض، إنها صابرة... صبر الجميل، فرحة العمر كله!

- أُمَّال!

بيضاء وبضَّة وليِّنة بنت الكلب!

ولكن صدرها حكاية أخرى، صدرها الأخضر الواسع مثل تكعيبة عنب!

- صدرها يحملني يا شيَّال الحمول يا بدوي... فكيف لا أحتملها؟

الصَّبر طِبُّ الأوجاع، والصمت يقهر العِدا!

هكذا عَلَّمَنا آباؤنا!

أقنع روحه بالصبر من جديد على أذاها إن تَفوَّهَت بنفس الكلمات مُجدَّدًا:

- آخرِة شُغلَك الوِسِخ!

- معذورة برضه!

لن يقدر أحدهم على فهم طبيعة عمل عبد العليم، حتى الخواجات أنفسهم لن يفهموا لماذا يُحبُّ عمله "المحرَّم"، ويتحمَّل في حُبِّه لَومَ اللائمين والشامتين!

لا، لم يكن سعيًا وراء الربح الوفير فقط، لطالما عاش عبد العليم كالمثل القائل: "أبات مِهنِّي وألحس مِسَنِّي".

سِرُّ الخمر الجيدة نبتَةٌ أصيلة راسخة، أمَّا البيرة؟

أعوذ بالله من نُكران الجميل، أعترف بفضل الخواجة ستافانوس، عَلَّمني من أمرها الكثير والكثير، كنتُ مجرَّدَ صَبيٍّ يُكافح من أجل لقمة العيش، اشتغلتُ بكلِّ شئ: حمَّار وعربجي، نظَّفتُ جوامع وزوايا، وبَيَّضت نحاس اليهود قبل أعياد الفصح، لَمَّعت الصُّلبان في الكنائس، وبِعت السَّعَف في آحاد الشعانين، وقفت أمام نيران الفرن ليالي طويلة، شَبِعتُ من رائحة الخبيز، لا يسدُّ رَمَقي إلَّا الرغيف الساخن نصف المُحمَّص مغموسًا في طبق الفول، أو في صحن "الدِّمْعَة" تسبح فيه قطعتان من اللحم مرَّةً في الأسبوع، من يد أمي، حتى جاء يوم كنتُ جالسًا على القهوة أحتسى كوبًا من الشاي بصُحبَة الأصدقاء وجدتُ رجلًا يتحدَّث بعربية متكسرة، عرفت فيما بعد أنه كان الخواجة ستافانوس، يحاول إقناع الرجال بالعمل معه في مصنع جديد بطُرَة مملوك للأخوين كوزيكا، لم أفهم الكلمات بسهولة، سألت صديقي وجاري مصطفى:

- إنجليزي؟

- لا بيقولوا جريجي!

قلتُ بدون تفكير بصوتٍ مرتفع:

- معاك يا خواجة!

نظر إليَّ مصطفى مستَغرِبًا، ثم وضع يده فوق يدي وفعل الشيء نفسه، كُنَّا الوحيدَيْن من الحي كله الذي انضمَّا للعمل بمصنع كوزيكا، الذي لم نكن نعرفه ولا نعرف حتى كيف ننطق اسمه بحروفه الثقيلة على ألسنتنا، حتى المطلوب منَّا على وجه التحديد كان مُبهَمًا تمامًا، كلمة "فابريكة" تلك لم تكن مألوفةً على الإطلاق مثل أسماء الجريج الصعبة!

كاد مصطفى أن ينسحب عندما عرف طبيعة العمل، وقال لي غاضبًا:

- آكلها بِدُقَّة أَهوَن!

أمَّا أنا فكنتُ أشعر بأن الخواجة في ضِيقَة، أولاد البلد لا يخذلون من احتاجهم، هكذا تقتضي الشهامة والمروءة، الرجل في غُربَة ويبدو وحيدًا في المحروسة وفوق هذا كله هو روميٌّ وليس إنجليزيًّا!

وعندما عَلِم مصطفى بما سيدفعه لنا الخواجة بدأت الأحلام تلعب برأسه:

- ولمَ لا؟ بيرة ولا بَلَا أزرق! الله يلعن أبو الفقر!

ضحكتُ وقَهقَهتُ حتى طفرت الدموع من عينيَّ!

وهناك تَعَلم كلانا الكثير عن سِرِّ الصنعة العجيبة، كان مصطفى مدفوعًا بالمال الكثير الذي تَدفق بين يديه (على وش كوزيكا) والتجارة الحرام على حدِّ قوله، أمَّا أنا بات الأمر بالنسبة لي مختلفًا تمامًا!

حدثَ شيءٌ ما عندما رأيتُ كيف يتحوَّل الشعير السابح في الماء إلى مشروبٍ سحريٍّ، لا هو بالماء، حيث لا لونَ ولا رائحة، ولا هو بالخمر التي تُذهِب العقل، لونه في سُمرَة جلودنا، ورائحته مثل الخبز الطازج، مُشتَهاة، موفورة، مأكولة، قبل حتى أن يخرج الرغيف الساخن من الفرن ولكنها معجونة برائحة الجوع المُرَّة، طعمه مثل الأيام: حُلوٌ وحامِض، تلك المزازة التي نتجرَّعها في صمتٍ ورضا.

يعرف عبد العليم ما الذي سوف يصيب صبر الجميل هذه المرَّةَ لو لم يأتِ الولد، ويتذكَّر جيِّدًا، في كل مرة كيف كانت تُلِحُّ عليه كي يودِّع هذا العمل، تطلب منه بكل ما تمتلك المرأة من قوة ودلال وتأثير، صابرة تظلُّ تتمسَّح في جسده، تَعِده بلياليٍ لا قِبَلَ له بها، إن ترك العمل لدى الخواجة:

- لحد ما نجيب الولد ويعدِّي الخمس سنين طيِّب!

- وبعد الخمس سنين؟

- يِحِلَّها الحَلَّال يا عبعليم!

- هتِلبسي أنهي قميص؟

- الاحمر... وحِياتَك!

كان يَعِدُها بترك العمل، وبعد انقضاء الليلة الحلوة وبعد أن يلتهمها في القميص الأحمر من "ساسها لراسها" ويصل إلى "تُخمَة" ما بعد الشبع تنظر إليه مُرتابَةً في الصَّباح وهي تراه مرتديًا ملابسه لكي يذهب إلى عمله كالمعتاد، وبمجرَّد أن يمشي باتِّجاه الباب تكون قد خرَجَت من فمها جميع الشتائم المختَزَنَة منذ الأمس، وتُذيِّلها بفَردَة الشِّبشب الطائر في الهواء نحو رأسه!

يظلُّ طوال الطريق في القطار يبتسم من حينٍ لآخر، مجترًّا لحظات اللذَّة الصافية التي انتزعها من صابرة في ليلة رضا، يتذكَّر خجلها الشديد في ليلتهما الأولى، إلى الحدِّ الذي جعلها تضربه كُلَّما اقترب منها، وتطلب منه في إلحاحٍ أن يتركها!

يتركها... قال!

عندما دخل بها،كان قد مضى على عمله مع الخواجة ثلاثة أعوام، ولا يعرف أيَّهما جلب الآخر: حظ البيرة هو الذي جلب صابرة إليه؟ أم هي التي جلبت معها الحَظَّ والعمل المستقرَّ والمال الوفير منذ رآها تلعب للمرَّةِ الأولى قبل أن يتقدَّم لخِطبَتِها؟

ليلة الزفاف، أعطاه الخواجة ستافانوس زجاجة ويسكي من النوع المفتخر، مِن الذي يتناول منه الملك، لم يَذُق منها شيئًا، وعندما حرنت صابرة عليه سقاها كوبًا من الزجاجة الدَّاكِنَة غصبًا، احمَرَّ وَجهُها وبرقت عيناها وكادت تختنق، ثم بدأت تشعر بدُوارٍ ورغبة في النعاس، هنا بدأ عبد العليم يجني ثمار الليلة الأولى مع صابرة، مدَّ يده إلى نهدها الأيسر فقاوَمَته مُقاوَمَةً خائبة، زادته تشبُّثًا به؛ الاستسلام الكامل ليس دومًا مغريًا كما يبدو، ربما لو اختلط ببعض الرَّفض، بعض المعارَضَة

والمُمانَعة صار له طعمٌ مختلفٌ يشبه الانتصار. اعتصر عبد العليم نهدَ الكاعِب الناعس بكفَ يده وأصابعه، تتسلَّل حلاوة عُصرته إلى روحه، ما طعم عصير الكواعب؟ ثم أخذ يداعب حلمتها الوردية الرقيقة بأنامله، هنا بدأت صابرة تلين وتشعرُ بشيءٍ لذيذ يتأرجح بين خدرها ويقظتها، كان هذا كل ما يطمح إليه عبد العليم، فرصة ليُذيقها من حلاوة هذا الشيء فتدركه ثم تحبُّه ثم تشتاقه ثم تطلبه!

أمَّا هو فآثر أن يظلَّ يَقِظًا، وألَّا يشرب بين يدَيْ صابرة، أمام هذا الجمال الغَضِّ البِكر الذي يُسكِر من دونٍ شراب، أراد أن يراها جيِّدًا ويتحقَّق من رؤيتها، يتفقَّد ما يتحسَّسه منها بيديه ظاهرها وباطنها، لكلِّ ملمس مختلف يُرجِفه، صابرة الآن ليست طفلة، هي امرأة يشتهيها، كان يتمنَّى لو كانت في وعيها لتُدرك رغبته فيها من عينيه المتَقِدَتَيْن، من شفتيه يرتعشان إذا اقترب من أنفاسها، ومن قلبه الذي يصفِّق في صدره كجناحَيْ طائر... يُدرك أشياء لم تخطر بباله قطُّ إلَّا عندما لمس صبر الجميل، وتذوَّقها بلسانه واشتمَّها بأنفه، أشياء مَبعَث السعادة الأكبر منها أنها حلال، لشخص مثله: عيشته حرام في حرام كما يقولون.

وعندما أفرغ شَبَقَه الأول فيها، كان كلاهما يصرخ: هي وجعًا، وهو لذَّةً! هي تتأذَّى بقوَّةٍ جسدية وروحية مدفوعة برغبة عبد العليم مع قليلٍ من الإشفاق، فليس ذلك وقت الإشفاق، إنه وقت السِّحر، لا بُدَّ من نزع قشرتها أوَّلًا كحبوب الشعير، على أن يتم ذلك بين القسوة والرفق، هكذا قال ستافانوس، تنضج الصغيرة، تنضج في ماءٍ يغلي من الشوق مثل عصير الشعير الحلو قبل تخميره، قبل أن تجود بعطاياها، وتولد إلى الدنيا في خلقٍ جديد لا حلوة ولا مُرَّة، بتلك المزازة المغرية: صابرة والبيرة... والبيرة وصابرة!

منذ ذلك اليوم أصبح عبد العليم يعامل حبَّات الشعير كعذارى يفضُّ بكارتهنَّ بيديه! كلهن صابرة العذراء مجدَّدًا! نَزْعُ القشرة للوصول إلى قلب الحَبَّة، ولا يتم ذلك بالطحن العنيف الشديد بل هو أشبه بالتجريش، بالقزقزة...

يبتسم ويقول في سِرِّه:

كيف أترك هذا العمل أيَّتها الحمقاء؟ وكل شيء فيه يُذكِّرني بكِ؟

لو أن عبد العليم ترك هذا العمل؛ سوف ينسى الأيام الحلوة، الأيام الحلوة هي التي تجعله صابرًا على مرارة اللوم والتجريح وموت الأولاد!

لا حول ولا قوة إلا بالله!

ولكن له الآن أن يفرح، له أن يُقيمَ عُرسًا، أتى الوَلَد... الذَّكر... شَيَّال الحُمول!

كيف لا؟ وهو الذي حمل عن أبيه مُعايَرَةَ أُمِّه له وسبابها مثل كلِّ مَرَّة!

ضَمَّ الأبُ الرَّضيعَ الباكي إلى صدره، وكبَّر في أذنه ثم همس له بأنه منذ تلك اللحظة "شيَّال الحمول"، الذي أنقذ ذَكَرَ النخلة من التجريح بالسكين! يتأمَّل وجه أمه في اللحظة ذاتها، هل كانت تلك أجمل مرَّة يرى فيها وجه صبر الجميل؟ الرضا، الامتنان، بل إنه يرى الحب أيضًا في عينيها العسليَّتَين!

أخيرًا يا بنت الكلب أرى ضحكتك تملأ وجهك!

راحت السَّكرَة وجت الفكرة!

ماذا لو لحق بأخويه؟

لا لا، سوف يبقى شيَّال الحمول، سوف يبقى...

- السيد، هاسَمِّيه السَّيِّد البدوي!

قالها عبد العليم بإصرارٍ أمام شوقة والقابِلة، دون النظر إلى صابرة.

- طَلعَت! هاسمِّيه طَلعَت يا عبعليم.

ردَّت صابرة بصوتٍ مُنهَكٍ، ولكنه مُصِرٌّ على ما يريد بصورةٍ أجبرت الجميع على الصمت والتسليم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(8)

الباب الضَّيِّق

كان يجب أن تكون تلك الليلة أسوأَ الليالي التي مرَّت على تيوخاري، ليس فقط منذ مجيئه إلى الإسكندرية، بل أيضًا منذ مجيئه إلى الدنيا، ولكن برغم الخوف والترقُّب والقلق والحيرة وحوادث القتل التي راح ضحيتها ما يزيد عن مائتين وخمسين مصريًّا وأوروبيًّا، عرف السكون والأمان طريقًا إلى قلب هذا الشاب الجريجي، ظل مُؤتَنِسًا حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي بوجه كيكي الذي لم يبرح مُخيِّلَته، يعيد إنتاج المشهد ذاته عندما قاطعت الجميع واسترسلت في حديثٍ – على مَرارَته- أسَرَ القلوب وجعلها في حالة خضوع لصوتها الرقيق، كانت مزيجًا عجيبًا من حكمة أثينا، وجمال وعذوبة أفروديت، والعذراء المنزهة عن الدنس أرتميس...

يا لرحَمَة الرَّبِّ بقلب الفتى!

كاد ينسى ما حدث، وما رأى من دماء تُلطِّخ أبواب البيوت والحوائط والجدران، مشهد الجُثَث ورائحة البارود، التي تتمدَّد في الهواء كأنما يحملها ملائكة الموت من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى... سيتذكَّر كيكي فقط، غابطًا الكرسي الذي يحتويها، والبساط المُلامِس لحذائها الأنيق، عيناها الزَّرقاوين الواسعتين: دليل بنوَّتِها للبحر، وشَعرَها الكستنائيَّ ذا الخُصلات الشقراء من أثر الشمس، سوف يغرق في بياضها الفضِّيِّ الشبيه بلون السُّحُب إن لوَّنَتها حُمرَةٌ خفيفة دون غروب ولا شروق... نورٌ لا يؤذي، ولن تسمح أن يؤذيه شيء أو أن يُقطع مساره... حالةٌ فريدة من الحضور بأقل ما يمكن بَذْله للاستحواذ على القلوب، على الأقل قلب كوزيكا.

على مدار الأيام القليلة التي تَلَت يوم الفتنة، تكشَّفَت الصورة بشكلٍ أوضح، الحقيقة تستفزُّ النفوس المضطربة الخائفة، لا أحد يريد أن يصدِّق أن ما حدث كان تخطيطًا مُسبَقًا من الإنجليز لإيجاد ثغرة يغلقون من خلالها مَلفَّ الثورة العرابية، ويضعون أيديهم على القنال ومصر، بقي فقط العَداءُ، صور الماضي القديمة: يريدون تحويلنا إلى الإسلام أو تعذيبنا حتى الموت، المصريون في جملتهم أيضًا أحسُّوا اضطهادًا وقهرًا من التُّرك والأجانب، عرفوا أن الخديو تواطأ لإذكاء نيران الفِتَن، وأن عرابي هو الملاذ الأخير والرمز الداعم لقِيَم ومبادئ الإسلام التي تبدو للفلاح المصري الغارق في ديونه المُنقِذَ في هذه الأيام حالكة السواد...

انقسم الأوروبيون بين مهاجرٍ عازم على الرحيل خارج الإسكندرية ومصر أبدًا، وبين آخر فضَّل أن يسافر خارجها لبعض الوقتً حتى تهدأ الأوضاع وتتَّضِح الرؤية أكثر، لم يكن هناك مشكلة لدى العائلات الكبرى، آلهة الأولمب الآمنين، ستأخذهم أموالهم أينما أرادوا، سيعتبرون الأمر فرصة لقضاء الإجازة الصيفية في النمسا أو فرنسا أو حتى أثينا، تناقَلَ الأرومُ خَبرَ رحيل بيناكي وعائلته إلى اليونان، والذي استضاف قبطان سفينة هيلاس اليونانية وطاقمها في ليلا بيناكي بالرَّمل ليلة حدوث المذبحة، من تدابير القَدَر أن تُصِرَّ ايرچينيا زوجته على بقاء الطاقم حتى الظهيرة من اليوم التالي، ولما كان ما حدث في الإسكندرية من أحداث دامية، تأهَّبوا مثلهم مثل الجميع للدفاع عن

أنفسهم، أطلقوا رصاص مسدّساتهم على مَن يقترب من حرم البيت، وعندما تساءل الأطفال عن سبب إطلاقهم للرصاص أجابوهم: إنها الكلاب الضالّة المُحيطة بالـ□يلًا! عقدوا العزم على الرحيل خفيةً إلى الميناء، ومنه إلى السفينة الحربية اليونانية هيلاس، استطاع بيناكي توفيرَ رحلة آمنة لعائلته على مَتن مركب مُجهَّز أخذهم من السفينة إلى اليونان مُجدَّدًا!

ظلَّت مشكلة السَّواد الأعظم من أبناء هيلاس وغيرهم من الجنسيات الأوروبية الأخرى المنتمين إلى طبقات متوسطة وأدنى بكثير من السالف ذكرهم، إمَّا في الرحيل، وما يلزمه من تدابير مالية لهذا الأمر، أو في المقامرة بالبقاء بدون أي ضمانات حقيقية ملموسة. شعر الجميع بأن القادم أسوأ، وأن أيام الباشا وعِزَّه لن تعود، ولا أحد يعلم إن كانت العدوى ستنتقل إلى القاهرة وسائر البلاد، وإن كان الإنجليز والفرنسيون قادرين فعلًا على السيطرة أم لا!

صار العم يانِّي وزوجته فريسَةً للحيرة والقلق والتَّردُّد، كيف يترك كل هذا ويرحل ببساطة؟ هل يذهب كفاح ثلاثين عامًا سُدًى هكذا؟ مستحيل، لا بُدَّ من إيجاد حَلٍّ يُرضيه ويُعوِّضه...

توافَدَت السُّفُن اليونانية إلى محيط ميناء الإسكندرية يوميًّا منذ الحادث المشؤوم، مثلها مثل عشرات السُّفُن من جميع الأقطار الأوروبية لِتُقِلَّ آلاف المواطنين إلى بلادهم، ظلَّ كوزيكا وعَمُّه يُشيِّعان السفن بنظراتهما الحزينة الحائرة، حتى البطريرك سوفرونيوس بطريرك الكنيسة الأرثوزوكسية اليونانية رحل على متن "إيلبيس" مع مقتنيات الكنيسة النادرة إلى بيريوس.

بالنسبة لكوزيكا كلُّ الراحلين سواء، المهم ألَّا ترحل كيكي! ولكن سرعان ما وصلته الأخبار بأن العم نيكولاس ينوي الرحيل بعائلته إلى أثينا. انهار تيوخاري تمامًا، ولاحَظَ يانِّي تَغيُّرَه وذبوله، عرف منه أنه يحبُّ أنچليكي ويتمنَّى الزواج منها، وطلب من عمِّه أن يسمح له نيكولاس بمراسلة كيكي لحين عودتها أو ذهابه هو إليها في أثينا! طَمأنَه يانِّي وربَّت على كتفه وقال له:

- سأحدِّثه في الأمر يا كوزيكا، اطمئن يا بنيَّ.

استطاع تيوخاري أن يرى أنچليكي قبل سَفَرِها، بدعوى أن زوجة عَمِّه أرادت إرسال تذكار إلى هيلانة والدتها، كان لقاءً مُربِكًا، استسلَمَت فيه كيكي لنظرات تيوخاري المُفعَمَة بالحب والشوق والحزن، دَسَّ في يدها خطابًا وهبط على السُّلَّم مُسرعًا يخفي دموعه.

هرعت كيكي إلى حجرتها وفتحت المظروف وبدأت تقرأ كلمات تيوخاري:

"عزيزتي أنچليكي

يا مَن لا ريب مَنَحَتها الأربابُ قَبسًا من النور الذي يضيء الحيوات المُظلِمة، ويبعث الأمل في النفوس الفقيرة، أنتِ يا مهجة الفؤاد وروضة الروح الهائمة في تلك الغربة المقيمة، أستحلفك بوجهك الذي لا نِدَّ له في الأرضين أو السموات، وبعينيك مكنون أسرار البحر وبأهدابِكِ الشاطئ والملاذ أن تنتظري تيوخاري ولا تضيِّعيه، أستحلفك بأُمِّنا مريم التي وهبتك من طهارتها ألَّا تردِّي طلبي في أن تُراسليني وأُراسِلَكِ حتى ينقضي هذا الزمان الصعب وتعود الحياة بنا إلى سابقها من الاستقرار والوئام، سواء هنا في الإسكندرية أو في أثينا أو أي مكان تطؤه قدماكِ لأنه حتمًا سيصير موطني الأبدي.

وليُعِنِّي الرَّبُّ لأتحمَّل كل هذا العذاب حتى التلاقي، وليحفظك من كل الشرور والأسقام والآلام...

المخلص لك ولأُسرَتِكِ

تيوخاري كوزيكا".

انهمرت دموع كيكي، شعرت بالإشفاق على تيوخاري، وأجَّج خطابه مشاعرها الحقيقية إزاء تَركِها الإسكندرية، سيكون عليها أن تترك وطنها الذي وُلِدَت به، وتهجر قلبًا يحبها، هي تعرف جيدًا أن أباها نيكولاس يريد أن يزوِّجَها واحدًا من الأغنياء، ذوي النفوذ، وأنه في قرارة نفسه -مثله كمثل أغلب الآباء- يحتقر أمثال تيوخاري من الشباب الذي يُجبَر أن يبتدئ الطريق من الصفر، ربما راجع نفسه فقط لو تحدَّث إليه العم يانِّي وطَمأنَه فيما يخصُّ مستقبل كوزيكا، ولكن أي مستقبل بإمكان أحدٍ التَّحدُّث بخصوصه الآن؟ كانت كيكي تعرف أن أباها يتبع عائلات الأولمب أينما ذهبوا؛ لأنهم يعرفون مسبقًا ما سوف تؤول إليه الأحداث، فأنت بأمانٍ طالما استرشَدتَ بفَنارِهم.

فَكَّر الخواجة يانِّي أن يسافر مع ألكسندرا وكوزيكا إلى اليونان، لكم اشتاق إلى هيلاس! نعم سيذهب طواعيةً، يسلِّم على الأهل والأصدقاء ويرى البلاد التي تسري في دمه ذكراها. ولن يفكِّر في أمر البيت ولا كومبانيَّة النقل التي يمتلكها، سيأخذ معه ما استطاع من أموالٍ ومُجَوهرات ويترك البقية في رعاية المسيح حتى يعود...

- لا يا عم، لن أسافر إلى اليونان!

- أنت مجنون يا تيوخاري، الجميع يرحل ويترك المدينة، هيَّا قبل فوات الأوان يا بُنيَّ...

- سافِرْ أنتَ والخالة ألكسندرا، أمَّا أنا سأبقى هنا أرعى مصالحك حتى تعود...

- لا يا بُنيَّ، أنت مُخطئ في هذا القرار، لو ضُرِبَت الإسكندرية فلن يتبقَّى شيء، احمِ نفسَكَ أيُّها الفتى الشجاع! انظر يا ولدي... أنت بمثابة ابن لي ولألكسندرا، لم يَهَبنا الرَّبُّ ذُرِّيَّةً، ولكنَّكَ خَيرٌ من مائة ولد، كنتَ خَيرَ سَنَدٍ وخيرَ ونيس لنا في تلك الأيام، لن نتركك هنا مهما كلَّفنا الأمر!

- العمّ يانّي، الخالة ألكسندرا، أنتما سلواي في هذا العالم وأنا بعيد عن كل ما أحب، أبي وأمي، رجاءً أبلغوهما عني كم أحبهما وكم أردتُ رؤيتهما، قل لكوزيكا يا عمَّاه إن فُتات الإسفنج التي زرعها في بحر الإسكندرية تنمو مُجدَّدًا أكبر وأكثر من ذي قبل، أرجوكما أن تذهبا وتعودا بأخي بُولِي، وبكيكي، وسأبقى أنا هنا، عينًا على ما تملكون، ولا تخافا، أنا في أمان طالما أن هناك قلوبًا ترعاني وتنتظرني...

ظلَّ چورچيو أ□يروف التاجر المُقامر بحياته، الذي بقي مع الكوليرا عندما رحل الجميع، يُطارد مُخيِّلَة تيوخاري، حتى إنه لم يكن يسمع عمَّه ياني جيِّدًا، في المقابل سيطَرَت عليه صورة چورچيو الذي تخيَّله مرارًا جالِسًا وسط جوالات القطن الموصوم ببصمات الفلاحين الموبوئين بالكوليرا...

لدى كوزيكا يقينٌ أن مكوثه في مدينة الإسكندرية سيجلب له ثروة كبيرة لم يكن يحلم بها، تلك الثروة هي التي ستضمن زواجه من كيكي، وتؤمِّن مستقبله ومستقبل عائلته، سيدير العمل بدلًا من عَمِّه،

سيكون هو البوابة التي يعبر الفارُّون من خلالها إلى أوروبا هربًا من الحرب الوشيكة: كن أنت الأذكى يا كوزيكا... كلهم رحل خائفًا، ابقَ أنت وكُن المستفيدَ الوحيد...

اتَّضح أن الخواجة ياني الذي يملك كومبانيَّة للنَّقل البحري لديه ثلاث سُفُن شراعية تنقل البضائع عبر البحر الأبيض المتوسط والنيل والقنال، حوَّلها كوزيكا كلها لنقل البشر مقابل مبالغ كبيرة جدًّا تُدفع له مُقدَّمًا بلا وساطة، نزل إلى الميناء بنفسه، راكبًا عربة عَمِّه السوداء الأنيقة التي يجرُّها اثنان من الخيل الأبيض، يرعاهما الرجل الطيب "أبو جنيه" ويقودهما، حتى إنه كثيرًا ما يترك مخدَعَه المُعَدَّ في أسفل بيت يانِّي ويُفضِّل أن ينام بالقرب منهما في الإسطبل الصغير الملحق بالبيت، عَزَّ عليه فراق الخواجة يانِّي، وتوسَّل إليه أن يأخذه معه إلى أي مكان، أوصاه مسيو يانِّي على كوزيكا والبيت والعربة والخيل، وهو يضع في يده مبلغًا من المال، في قرارة نفسه يشعر يانِّي بأنه لن يرى "أبو جنيه" ثانيةً، قال في نفسه: "سيموت هذا المسكين ثمنًا لخدمته لنا"، الكثير من العائلات تركوا خَدَمَهم البرابرة -كما يُسمُّونهم- ليحرسوا بيوتهم، وأشاعوا أن انجلترا لن تضرب البيوت، ستضرب الطوابي والحصون فقط، ولكن "أبو جنيه" لم يكن يبالي، بكى بشدَّة، تتساقط دموعه على وجهه الأسمر، أصرَّ على البقاء طواعيةً مُلَوِّحًا بمنديله حتى غابت قُبَّعة الخواجة عن بصره: رجلٌ بلا عائلة، قادِمٌ من صعيد مصر مجذوبًا للجِنِّيَّة الشقراء عروس البحر الأبيض المتوسط، وقع في غرامها من النظرة الأولى، وقرَّر البقاء فيها حتى يقضي نحبه، كان بمثابة الخادم الخاص للمسيو يانِّي، وسائقه الأمين، الذي يضع في يده المال ليسلِّمَه لأصحابه -والعكس- بأريحيَّةٍ واطمئنان دون أن يخشى شيئًا، يرطن بالجريجي والطلياني، ويعرف كيف يتحدَّث مع الجن الأزرق كما يقولون... اعتمد كوزيكا عليه في تلك الأيام، ومنذ رحيل عَمِّه وزوجته، اتَّفَق معه تيوخاري على أن يحثَّ العائلات الهاربة من بعد المذبحة على ركوب الزوارق أوَّلًا، ويركب معهم حتى سفن الخواجة الراسية خارج الميناء بأمر سيمور قائد الأسطول الإنجليزي، عمل تيوخاري على إعدادها للسفر، والتأكُّد من سلامتها، بمساعدة القباطين والمهندسين، مع مرور الوقت كانت أسعار التذاكر تزداد مع قِلَّةِ الأماكن المتوفِّرة وتَزايُد الطلب عليها، بدأت بخمسين فرنكًا، وازدادت أكثر فأكثر، حتى وصَلَت إلى مائة فرنك، الكثير منهم دفع ذهبًا، السُّفُن التي تُرسِلها هيلاس وغيرها من البلاد لا تكفي، آلاف البشر يهاجرون مع مطلع فجر كل يوم، المصريون يشيعون الأجانب الفارِّين من البلاد بنظرات مختلطة، تتأرجح بين الغبطة والخوف والظفر ببيوتهم وأموالهم وكنوزهم المخبوءة...

أمَّا المصريون سُكَّان الحي العربي، انتشروا في المساجد، سارت فيهم الخُطَبُ الرَّنَّانة مسرى الدماء في العروق، باتوا مقتنعين بين عَشِيَّةٍ وضُحاها أن الإنجليز الجبناء لن يدخلوا في معركة مع المصريين والعرابيين...

هجر النوم كوزيكا، الأَرَق والخوف والقلق صاروا أصدقاء مُلازِمين له، رأى نفسه في سيرك كبير، أمامه عشرات الأطباق المتأرجحة في الهواء، تدور حول نفسها بسرعة فائقة مرتكزة إلى عيدان طويلة يحرِّكها كوزيكا نفسه بمهارة واحتراف، يسعى بين الطبق والآخر دون السماح لأي واحدٍ منهم بالوقوع، دقَّات قلبه تتسارع ويكاد أن يتوقَّف لو مال أيٌّ منهم ميلًا يُفقِده التوازُنَ المنشود، والذي يضمن بقاءهم جميعًا طائرين هكذا في الهواء، الحضور يصفق بشدَّة وانبهار، من بينهم كيكي الجالسة في المقدِّمة، الجميع يترقَّب وقوع أي طبق بشكل مفاجئ، ثم يهتز المسرح بقوة، تميل العيدان يمينًا

ويسارًا، يفقد كوزيكا السيطرة عليها، وبالتالي على الأطباق الطائرة، تتبعه أطباقه في الوقوع هي الأخرى الواحد تلو الآخر، تتكسَّر على أنغام الأبواق التي ما زالت تعزف الألحان الحماسيَّة، انفضَّ الحضور، أمَّا كيكي فنظرت إلى كوزيكا نظرةً طويلة لائِمَة، كأنه قلبها الذي كُسِر وليست الأطباق! يصحو فَزِعًا من نومه الذي لم يستغرق نصف ساعة، وكلَّما أغفل عينيه رأى الكابوس الرهيب ذاته...

حمل تيوخاري السِّلاحَ لأوَّلِ مَرَّة، بلا خوفٍ ولا تَردُّد، شعر بأنه يجب أن يألفه ويُصادِقَه، خاصَّةً بعدما سمع بأعمال النهب والسلب، وجد نفسه على أتمِّ الاستعداد لقتل أحدهم إذا مسَّ جدار البيت، أو السفن، أغلق بوَّابة الكومبانيَّة بالأقفال، ووضع عليها متاريس من الأحجار وأكياس الرمال، بات يُودِعُ الأموال في خزينةِ عمِّه الخاصة، وشعر بالألفة والثقة بالخادم "أبو جنيه"، اقترب منه أكثر بمرور الوقت، وأعجبه أن يناديه باسمه على الطريقة اللاتينية التي يُحبُّها الطَّليان:

- خواجة كوتسيكا([7])...

فيقول:

- كوتسيكا أم كوزيكا؟

- كوتسيكا أكثر أُلفَة يا خواجة!

- ربَّما لأن "كوتسيكا" على طريقة أهل روما؟

- ربَّما...

- هل تُحبُّ الطَّليان أكثر من الأروام يا "أبو جنيه"؟

- بالإضافة أن نساءهم أجمل، الطَّليانيُّ لا يحسبها كثيرًا مثل الرُّوميِّ، أنتم تفكِّرون طوال الوقت.

يضحك تيوخاري عاليًا، يسأل "أبو جنيه" عن رأيه: ماذا سيفعلان لو ضَرَبَت إنجلترا البلادَ؟

- انظر يا خواجة، أنت آخر من يُفكِّر أو يحمل همًّا لشيء كهذا، ادَّخِرْ لك مقعدًا في إحدى سُفُنِكم عندما تكتفي من العمل هنا.

- لا أريد أن أترك الإسكندرية، "أبو جنيه".

- اتركها لبعض الوقت حتى تنقضي الحرب.

- هل تأتي معي؟

- لا، لا أستطيع أن أترك هذا المكان، والخيل مَن يعتني بها، وبيت عمك لمن أتركه؟

- شُفْت؟ لن أرحل أنا أيضًا!

- سيُدبِّرها مُدبِّر الأمر يا خواجة كوتسيكا.

- نعم... نعم، كوتسيكا، يعجبني نُطقُكَ لاسمي يا رجل، لماذا سُمِّيت ب- "أبو جنيه"؟

- أراد أبي أن يُلازِمَني الجنيه طوال حياتي؛ فلا أشك من فاقةٍ ولا حاجة!

جاءت الإجابة على الحائرين بأسرع ممَّا يتصوَّر الجميع في صباحٍ باكر، القنابل والقذائف البريطانية تنهمر فوق الرؤوس بدون تمييز، تدكُّ بيوت المصريين والأجانب دكًّا، زلزال يدوِّي في كل ركن من أركان راكوتيس العتيقة، القلاع والقصور والمساكن والعشش، الأنتيكات النادرة والأثاث البسيط، لا تفريق بين مسجد أو كنيسة أو كنيس، الكل في مركب واحدة تغرق.

هرع "أبو جنيه" إلى الطابق العلوي بالبيت، يَطمَئنُّ على سيده الجديد تيوخاري، وجده واقفًا ينظر من النافذة يرتعش:

- خواجة... يجب أن نخرج من هنا في أسرع وقت...

- "أبو جنيه"، سأجمع أشيائي، ساعِدني...

- هل فكَّرتَ أين نذهب؟

- ماذا ترى أنت؟

- سنرى إلى أين يتَّجِهُ سَوادُ الناس... لا أدري يا خواجة!

بات كوزيكا في ذهولٍ، لا يدري ما يفعل، إلى أين يذهب؟ فات وقت النَّدَم، بين ضربةٍ وأخرى قد يسوَّى بيت يانِّي بالأرض، تعاقَبَت القذائف، تكاثَفَت الأتربة والأبخرة التي سدَّت أشعَّةَ الشمس عن الحي الأحمر وما حوله، شُلَّ تفكيرهما تمامًا، واستغرقا في محاولات فاشلة للخروج من البيت.

ظلَّ كلاهما خلف الباب، تيوخاري يتلو الصلوات، يتضرَّع إلى المسيح، طالبًا المعونة من أُمِّه سيدة الأحزان، من خلف الباب، وقف يتأمَّل واجهات البيوت المجاورة وقد انهارت تمامًا، اغرورقت عيناه بالدموع وهو يستحضر كلمات الكتاب المقدَّس: "ادْخُلُوا مِنَ الْبَاب الضَّيِّقِ، لأَنَّهُ وَاسِعٌ الْبَابُ وَرَحْبٌ الطَّرِيقُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْهَلاَكِ[8]".

يبدو أني ذاهِبٌ إلى هلاكي يا يسوع...

"أبو جنيه" يحاول أن يُهدِّئ من رَوع الخيل التي صارت تصهل في فَزَعٍ، يطبطب عليهما، يُهَمهِم لهما كأنه يغني، يسأله كوزيكا:

- ألا تخاف؟ ألا تفزع؟

- قُل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا يا خواجة. العمر واحد والرب واحد.

في قرارة نفسه حَمَدَ تيوخاري ربَّه على أن كيكي ليست هنا، هي وأسرتها بأمان، وهذا يكفيه، عمُّه وزوجته أيضًا في أمان، هل سينجو أحد من هذا الجحيم؟

- كان جنونًا أن أبقى هنا، لقد أضعتُكم معي، أنت والخيل، نحن هالكون لا محالة...

- لا يا خواجة كوتسيكا، سننجو، إن لزِمنا هذا البيت، ستكون مُجازَفة كبيرة لو تحرَّكنا إلى مكانٍ آخر وسط القذائف...

- سوف تكون مُجازَفة كبيرة أيضًا لو بقينا هنا!

- اصبِرْ، سمعتُ أن جماعة كبيرة من الطليان لم يغادروا بعد، رفضوا الرحيل، يريدون البقاء إلى جانب العُرابيِّين، والانضمام إلى الحامية المصرية إن لَزِمَ الأمر، أرمينيُّون وفرنسيُّون وألمان وسويسريُّون، حتى إن كثيرًا من الأروام أيضًا لم يرحلوا كذلكَ...

- أين هم إذًا؟ كيف نجدهم في وسط هذا الخراب؟

- لا تَخَف، سنجدهم، أنتَ سَيِّدي، سأفديكَ بحياتي!

أصوات القذائف تتصاعد، مدافع الحامية المصرية في الإسكندرية بدأت تردُّ في المُقابِل، اشتعَلَت الحربُ، ولا أحد يعرف كيف ومتى ستنتهي!

ولكن الخديو كان يعرف... فعندما سأله أحد الأميرالات: "يا وليَّ النِّعَم، ما مصير الإسكندرية لو ضربها الإنجليز؟!"، أجاب على الفور: "ستُّون عامًا"!

بدأ الظلام يُطوِّق المدينة، سكنت أصوات المدافع والقذائف، قرَّر "أبو جنيه" أن يخرج في الظلام ليبحث عن مَخرَج، سار مترقِّبًا لكل صوت وحركة، لا يكاد يميز شوارع المدينة من شدَّة الظلام ومن كثرة ما سقط من بيوت، يتعثَّر بالحطام والجُثَث، كاد ينخلع قلبه عندما سمع أصواتًا لم يقدر على تمييزها في البداية، أنصت وهو مُتخَفٍّ خلف جدار فوجدهم بضعة ضباط، يتحدثون عن أوامر سليمان داود بنهب المدينة ثم حرقها، "عُربان أولاد علي" جاهزون لتقديم العون والمساعدة، وجود هؤلاء ليس إلَّا نذيرَ شُؤم على المدينة أكثر ممَّا يُهدِّدها من ضرب وقصف... سمع "أولاد علي" يقتسمون فيما بينهم، سينهَبون ويسلبون ما استطاعوا ثم يحرقون المدينة، المال في أيديهم ما زال طازجًا خارجًا من جيوب الخديو الذي ترك رأس التين قائلًا:

"فلتُحرَق المدينة جميعها ولا يبقَ فيها طوبة على طوبة، حرب بحرب، كل ذلك يقع على رأس عرابي وعلى رؤوس أولاد الكلب الفلاحين، وسيتذوَّق الأوروبيون الملاعين عاقِبَةَ هروبهم مثل الأرانب"...

كان "أبو جنيه" جريئًا، تسلَّل حتى وصل إلى ميدان القناصل، فوجد الكثير من العساكر يحيطون بضابِطٍ يجلس بجانب النافورة في الميدان، يصرخ فيهم:

- لن نترك المدينة للإنجليز، سنَنهَبُها أوَّلًا، ثم نحرقها... فلا نَعِموا بها أبدًا...

فزع "أبو جنيه" وهو يَستَرِقُ السَّمع، قام الضابط نفسه من مجلسه وصاح في الجُند أن اقتَحِموا المحال والدكاكين وأحضروا صفائح زيت البترول...

كان ذلك الضابط هو سليمان سامي داود...

حوصِرَت الإسكندرية، سيطرت إنجلترا على البحر، لا مزيدَ من السفن تغادر مِن أو إلى المدينة، فكر "أبو جنيه" أن يستطلع المدينة غربًا، فوجد الكثير من الأهالي يصرخون ويبكون، ينوحون على فقدان الولَد أو السَّنَد أو البيت، بينما وجد جماعةً أخرى من الأهالي في طريقهم إلى رأس التين لمؤازرة الحامية المصرية، البقيَّة عَزَمَت على الرحيل عن طريق شطوط المحمودية سيرًا، ومنها إلى دمنهور وجسر السكة الحديد، وصولًا إلى القاهرة. عربات الترام "أم حمار" -كما يُسمُّونها هنا - تُحصِّل المال مُقدَّمًا أثناء الاتفاق على الرحلة حتى دمنهور ممَّن تَبقَّى لديهم مالٌ يدفعونه لشراء حياتهم.

أسرع "أبو جنيه" عائدًا إلى كوزيكا في البيت، جهَّز العربة والخيل، ووضع أغراض الخواجة بها، أخبره بما سمع ورأى، وحثَّه على ضرورة الرحيل الآن في جُنح الظلام وقبل أن يستأنف الملعونُ سيمور قائد الأسطول هجومَه على المدينة، وقبل أن تندلع النيران في الإسكندرية كلها. أذعن كوزيكا لما قاله "أبو جنيه"، آسِفًا أنه لن يقدر على المكوث هنا أكثر، بدا له أ□يروف في هيئة المخلِّص يقول له:

"فَإِنْ أَعْثَرَتْكَ يَدُكَ أَوْ رِجْلُكَ فَاقْطَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ([9])".

وجدا أنهما قد انضمَّا للسلسلة البشرية الطويلة السائرة حتى ترعة المحمودية، المشهد رهيب، الآلاف يهربون، مُجرَّدين من كل شيء، يملأ الموت والفزع نفوسهم، مع مرور الوقت بدأ الجوع ينهش البطون، ودبَّ الشِّجارُ على بقايا الخبز والطعام، مع الساعات الأولى من اليوم التالي كانت المدينة قد تكشَّفَت لساكنيها، لا أحد يُصدِّق أن تلك هي الإسكندرية، تهدَّمَت الأسواق والشوارع والبيوت، □يلًا الكونت زغيب وقصر زيزينيا، شارع شريف ونوبار وتوفيق باشا ومحرم بيه، أصبحت تلك الأماكن خالية مهجورة...

ما الذي ينتظر هذه المدينة؟

برغم الحزن والأسى، والإحباط المسيطر على النفوس، كان كوزيكا شاعِرًا بالظفر بما حقَّقه من مكاسب خلال الأيام الفائتة، استطاع أن يُكوِّن مبلغًا كبيرًا من المال، يعينه على بدايةٍ جديدة، الآن فقط، قطعة الإسفنج لم تَعُد تبالي أينما توضع، ستَنبُت لها أَذرُعٌ وأَرجُلٌ أينما حلَّت، الآن يستطيع أن يُصلِّي مُطمئنًّا ويده على الحقيبة المملوءة بالأموال والجنيهات والفرنكات الذهبية:

"أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ"([10]). آمين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(9)
حامِلُ الصُّرَّة

بعدما تجاوَزَ طلعت الأربع سنوات، كانت صابرة خلالها شبه مُنقَطِعَة له، تُراقِبه، ولا تسمح له بالخروج أو اللعب مع أقرانه، بدأت تشعر ببعض الراحة والاطمئنان إذ تَجاوَزَ الطِّفلُ سِنَّ وفاة أخيه سعد -الشر بَرَّه وبعيد- هذا لا يمنع أنها لم تتخلَّص تمامًا من القلق، في الحقيقة لم تتخلَّص منه قطّ. أشارت عليها شوقة بضرورة الاستمرار في طقوس السلامة والحماية، فما إن بلغهما أن الجارة "أم أحمد" قد أنجبت ذَكَرًا وأسمته "محمدًا" حتى لاحت لشوقة تلك الفكرة، فلا بُدَّ أن يحمل طلعت مُحمَّدًا ويتسوَّل به من سبعة أشخاص، ولا يؤخذ شيءٌ من هذا المال، على أن يوضع في صُرَّة صغيرة، تقوم صبر الجميل بعمل عروس ورقية وتخزِّقها بإبرة من عيون كل الحُسَّاد المحتَمَلين وتحرقها مع البخور، ثم تمسَح جبين طلعت وكعبيه برمادها.

ليس هذا فقط، سوف يحمل أحدهم تلك الصُّرَّة مع بقايا رماد العروس المحترقة، ولا يكلِّم هذا اليومَ إنسيًّا حتى تُصادِفَه المَفارِق، هنا سوف يلقي بالصُّرَّة من وراء ظهره ويعود مرَّةً أخرى إلى البيت بدون كلمة واحدة كما فعلَ من قبل.

تمَّ اختيار حامل الصُّرَّة بعناية فائقة، وبعينٍ كاشفة ذكيَّة، قالت شوقة لا بُدَّ وأن يكون ذَكَرًا؛ فهي لا تستطيع أن تَثِقَ بلسان أنثى! لو أُلقي عليها السلام سوف تردُّ وتنسى الاتفاق ويضيع كل شيء، حامل الصرة هذا يجب ألَّا يكون من دم طلعت، ويجب أن يفهم جيِّدًا أن حياة هذا الطفل المسكين مرهونَةٌ بتنفيذ الخطوات كلها بمنتهى الدِّقَّة.

اجتمعت شوقة بصابرة والجارة "أم أحمد"، حاوَلن في تلك الجلسة اختيار حامِلٍ للصُّرَّة، وَرَدَت أسماءُ العديد من شباب الحي، ذِكرُهم يشرَحُ القلب، فكيف يكون الحال برؤيتهم؟ إذا دخل أي شَخصٍ عليهنَّ لن يتخيَّل أبدًا أنهن يبحثن عن حامِلٍ لصُّرَّةٍ، بل بالتأكيد عن عريس لإحدى بنات صابرة! وبعد ساعات وقع اختيارهن على زينة شباب السيدة: عبد الباقي أفندي، ابن الست فوزية.

هذا الرجل هو النسمة بمعنى الكلمة، طَلَّتُه في الحي تُبهج قلوب الحزانى، بطوله الفارع، وابتسامته العريضة، بكلماته التي تجبر الخواطر، والأهم أن له هيبة قد تُخجل ملك الموت من الاقتراب من طلعت!

- عقبال ما أشوفك يا ابني أفندى زَيُّه!

قالتها صابرة حالمةً بصورة طلعت المستقبلية في هيئة الأفندي وبالطربوش. تدعو من أعماقها ألَّا يصبح مثل أبيه ويخيب خيبته!

وبالفعل ذهبت شوقة إلى الست فوزية، تطلب منها هذا الطلب، وبأن يتكرَّم عبد الباقي أفندي ويسمح بأن يأتي إلى بيت الست صابرة ليأخذ الصُّرَّة بعد صلاة الجمعة -هكذا هو الطقس كما يجب- ويلقيها من وراء ظهره في المَفارِق، على ألَّا يتفوَّه بكلمة واحدة طوال الطريق ذهابًا وإيابًا.

تفهَّمَت السِّت فوزية هذا الطلب، وبكت بحُرقةٍ؛ إشفاقًا على الأم التي سوف تلحق بابنها -لا قدّر الله- لو فارق الحياة مثل أَخَويْه، ووعدتها بأن يذهب عبد الباقي أفندي إلى بيت الست صابرة لينفِّذ مطلبها.

أتى يوم الجمعة، ومعه ضوء الشمس، يصبُّ أَشِعَّتَه في بيوت الحيِّ صَبًّا، يدرك كل شيء حتى لمبات الكيروسين الذابلة كضرَّةٍ لا حاجة لها في النهار، تتحكَّم في بَعلِها بالاحتياج ليلًا، يتمايل الهواء في الحارات والأزقة، ويداعب ملاءة بنتٍ من بنات الحي، ويتسلَّل من تحت بُرقعِها، يُبَعثِر زِرَّ طربوشٍ يمشي صاحبه مختالًا فاتِلًا شاربه يلهو بالمقشَّة يمينًا ويسارًا، ويعطف رائحة الزهرة من حينٍ لآخر وقد فاحت من قِطَع الغسيل المنشورة فوق الأسطح، تختلط ثرثرة الدجاجات بروائح قَلي الطعمية والبذنجان، يومٌ له إيقاع ناعم وهادئ على النفس، يومٌ سهل مثل ماء الفول المدمِّس عندما يُغَمَّس بلُقمَة.

وفي ساعات قليلة امتلأ الحيُّ بالمُصلِّين، وفاحت روائح البخور من المشرفيات، وعجَّت المساجد بالدعوات، وامتثالًا لأمر السِّتّ فوزية ذهب عبد الباقي أفندي ليطرق باب الست صابرة، ولكنه كان في غاية الحرج؛ فآثر أن ينادي على "سي عبد العليم" تارَةً، وعلى "طلعت" تارَةً. كانت وداد أسبَقَهم، خرجت إلى المشرفيَّة([11]) بوجهٍ مكشوف محمرِّ الخَدَّيْن، بابتسامةٍ راضية، متأمِّلَةً الرَّجُلَ الذي طرق بابها أخيرًا، نظر عبد الباقي نظرةً واحدةً، أدرك منها عينيها الواسعتين وفمها وطول شَعرها وقَدَّها عندما جذَبَتها شوقة فاستدارت للخلف، هنا أَمسَكَت شوقة بعينيه الهائِمَتَيْن، وابتسمت له مُشجِّعَةً إيَّاه، وكأنَّها تقول: "وماله...".

ارتبك عبد الباقي وطأطأ رأسه، كانت الست صابرة قد وصلت إليه حيث يقف، وفي يدها طلعت ملطِّخ الجبين بسواد العروس المحترقة، مُمسِكًا بالصُّرَّة إيَّاها، وقد مَدَّ يده بها لعبد الباقي كما أمرته والدته، وهمست له بصوتٍ متوسِّل:

- مش هاوصِّيك يا سي عبد الباقي أفندي!

كاد أن يتحدَّث ويَرُدَّ عليها مُطَمئِنًا إيَّاها، ثم تذكَّر العهد الذي أخذته عليه والِدَتُه وكيف أنه وبمجرَّد الإمساك بالصُّرَّة لا يمكنه أن يتفوَّه بكلمة واحدة، فابتلع الكلمات وانطلق حامِلًا الصُّرَّة مُسرِعًا بخطواتٍ واسعة لينفذ المطلوب، في قرارة نفسه يريد العودة سريعًا؛ فلربَّما أطلَّت تلك الفتاةُ مَرَّةً أخرى، أخذ يستحضر الوصايا بمجرد وصوله لمفترق الطرق، فألقى بالصُّرَّة من وراء ظهره، وهَروَلَ عائدًا إلى بيت الست الصابرة التي لم تبرح الدَّرَجَ، وظلَّت تنتظر عبد الباقي أفندي عائدًا بالبُشرى، عندما وقعت عينه على البيت نظر إلى أعلى فلمح وداد تبتسم له من تحت فتحة المشرفية الصغيرة، ثم وجد الست صابرة جالسةً فطمأنها بابتسامته التي تجبر الخاطر، تَعلَّق طلعت بذراعه ووجد عبد العليم يناديه:

- اتفضَّل يا سي عبد الباقي أفندي.

تَردَّد الرَّجُل للحظات، لم يُمهِله عبد العليم، فجذبه إلى الدَّرَج لكي يصعد معه، فاحت روائح الأطعمة الشَّهِيَّة، وألَحَّ عليه لكي يتناول معه الغداء، وأن ذلك هو أبسط شيء يُقدَّم له بعد ما فعله من أجل طلعت ابنهما الوحيد، ازدحمت الطبلية بصنوف الطيور واللحوم، فطير مشلتت وأرز معمَّر

وملوخية، كانت وداد وأخواتها يراقبن عبد الباقي من وراء ستار، تنفلت ضحكاتهنّ من حين لآخر، كلَّما سَمِعن صوته، ما أجمل أن يَرِنَّ صَوتُ رَجُلٍ آخر في هذا البيت غير صوت أبيهنَّ، أمَّا وداد فكانت مُنصِتةً لكل حركة أو همسةَ تصدر عن عبد الباقي، كأنه نبيٌّ مُكلَّفَةٌ بالرواية عنه فيما بعد! تلميذة من تلامذة المسيح لا تريد أن تُفوِّتَ هَفوةً دون تدوينٍ عقليٍّ أو بصري أو روحي! المُخلِّص والمنقذ من هذا الحزن الذي يسكنها، ومن البَوْر ومن الجَوْر!

كانت صبر الجميل شارِدَةً في عالمٍ آخر، عالم يحمل الخير لطلعت، لا تُهدِّده فيه "أم الصبيان"، ولا لعنة من لعنات المال الحَرام، يصيِّر بوسعها أن تنام بعمق وارتياح دون الصحو على كوابيس فَقدِه مثل أخوَيْه، ولكنها في الوقت نفسه استبشرت بهذا الوجه البشوش الذي غبَّر عتبتها، وطَرَقَ بابها، وأنقذ الولد من الأذى والموت. أمَّا شوقة فباتت تتأمَّل الأفندي الوسيم، صاحب الابتسامة التي تجبر الخاطر، وتُفكِّر: ماذا لو قسم المولى لوداد به؟ ذلك ما كان يدور ببال عبد العليم أيضًا، تلاقت عيونهما في نفس اللحظة: عبد العليم وشوقة، في نظرة يملؤها الدعاء والرجاء، حوَّل الأب بصره باتجاه صابرة، فوجدها كعادتها جالِسَة وطلعت في حِجرها تُمشِّط شَعرَه وتنظر إلى الأفندي نظرةً لن ينساها.

وقبل انتهاء الأسبوع، أتت شوقة بالبشارة:

- سي عبد الباقي أفندي جاي يخطب وداد يوم الخميس!

لم تُصدِّق وداد عندما أخبرتها شوقة، سألتها إذا كان يعلم طبيعة عمل والدها، وتشكَّكَت في الأمر، كذبَت قلبها الذي بات يخبرها منذ يوم الجمعة المباركة أنها أعجبته، وأنه سوف يأتي مرَّةً أخرى من أجلها هي لا من أجل طلعت، هل يجب عليها أن تُصدِّق أنها سوف تتزوَّج أخيرًا، ومن زينة شباب حي السيدة؟! سي عبد الباقي أفندي أبو ابتسامة تجبر الخاطر...

زغرَدَت شوقة، ومن بعدها صابرة، وهرعت الجارات الواحِدَةُ تِلوَ أخرى يُردن معرفة أسباب الفرحة، أخبرتهن شوقة بفخر وهي تُكبِّر وتُصلِّي وتُسلِّم على النبي واسم عبد الباقي يجري على لسانها بسهولةٍ يوم الجمعة الفائت، ينتهي اسمه العذب بابتسامة حرف الياء الممدودة على شفتَيْها.

- إلهي بِنصِفِك يا صابرة!

أمَّا وداد فهرعت إلى المرآة تتطلَّع إلى صورتها، تتحسَّس وجهها وصدرها وخصرها النحيل، تفرد شعرها الطويل وتنظر إلى أين يصل، هل سيعجبه قَدُّها ورَسمُها؟ وأخواتها يباركن لها ودموعهن تنهمر فرحةً وحسرةً:

هل سنحظى بزيجةٍ كهذه؟

أمَّا ست أبوها فتعلَّقَت برقبة أختها الكبرى تُقبِّلُها وتحتضنها، ثم همست لها قائلةً:

- يعني خلاص مش هنروح السيدة تاني؟

وكأنَّ الطفلة قد ذكَّرَت وداد في عِزِّ الفرحة بأهم شيء يجب فِعلُه. ارتدت الملاءة والبُرقُع وأخذت "ست أبوها" إلى السيدة نفيسة، وقفت قليلًا بالخارج تنظر إلى قُبَّة المسجد التي تخطف البَصَر، تنفسَّت بعُمقٍ كأنها تملأ صدرها من ريح حفيدة النبي التي جبرت بخاطرها فأعطتها رجلًا له ابتسامة

تجبر الخاطر، سجدت على عتبة المسجد فوق الحصيرِ المعفر حيث الأحذية والقباقيب والشباشب أشكال وألوان، عطَّلَت النساءَ عن الدخول، ولكنَّهُنَّ أَشفَقن عليها وظنَنَّ أن لها حاجة عند "نفيسَةِ العِلم"، قامت بصعوبةٍ تسأل عن حارسِ المقام، فجاءها مُتأهِّبًا لتلقينها دُعاء السيدة نفيسة، فاجأته بالمال في يده، التفَّ حولها المساكين والشَّحَّاذون يريدون مثله، أعطتهم جميعًا، جَبَرَت بخاطرهم.

وكيف لا تفعل؟

هي التي وهبها الله رجلًا له ابتسامة تجبر الخاطر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(10)
أغنيةٌ لآذار

صَدَقَت توقُّعات "أبو جنيه"، أُحرِقَت المدينة، والتهمت النيرانُ ما أخطأته قذائف وقنابل الإنجليز، نهب العساكر والعُربان البيوت والقصور، قتلوا حتى حُرَّاس البيوت والبنوك السُّمر المصريين والسودانيين الواقفين، بلا حولٍ لهم ولا قوة، قاموا على كل شيء كالجَراد، في الوقت نفسه كان كوزيكا بصُحبَة "أبو جنيه" في القطار من دمنهور إلى القاهرة يستعيدان الأيام الخوالي، يحاولان استيعابَ كُلِّ ما حدث لهما وللمدينة، يتحرَّيان الأسباب التي أوقعتهما وغيرهما في هذا الشَّرَك وتلك الكارثة التي يشيب لها الولدان، يتساءلان في حيرةٍ: لمن تكون الغَلَبة يا ترى: للإنجليز أم لعرابي؟ يُصرُّ كوزيكا أن بريطانيا قد استولت على البلاد بالفعل، والنتائج محسومة، بينما يحاول "أبو جنيه" بَثَّ شيء من الأمل في نفسه يُعينه على الليالي حالِكَة السواد، حتى عندما شَحَنَ العربة والحصانين في القطار همس لهما بأنها مسألة وقت وسوف ينتصر عرابي في المعركة ليعودوا آمِنين إلى الإسكندرية، ولكن هل يعلم عرابي بشأن ما فعله هذا الضابط الأخرق؟ مستحيل... مستحيل أن يسمح عرابي بحرق مدينة "أبو جنيه" وحبيبته: الإسكندرية، يتذكَّر ما أشيع بين الخَلق أنه قد عُثر على بيضة تحمل اسم عرابي باشا، تبشِّر بالنصر، فكيف يملأ طعم الهزيمة فمه الآن؟ حمد الله فقد ظفر بمقعد بجانب الخواجة، ناظرًا إلى جموع البشر النازحين بلا أي شيء، وقد فقد الكثيرون منهم إمَّا السَّنَد أو الولد، منهم مَن دُفِنوا أحياء تحت القصف، ومنهم من مات متأثرًا بجراحه، ومنهم مَن ظل يصرخ على جوعه وجوع عياله في شقاءٍ مقيم في القلوب التي أُشبعت ذلًّا واستعبادًا.

كل شيء غائم الآن، لمَن يذهب تيوخاري، وماذا سيفعل في القاهرة، وكيف يُخفي هذا المال قبل أن يلاحظه أحدٌ في أيام السَّلب والنَّهب؟

كلاهما كان في حالةٍ مُزرِيَةٍ من التعب والإنهاك، أوصلتهما بمشقَّة إلى فندق يقيمان فيه بعد أيام الهلع والموت، دون حتى أن يتأمَّلا القاهرة أو يلحظا شيئًا من جمالها، غاصَا في نوم عميق لساعات وساعات، كلاهما فَزِعَ مرَّاتٍ من نومه على كوابيس الضرب والحرب، يتوسَّل كوزيكا في كل مرَّة صورة كيكي؛ ليهدأ ويطبق جفنيه ليغيب عن الوعي مجدَّدًا، أمَّا "أبو جنيه" فبدأ يلوم نفسه كيف أنه لم يذهب مع بني جِلدَتِه للمحاربة مع عرابي، وكيف سيعود ليحيا فوق أرضٍ لم يَهُبَّ للدفاع عنها، انهمَرَت دموعه، ونزل إلى أسفل مُتفقِّدًا الحصانين في اسطبل الفندق، يحتضنهما ويبكي ويندب حظَّ الفقراء الغلابة أمثاله ممَّن لا يملكون من أمرهم شيئًا.

على مدار الأسابيع التي تلت ضرب الإسكندرية، استبسلت المقاوَمَةُ، وبُذِلَت كُلُّ طاقة مُمكِنَةٍ لرَدِّ العدوان، حتى بعد عزل الخديو لعرابي، تدفَّق عليه المتطوِّعون من المصريين والطَّليان والسويسريين، وحتى الألمان والفرنسيين، ولكنَّ الخَوَنَةَ من العربان والبكوات والتُّرك كانوا أكثَرَ ممَّا في الحُسبان، انتهت الحرب غير المتكافئة، لتقرَّ جلالَتُها عينًا بالاستيلاء على مصر ويُعدم أشخاص أبرياء بدعوى إثارة الفتن ويُنفى عرابي ورجاله خارج البلاد.

وكما يقول المَثل: "مَن يَسط بسفينةٍ صغيرة يُدعَ قرصانًا، ومَن يَسط بسفينةٍ كبيرة يُدعَ فاتِحًا".

تابع كوزيكا الأخبارَ باهتمام بالغ، واكتشف بمرور الوقت أن هناك مَن قامر بحياته مثله ليُحقِّق مكاسب آجِلَةً وليست عاجلَةً، فاحت أخبار كل من ساعد القوات الإنجليزية، ها هو يؤانيس أنطونياديس جعل عِزبَتَه القريبة من بحيرة مريوط تحت تصرُّف قوات الإنجليز لمراقبة جيش عرابي عن كَثَب، وقد كافأته جلالتها بمنحه لقب فارس! أمَّا كونستانتين زيرڤيداكيس وهب مستودعاته للقُوَّات لتكون مستشفيات لعلاج المصابين من الإنجليز، وغيرهم ممَّن قرؤوا المشهد جيدًا وعرفوا لمَن الغَلَبَة.

إن لم تستطع هزيمتهم: انضمَّ إلي صفوفهم.

تَعلَّمْ يا كوزيكا، وتأمَّلْ، كيف تُبنى الثروات وتُعزَّز المصالح وشجرة العلاقات!

وبالفعل أحكمت بريطانيا سيطرتها على كل شيء: الماء واليابسة وما فوقهما، طالَبَ الأجانِبُ بتعويضاتٍ عَمَّا تَهدَّم أو أُحرِق أو نُهِبَ في أثناء الحرب، دفعت الحكومة المصرية صاغِرَةً، وبذلك تزايَدَت الدعوات لعودة ساكِني المدينة إليها مُجدَّدًا، حمل الطليان عبءَ إعادة إعمار الإسكندرية، وبناء الحي الأوروبي من جديد، زفَّ تيوخاري الخبر إلى عَمِّه في تلغراف، وأرسل إلى كيكي خطابًا يحثُّها فيه على إقناع عائلتها بالرجوع، على الأقل لاستلام التعويضات كما فعل الجميع، أمَّا عن أخيه، فما زال أمام بوليخروني عامٌ آخر قبل أن يُنهي دراسته ويستطيع المجيء...

وصل كوزيكا خطابٌ من كيكي، كاد يطير فرحًا بمجرَّد استلامه، حتى إن "أبو جنيه" سأله عن سبب الفرحة البادية عليه، والتي لم تَزُره لشهور، ابتسم الخواجة وقال له:

- رُدَّت الروح إليَّ...

ضحك "أبو جنيه" وشرد في حاله، وذهب بعيدًا حيث الشاطئ المسحور كما بات يُسمِّيه في الإسكندرية، ما زال يتعجَّب كيف نجا، هو والخيل والمسيو كوزيكا...

قرأ كوزيكا خطاب كيكي كلمةً كلمةً، وظَلَّ يسترجعه عشرات المرَّات، يشمُّه ليضوع به النَّفَس ويشبعها من عبير كيكي المسافر من هيلاس إلى قلبه رأسًا، كل حرفٍ حمل تشجيعًا ما، وخاصَّةً بعد جَني المال اللازم لتأسيس بيت وبَدءِ حياةٍ جديدة مليئة بالأمل والحب، نعم الحب، هو لا يصدِّق عينيه، كتبت كيكي فعلًا كلمة الحب؟

عادت السُّفُن بالجموع إلى الإسكندرية مُجدَّدًا، تَوافَدَ الآلاف على المدينة التي استقبلتهم بمحبَّةٍ وأُبَّهة وجمال في طورٍ جديد، أضحت واعِدَةً كما كانت دومًا، فُندُقَا "أوروبَّا" و"أبات" ينتظران جموع الأوربيِّين الآتينَ من سائر الأقطار، برغم ما لحقهما من أضرار، وإصابات، كالبَشَر تمامًا، راح الجميع يتفقَّد ما تبقَّى من دياره وما حلَّ بها، اختلَطَت المشاعر بين حُزنِ الفقد وسعادة الرجوع، أقبل الأرواماُ على بعضهم البعض مُهنِّئين ومُباركين، بقُبَّعاتهم المُميَّزة وشواربهم السُّود المرسومة، كان القُدَّاسُ الأوَّل في الكنائس مَهيبًا، أصوات الأَجراس تعلو مُتصاعِدَةً مع أمواج البحر إلى نوافذ السماء، مع حلول المساء أقاموا حفلات في كل مكان، وامتدَّت الموائد في شوارع المدينة العتيقة عليها ما لَذَّ وطاب من المطبخ اليوناني: فطائر "البيتا" الشهيةِ المحشوَّة بالدَّجاج والجبن والسبانخ، صواني

"الموساكا" المُعَدّة من اللحم المفري والبطاطس وقِطع البذنجان مع صوص البشاميل، "السوفلاكي" المكوَّن من قطع الدجاج المشوي في أسياخ، مع سلطة "التزاتزيكي" خليط الزبادي البارد مع زيت الزيتون والخيار والنعناع، الشَّراب، الرقص، الحياة، العودة للوطن الذي اختاروه بمحض إرادتهم.

احتضن السكندريون المصريون بقاياهم ببعضهم البعض، احتووا الجُرحَ العميق بابتسامَةٍ سمراء يعلوها شيءٌ من الانكسار، المخفي وراء الجَلَد والعمل الشَّاقِّ، على أكتافهم وبسواعدهم وعلى مدار السنوات، عادت الإسكندرية إلى ما كانت عليه من رَوعَةٍ وجلال، بحماسِ مَن عاشوا على أرضها من جميع الجنسيَّات وظَلُّوا مُؤمِنين بها حتى ولو تهدَّمَت بيوتهم وحوانيتهم، لم يَكُن يُعكِّر صَفوَ العودة سوى المارد الأحمر الواقف خلف كل جدار، يكاد يعدُّ عليهم أنفاسهم، ولكنهم قرَّروا الحياة ولن يُخرِجَهم أحدٌ من هنا مرَّةً أخرى... لن يسمحوا بذلك...

عاد كوزيكا مع "أبو جنيه" كذلك، يتفقَّدان ما تركا من مُمتَلَكات الخواجة، صمدت سُفُنُ الخواجة بأضرارٍ قابِلَةٍ للإصلاح، وبَقِيَت الكومبانيَّة على حالها، لِحُسنِ الحَظِّ، تضَرَّر المبنى ضررًا طفيفًا؛ لبُعدِ "الرَّمل" نسبيًّا عن مرمى القذائف الإنجليزية، ولكن البيت كان في حالة مزرية مثله كمثل أغلب بيوت الأجانب والمصريين في المدينة.

بات الجميع في سباقٍ مع الزمن لإعادة بناء ما تَهدَّم، وعاد يانِّي وألكسندرا إلى حضن عروس البحر، ضمَّ كلاهما كوزيكا دامِعَيْن، أمَّا "أبو جنيه" فظَلَّ يرقص حولهم بالعصا غيَر مُصدِّقٍ أن "مصير الحي يتلاقى" كما يقول المثل، استرسل كوزيكا و"أبو جنيه" في حديثهما المتلاحق، يريدان أن يَقُصَّا على العَمِّ وزوجته كل ما حدث، استغرقا في وصف المدينة والإشارة إلى ما آلت إليه من أضرار، تفقَّد ياني ما حدث للشوارع والبيوت بحزنٍ بالغ، ثم غاصت ألكسندرا في نوبةٍ من البكاء عندما شاهَدَت مكان البيت المتهدِّم وأثاثه المحترق وما حوله من خراب، برغم أعمال البناء المحيطة كانت ألكسندرا تعرِف أن ما ذهب لن يعود، إنها ذكرياتٌ مَضَت، عمر لن يُعوَّض، جهد وشقاء في رحلةٍ كانت الأجمَلَ في حياتها وحياة زوجها.

انتظر كوزيكا حتى حصر عمُّه الخسائِرَ كلها، وصرف التعويض من الحكومة المصرية، جلس معه في غرفته بفندق أوروبا المكتظ بالعائدين، حاملًا الحقيبة إياها المملوءة بالمال والعملات الذهبية...

- هذا المال هو ما جَمَعتُ يا عمِّي قبل الضرب، جازَفتُ وقامَرتُ بحياتي كي لا يشعر أيٌّ منَّا بمرارة الخسارة، هذا المال يخصُّكَ، ولَكَ أن تتصرَّف فيه كما تشاء.

- وكم يبلغ يا ترى؟

- خمسون ألف فرنك!

- أوه! معقول؟ هل جمَعتَ هذا المبلغ في أقلَّ من شهر؟

- أجل عَمِّي، كانت أيامًا قاسية ومُخيفةً...

- انظر يا بُنيَّ، هذا المال لم يَسعَ إلَيكَ، وإنما سعيتَ أنت إليه بكل قُوَّتِك، بِدَمِكَ وبحياتك...

دفع ياني الحقيبة لتنزلق على الطاولة نحو كوزيكا، فرفع حاجبيه مُستَغرِبًا من فِعل عَمِّه.

- ماذا تقصد؟

- أقصد ما فهمتَه، خُذ هذا المال واصنع عالمك الخاص، ابنِ بيتًا، وتَزوَّج أنچليكي، وأَسِّسْ عملًا خاصًّا بك، أنت لم تَعُد في حاجةٍ إليَّ، مَن يقدر على تكوين مبلغ كهذا في أقل من شهر وقت الحرب والضرب، لا يُخشَ عليه بعد اليوم، صَدَقَ ظنِّي فيكَ يا ولدي.

لم يستوعب تيوخاري ما سَمِع من يانِّي، رأى شبح أ□يروف يغمز له بعينه اليُسرَى، ارتمى في حضن عمِّه يكاد قلبه يقفز من صدره، لا يُصدِّق أن أحلامه تتحقَّق، وأن عَمَّه تَرَكَ له كل هذه الثروة!

أ□يروف... أين أنتَ الآن؟

لم يعرف تيوخاري أن چورچيو أ□يروف، كان من أَشدِّ الرافضين للرحيل عن الإسكندرية منذ بدء الضرب، مثله كمثل التُّجَّار الأوَل الذين ساءهم أن تُهدِّد بريطانيا مصالحهم ولم يقبلوا فعلتهم في حق المدينة وسُكَّانها، ربما كان لديهم شيءٌ من الكبرياء القديم، وبعض النزاهة التي أسبغتها عليهم الآلهة، ما أشد الفَرق بينهم وبين تجار المدينة الجُدُد بيناكي وسالـ□اجو وزير □يداكيس، وغيرهم ممَّن آثروا الخضوع للسُّلطة الجديدة دون أدنى مقاومة يذكرهم بها التاريخ.

بحث تيوخاري عن بيت أ□يروف، أراد جدًّا أن يزوره ويطمَئِنَّ على حاله، عرف من الجوار أنه لا يزال بصحَّةٍ جيِّدة، وقبل أن يطرق باب الـ□يلَّا التي طالتها نيرانُ سليمان داود من ناحية وقذائف الإنجليز من ناحية أخرى، وأحاطت بها الفوضى من كل جانب، تَسَمَّر في مكانه، وتراجَعَ ببُطءٍ، خشي تيوخاري من مُقابَلَة عَرَّابه في اللحظة الأخيرة، وقال في نفسه: لن أدعك تراني الآن مسيو أ□يروف، ليس قبل تشييد عالمَي الخاص والمختلف!

لم يَتبقَّ سوى كيكي لتكتمل فرحته، ولكنه في قرارة نفسه كان يتمنَّى لو تأخَّرَت في المجيء حتى يكتمل بناء الحي الأوروبي، عندما تعود راكوتيس مُجدَّدًا في أبهى صورة، هل يشتري لها بيتًا في شارع شريف باشا؟ أم يبني □يلَّا مكان قصر توسيزا المُهَدَّم في الرملة؟ أم ينتظرها حتى تختار بيتها بنفسها؟

أصبح خيال تيوخاري خصبًا أكثر من ذي قبل، وتعجَّب: هل المالُ هو الذي يُقوِّي القُدرَة على التخييل وصنع الأحلام، أم الحاجة إليه؟!

أرسل إلى أنچليكي يُبَشِّرها بما حدث، وعرض صراحةً أن يسافر إلى هيلاس ويقيم عُرسًا يليق بها هناك وسط عائلتيهما، ولكن كيكي رفضت وأصرَّت أن يكون العُرس في راكوتيس، في الإسكندرية، في المكان الذي وُلِدَت فيه، وأحبَّته على أرضه.

يأتي السنونو من البحر الأبيض

ويحطُّ ليُغنِّي لآذار الحبيب!

تحطُّ كيكي اليوم على الفنار بعد أن حلَّقَت بعيدًا، تصل الإسكندرية بعد طول غياب، استلمتُ بذلتي الجديدة من مسيو چيو□اني، وارتديتُ قُبَّعةً وحذاءً جديدَيْن، حملتُ باقةً من أروع وأجمل الزهور،

وأخذني "أبو جنيه" بعربة عمِّي بعد ما أعاد طلاءها وجعلها في أبهى صورة، اصطحبني العم، وطوال الطريق إلى الميناء ونحن نغنِّي بحماس الأنشودة الشهيرة:

خرج الفِتيانُ للرقص

والفتيات للغناء

يحكين ويغنِّين كيف يُنتزَع

الحُبُّ من العيون

قبل أن يهبط إلى الشِّفاه

ومنها إلى القلب، ولا يهرب أبدًا.

ووَصَلَت كيكي، وتلاقت عيونهما، قال كوزيكا في نفسه: أخيرًا يرسو هذا القلب على شاطئ بعد كل ذلك العناء! لمح سوار "مارتي" في معصمها الصغير، باللونَيْن: الأبيض والأحمر، ومُعلَّق به الخرزة الزرقاء المانعة لعيون الحاسدين. ذلك الذي ترتديه الفتيات في شَهر آذار فرحًا وتَيمُّنًا بالربيع. قَبَّل تيوخاري يَدَها وامتدح السوار الذي أعاده إلى حضن هيلاس في طَرفَةِ عين، قالت كيكي إنه يجب رَبطُه في أول مكانٍ شَهِدَت به علامة من علامات الربيع -كما يعلم- بحسب العادة اليونانية العتيقة، ولا تجد سوى عينيه علامةً أكيدة أن الربيع قد حلَّ بقلبها وأزهر!

احتضن الأحبابُ والأخوةُ بعضهم البعض، يتأمَّلون المدينة دامعين، في مشهد يتكرَّر يوميًّا منذ ضرب الإسكندرية، كان كوزيكا في عالم آخر، يعيد تأمُّلَ كيكي مثلما يعيد الجميع تأمُّلَ المدينة، انتزعها من الحاضر وزرعها في حلم جديد، كان يتوق بشدَّة إلى الرقص، فذهب إلى حفل شاي راقص، لمحها جالسةً وسط صديقاتها، ترتدي فستانًا أسود اللون مطرزًا بالنجوم، شعرها الذهبي مرفوعٌ وتتدلَّى منه بعض الخصلات التي تُلامِسُ رقبتها مع حركتها الخفيفة كل حين، عيناها الزرقاوان تلتفتان إليه كل بضع دقائق، نهض من طاولته وتوجَّه نحوها طالبًا إيَّاها للرقص، قبَّل يدها في خشوع، شعره الأسود كان يبرق تحت الأضواء، وبريق عينيه الواسعتين يترقرق من الفرحة، أخذها وحلَّق بها على إيقاع موسيقى الـ□الس الساحرة، كان قلبه مليئًا بالزهو، الفتى الصغير الذي كان يلهو على شاطئ كاريستو، الفتى الذي ساعده والداه وأخذا بيده حتى أتمَّ تعليمه وتخرَّج في جامعة أثينا، يرقص مع أجمل فتيات اليونان في الإسكندرية، كأنه ابنٌ مُدلَّلٌ لزيوس، كأنها أفروديت، وُلِدَت من زَبَدِ البحر، خرَجَت لِتَوِّها من صَدَفة بحرية سكندرية...

- سنونوتي أخيرًا أتت، أخيرًا حلَّ الربيع بعودتك!

- سنونوة واحدة لا تصنع الربيع!

بحسب التقاليد اليونانية لا يجلب الزُّوجُ لعروسه سوى سريرٍ وحذاء، هي التي تقدِّم المَهرَ، وهي التي يَدَّخِر والداها منذ ولادتها لتجهيزها، فتقوم بشراء كافّة شيءٍ، الأمر الذي يجعل كل أب يوناني يفرح بالذَّكَر الذي لا يُكلِّفه شيئًا يُذكَر، ويحزن ويهتمُّ إذا وَلَدَت له امرأتُه أنثى! الأمر مختلف بالنسبة للعائلات الكبرى التي لا تُؤرِّقها المادَّةُ، وتتكاثر أموالها بالتَّزاوُج فيما بينها. قدَّم تيوخاري لكيكي

حزامًا ذهبيًّا مُرصَّعًا بالأحجار الكريمة، تمامًا كحزام أفروديت الذي قدّمه لها زوجها هيفايستوس! والذي قيل إنه سببُ فِتنَتِها وبهائها وجنون الآلهة بها... كان هيفايستوس -الصَّانِع، الفنَّان القدير، صاحب الابتكارات الفنية المُدهِشة- أعرجَ، قبيحًا، مُشوَّه السَّاقَيْن، ولكنه طيِّبُ القلب ومُسالِمٌ، ويكره النِّزاعات ولا يدخلها إلا مُضطرًّا، تمامًا مثل كوزيكا، غير أن عرج تيوخاري يكمن في غربته التي لا تفارقه. كأن كوزيكا يأبى إلا أن يكتب أسطورته الخاصة بملمح من سِيَر الآلهة...

جاء يوم الزفاف، من العار أن يقيم أي يوناني زفافه في بلدٍ غير هيلاس، ولكن الإسكندرية باتت وطنًا اختاره هؤلاء بإرادتهم الكاملة، أبَوا إلَّا أن يفرحوا هنا بقدر ما حزنوا، فلتُضِئْ أخيرًا دموع الفرح ليالي المدينة الكريمة التي أظلمتها دموع الأسى والفَقد لسنوات، عَجَّت الكنيسة بالزهور، لدرجة أن الناظر إلى الثنائي السعيد يحسبهما يمشيان فوق بساطٍ من الورد... تمنَّى تيوخاري لو كان أبواه وبولي معه في تلك اللحظة، لم يَعُد الأب كوزيكا قادرًا على الحركة، والأم تعتني به ولا تقدر على تَركِه، تمنَّى أيضًا لو شاركه كل أفراد عائلته الساكنة في جزيرة إيڤويا، ولكنه عوَّض ذلك الغياب بصحبةٍ كبيرة من الجيران العائدين، وبحبٍّ بالغ للمسيح الذي ظلَّ يُحَملِق في صورته المُعلَّقة على جدار الكنيسة وهو مُمسِكٌ بالصليب، كيف أحاطه بكل تلك النِّعَم! كيف وهبه ما أراد وأيَّدَه بحُبٍّ يملأ عليه حياته ويسانده في غربته كحب كيكي! لن يفكِّر في أمور الأعمال والأشغال الليلة، سيؤجِّل تلك الأفكار لبعض الوقت، لحين الانتهاء من تأسيس عُشِّ الزوجية للسنونو الآتي من البحر الأبيض، وتعويضه عمَّا فات، يحتاج فتى كاريستو إلى قسط من الراحة والطمأنينة، والحب، وحرية البكاء، أخيرًا شعر تيوخاري بأنه استعاد التوازُنَ المنشود وعادت أطباقه الطائرة تتأرجح فوق العيدان بمهارة، وكيكي تصفِّق بحرارةٍ، وتُرسِل له قُبلاتِها عبر الهواء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(11)
بطِّيخة صيفي

جاء يوم الخِطبة، وأخيرًا دخلت الفرحةُ هذا البيت، بَدَت يومها فرحَةً مُكتَمِلَة لا منقوصة ولا مُنغَّصة، كان الأب مزهوًّا بنفسه، وهو يضع يده في يد عبد الباقي أفندي، واتفقا على كلِّ شيء، على أن تَتِمَّ الدُّخلة بعد شهرين أو أقلَّ، حدث كل ذلك في لمح البصر، أرجعت صابرة سهولة الأمر لصفو نِيَّة وداد، ولكن الأهم أنه قَدَم طلعت عليهم بالسَّعد... تصمت قليلًا، مُستَحضِرَةً صورة سعد المتوفَّى، وتهمس دامِعَةً:

- الله يرحمك يا حبيبي.

بَدَت وداد سعيدةً وإن أضمرت بعض القلق، خاصةً أنها سوف تسكن مع الست فوزية حماتها، ظلَّت شوقة طوال الشهرين تنصح وداد بصفة مستمرَّة كيف تتعامل مع حماتها، وكيف تكسر شوكتها من أول يوم، علَّمتها من أمر النساء ما لَم تعرفه من قبل، واشترَيَتا معًا بصحبة صابرة وطلعت مستلزمات العروس، أوصى عبد العليم شوقة بأن تشتري لوداد أغلى شوار([12]) يليق بهانم، أمَّا صابرة والتي أخذها طلعت من كل مَن حولها، فكانت حاضرةً غائبةً، هذا قَدَرُها، فإن لم تُحِط هذا المسكينَ بالعناية والرعاية والحرص فمَن سواها إذًا يقوم بهذا الدور؟

أحيانًا تشعر بالغيرة والحنق من تجاهُل عبد العليم لها تدريجيًّا، خاصَّةً وهي تُزوِّج كبرى بناتها، فقد أوكل الأمر كلَّه لشوقة، لن تغار أبدًا صابرة من شوقة، كيف؟ هذا لن يحدث أبدًا! ثم إنَّهنَّ بناتها أيضًا! أليس كذلك؟ ولكن باتت تهمس لروحها:

بس الواحدة يصعب عليها روحها برضه!

لم تَعتَد صبر الجميل الصَّمتَ، هي التي باتت ترتعش جدران هذا البيت من صوتها عندما تؤنِّب عبد العليم لائمةً إياه قبل أن يبتسم الحظُّ أخيرًا وتُرزَق بذَكَر مُعافًى له العمر الطويل -إن شاء الله- لَكَم أنقذ هذا الولد أباه من لسانها، فقط لأن بالها غير رائق لسواه، حياة هذا الطفل أثمن من كل شيء، ولكن في يوم ما عندما تطمئن أخيرًا عليه وتأمن غدر الدنيا سوف تحاسب هذا الزوج على كل خطاياه، سوف تجعَله يندم ويخجل كما كان يحدث من قبل. أمَّا الخطيبان فكانا يريان بعضهما البعض خلسةً، في كل مرَّةٍ يحاولان ملء السمع والبصر من كل لمحة وتفصيلة، يُمَنِّيان النفس بالنعيم، بالقُرب الذي لا فراق بعده، الانجذاب الذي حدث بينهما من اللحظة الأولى واستقرَّ أثره وأقام كان يحدث كلَّ ساعة في الحي، وفي المحروسة وفي البلاد كلها، ذلك الشيء المُحرَّم حتى النطق باسمه أو التلويح به، السر المفتضَح في العيون وعلى الشفاه وفوق خدود البنات الحُمر، وفي دَقِّ القلوب من تحت السُّترات وروابط العنق، في الطرقات وتحت مصابيحها شحيحة الضوء في الظلام الدامس، ولكنه ومع ذلك كله، محرَّمٌ. وجاء اليوم الموعود، زفاف عبد الباقي أفندي ووداد، تهيَّأت العروس ونُصِبَت الزينات، ورَقَصَت العَوالِمُ، وعزف التَّختُ، وصدَحَت الأصواتُ بأجمل الطقاطيق، كان عبد العليم جالسًا بين

الرِّجال مرفوع الرأس، خاصَّة بعدما أقبل الخواجة ستافانوس الذي احتضن عبد الباقي مباركًا له، ثم أعطى عبد العليم هديَّة وداد الذهبية، ووضع في يد أبيها "نُقطَةً مُعتَبَرَة".

وسط الزغاريد والدموع والمباركات، زُفَّت العروس إلى بيت زوجها، وقد خرجت أخيرًا من بيت أبيها، إلا أنها ما زالت في رحاب السيدة نفيسة، حيث تتلمَّس بَرَكَتها أينما حلَّت، هل تقولُها الآن وداد لروحها وهي في غمار الفرحة التي تمتزج بالحزن؟ وآه من الفرحة عندما يخالطها الحزن، في قلب فتاة لا تستطيع أن تسعد كُلِّيَّةً وبمفردها، فيجب أن تتذوَّق أخواتها ممَّا ذاقت، وإلَّا فَسَدَ الأمر برُمَّته، هي تحاول الآن أن تستوعب أن هذا الرجل لها وحدها، وأن تلك السعادة نصيبٌ قَسَمَه لها ربُّ العالمين، أن تصدق أن بركة السيدة حلَّت عليها بالحب والزواج! ها هي الآن تنتظره بقلقٍ بالغ، بقلق فتاة مرهونةٌ سعادتها وشقاؤها وحياتها وموتها بأحدهم: عبد الباقي أفندي.

دخل حجرتهما، وابتسم لها نفس الابتسامة التي تجبر الخاطر؛ ذلك لأنه لا ينظر فحسب، بل ينظر إليها تلك النظرة الراضية، التي تملأ العين والقلب. هكذا تشعر النساء بأنهن نساءٌ بحَقٍّ وآمِناتٌ عندما ينظر الرجال إليهنَّ في رضاء.

الأمان نظرة...

ما الذي تعرفه وداد عن عبد الباقي غيرَ كَونِه موظَّفًا "أميري" قَدّ الدنيا؟ لا شيء، ولماذا تشغل بالها بأشياء سوف تتقبَّلها على أيِّ حال؟!

ولكن البطيخة الصيفي المغلَقَة على قلبها ولُبِّها كانت شهدًا بحَقٍّ، ما لم تكن تعرفه وداد عن عبد الباقي، كيف تسعده أبسط الأشياء: ثمرة جمَّيز حلوة طازجة تقع في حجره، قرش يلتقطه من التُّراب قرب انتهاء الشهر، أول رشفة من كوب الشاي المُنَعنَع على المقهى لحظة هبوب النسيم في ليلة من ليالي أغسطس، غمزة آمِنَة لفتاة تبتسم له من تحت البُرقُع، فلا يتبعها أذَى أخٍ أو زوج أو والد، كلمة مصر إذا خرَجَت من حناجر الرجال في هتافٍ يكسر صمت الخوف في الحارات.

"نِيِّتِك لبن يا وداد" كما كانت تقول صابرة...

الرِّجال لا يُحبُّون الثَّرثرة، سوف يَصِلون دومًا لما يريدون بأقل كلمات مُمكِنَة، اللغة في الأصل اخترعها رجلٌ عاجز، يكفي عطره الفوَّاحُ الذي يسبقه، بَياضُ يَدَيه والشَّعر الموزَّع فوقهما بشكلٍ مثير، وجهه الذي تتعطَّش لرؤيته لتطيل النظر مرَّاتٍ ومرَّاتٍ ولا تَصِل إليه بسبب طوله الفارع... كل شيء من قبل كان يحثُّها ألَّا تنظر إليه، ولكنه اقترب أخيرًا وجلس، ما الذي فعله عبد الباقي أفندي؟ جلس مُقَرفصًا أمام وداد التي افترشت حافَّة السرير، هل سمع هذا الرجل ما تبوح به لروحها؟ صار وجهه الآن أمامها بأكثر ما يمكن أن تحلم، ها هما حاجباه العجيبان، قصيران، بدايتهما المستديرة ليستا كنهايتهما المقتضبة، كثيفان من المنبت وحتى انتهاء الحاجب بشكلٍ مفاجيء، أول مرة ترى فيها وداد حاجِبًا بدون ذيل! عيناه وهذا البريق الذي وجدها يوم الجمعة المبارك بعيدة على حافَّة اليأس، اليوم يجدها قريبةً على حافة السرير، نعم، كانت وداد على حافَّة اليأس، وداد الآن تغبط شاربه الممتدَّ بين أنفه وفمه، ولم يحدث أن اقتربا من بعضهما البعض هكذا، زال عنها قلقها، هدأت وارتاحت روحُها المعَذَّبة بين السعادة والشقاء، والظنون والانتظار، وأخيرًا تلك الابتسامة التي تَجبُر الخاطِرَ:

- إزيِّك يا وداد؟

تَنفَلِتُ منها ضحكة، لن يفهم عبد الباقي سببها، لو أن للفرحة عنوانًا ستكون ضحكة وداد في تلك اللحظة، أول مرة ينطق باسمها، وتسمعه واضحًا صريحًا دون الحاجة إلى التنصت.

ليس هذا فقط، لقد بدأت وداد تحبُّ ذاتها، التي تجري اسمًا على لسان عبد الباقي أفندي، أول الطُّرُق لحُبٍّ صادق وحقيقيٍّ هو محبَّة النَّفس.

ثم أخذها بين ذراعيه، احتضنها بشدَّة، بقوةٍ مُفرِطَة مُحبَّبة إلى نفسها، بقوةٍ تُطبِق جسدها على قلبها، كانت وداد تحتضن روحها عندما احتضنها عبدَ الباقي، تلك المصالحة التي طال انتظارها، الآن لم تعد تكره عَمَلَ أبيها، ولا الموت الذي تخشاه أمُّها مخافَةَ أن يُختَطَفَ الولد فأحالت حياتها وأخواتها إلى جحيم، فلولا هذا الخوف لَمَا قابَلَت حامل الصُّرَّة، الذي يجلس عند رِجلَيْها الآن!

بالطبع كان عبد الباقي الرَّجُلَ الأَوَّلَ في حياة وداد، أول رجلٍ يلمسها ويُقبِّلها ويحتضنها، ويدخل عالمها السِّرِّيَّ الذي أخفته طوال سنوات عِفَّتِها، وادَّخَرته لمَن يستحقه، كانت هي أيضًا الأولى في حياته بشكلٍ ما؛ لأن المرة الأولى لن يحسبها عبد الباقي أبدًا، وسيتعمَّد كلَّما ذكرَها أن يقصيها عنوَةً من ذاكرته، سوف يُفضِّل أن يتناساها كأنها لم تَحدُث.

ولكن الجميع يعلم حقيقة ما يبوح به الرجال لبعضهم البعض في مجالس الأُنس والسَّهر، بل وعلى المقاهي بأصواتٍ خفيضة وأحيانًا على الملأ بشكلٍ مموَّه،الأسرار المُفشَاة على طريقة "علي كاكا" (13) الفاحشة، وأحاديث الأَسِرَّة المحَرَّمة، التصريح بعلاقاتهم مع النساء على اختلافِهِنَّ، إن كُنَّ غانيات أو فتيات صغيرات أو أرامل أو مُطلَّقات، بدون ذِكر أسماء؛ حفاظًا على أعراض بنات الناس، ومن باب السَّتر على الولايا! يستعرضون فحولتهم ويتنافسون في وصف ما حدث ومدى ما وصلوا إليه، بطولات وانتصارات مُزيَّفة، أما عبد الباقي صاحب المكرُمة والهيبة بين رجال الحي، بل والتلويح الذَّكيُّ بأمارات فحولته؛ كَونَه فارِعَ الطُّول، وبأنه يُخفي مُغامَرات لا أوَّلَ لها ولا آخر- لم يكن مثلهم،كانت تلك المرَّة فقط، تحت وطأة نوبة سُكرٍ غير مُرتَّبة مع رفاقه، المصابيح المُضاءة قليلة، أصوات عالية وضحكات ولمسات تداعبه وتثيره، جعلت منه ثورًا هائجًا، كان هناك جسدٌ يتفتَّت من تحته، يستغيث مُتأوِّهًا، رائحة كريهة ملأت أنفه، جعلته يعاف الجسد المسجَّى تحته ويقوم عنه، ظلَّ يتقيَّأ حتى ظنَّ أن أمعاءه سوف تخرج من فمه، شعر بشيء لا يقدر على وصفه، ولكنه كلَّما ذَكَرَه أحسَّ برغبته في قتل نفسه. حتى ما قيل سالِفًا -وهو ما حدث فعلًا- يقع في أبعد نقطة من عقل هذا الرجل، تَصِلُ منه إلى منزلة الإنكار، فلم يحدث له شيء من ذلك بل كله من صنع خيالات السُّكر، حتى وإن داهَمَه هذا الجسد في أحلامه مِرارًا، حتى وإن نهض وما زالت ملامِسُ النَّهدَيْن على أصابعه العشرة، سوف يُصِرُّ أن ما حدث كان فقط مثل ذلك الحلم، لم يكن ذنبًا حقيقيًّا يستلزم التوبة أو طلب المغفرة. ولكن الذنب كمفردة، مُعبِّرة عن نِتاج كل فعل قد يجلب للمرء حالة تُهدِّد استقراره النفسي، فيصير بذَنَبٍ، يلاحق صاحبه أينما حلَّ، يترك آثاره ويجر خيباته ويُخلِّف الندم ويثير أسئلةً سخيفة لا إجابة لها، مثل: لماذا وكيف فعلتُ ذلك يومًا ما؟ ومِن أجل مَن؟ ولذلك أثقله على المرء وأبقاه أثرًا هو ظُلمُ النَّفس.

ولكن ستظل وداد الأولى، وإن تحرَّى معها ما حدث من قبل، وإن داعبها مثلما داعبه الجسد القديم، يهمس بالكلمات الفاحشة ذاتها، ينعتها بألقاب المومسات والغواني، يطلب منها أن تُردِّدها، أن تَسُبَّه، هيَّا نلعب يا وداد، لا تخجلي، كوني بذيئةً، أخرِجي ما في جوفِكِ من قذارة الأيام، وابصقي على هذا القضيب الضخم، مَن أكثر شخص تكرهينه؟ كوزيكا؟ أم أباكِ؟ لا تَكُفِّي عن السباب الفاحش البذيء، تلك الأيام لا يمكن أن تمرَّ إلا هكذا!

هل هكذا يكون الحُبُّ؟ أم يكون ذلك هو العيب الوحيد في البطيخة التي لها طعم الشهد؟

أدار عبد الباقي ظهره بعد ارتعاشَتِه الأخيرة، وراح في نوم عميق بدون كلمةٍ واحدة، كما لو كان حامِلًا للصُّرَّة إيَّاها! أمَّا هي ظَلَّت تبكي بحُرقَة، تحاول أن تستوعب ما حدث، وإن كان هذا عادةً ما يحدث فعلًا، كادت تُجَنُّ، ولكنها ابتلعت حُرقَتَها وشعورها بالمهانة وصَمَتَت، حاوَلَت استحلاب ملمس يديه المُخضَّبتَيْن بالحِنَّاء، ورائحة أنفاسه، وقُبلاته العنيفة، التي تقول شيئًا واحدًا: إنه أرادها بقوة، هي التي طالما شعرت بأن لا أحدَ يريدها، يتحوَّل حنقها إلى ابتسامَةٍ دامعة، لرَجُلٍ مستثار غير مبالٍ بصرخاتها المتألِّمة، لم تَكَد تنام لساعَتَيْن حتى شعرت به يتقلَّب بجانبها، يزحف إلى أسفل منها، يُباعِدُ بين فخذيها ويَلعَقُها كقِطٍّ، موجاتٌ هائلة من اللَّذَّة تسري في جسدها، هي الآن تريده فعلًا، هل هكذا تكون المصالَحة بين الأحباب؟

لماذا وداد يا عبد الباقي؟

سأل روحه فقط هذا السؤالَ وهي تنتفض بين يديه، محاولًا تعويضها عمَّا فعل بها بالأمس، لماذا كان بتلك القسوة؟ أي ثأر بات يُخلِّصه منها؟

وداد هي ما أراده بالضبط، امرأةٌ جميلة لها رائحة أبيها المثيرة، من اللحظة الأولى كانت رائحة الكحول تفوح من البيت، ملأت أنفَه وصَدرَه وأنعشته دون أن يَسكَر، هذا ما شعر به فعلًا، ولكن الحقيقة أن تلك الرائحة كانت في مُخيِّلَتِه هو فقط، ماذا لو اختطف قطعةً من هذا العالم دون أن يضطرَّ إلى دخوله؟ دون أن يضطرَّ إلى تَقيُّؤ روحه؟

تتصاعَدُ من أعماق عبد الباقي الحقيقةُ على هيئة وَهم يَشمُّه، يحدث ذلك كثيرًا، وقد حدث في الليلة التي لا يريد أن يتذكَّرَها أبدًا، لم تكن الرائحة الكريهَة التي ملأت صدره عندما اعتلى ذاك الجسد سوى عارِه هو، لا عار الفتاة التي تُقايِضُ على جسدها بالمال!

ولكنَّ نظافَةَ وداد وطهارتها لا تبعث في نفسه الرغبة، أن يُحبَّها ليس كأن يرغب فيها، كان لا بُدَّ من ذلك الغلاف السحري والعَبَق المثير كي تكون مُغريَةً له!

عند عبد الباقي، لا يأتي رَونَقُ الرغبة من المنع والتحريم فقط، بل أيضًا من بعض الدَّنَس والتلويث، ولكن هل ستفهم النساء هذا المقصد وهذا العوار؟

وفي الصباحية سار كلُّ شيء على ما يُرام، كلهم عيونهم على وداد، يَوَدُّون لو استطاعوا قراءة ما حدث في الليلة الماضية، العروس مبتهجة ومُشبَعة بحَقٍّ، تستطيع شوقة إدراكَ ذلك بسهولة، أمَّا صابرة فقرأت ارتباكًا في قسمات وجه البنت، حاول عبد الباقي أفندي أن يُظهِرَ توازنًا بين الفرحة

والوقار، يخفي شعوره الطاغي بالسعادة، ولكن على مين؟ اطمأنّ عبد العليم، وبوسعه الآن أن يذهب إلى البيت لينام ويرتاح من قلق البارحة.

يومٌ يتبعه آخر، وجميل صفات عبد الباقي أفندي الحانية تتكشَّف لوداد، حتى إذا جاء وقت اللعب انقلب إلى ذلك الفاحِشِ البذيء الذي بقدرِ ما جَرَحَها أشبعها، حتى أنها بدأت تألَفُ الأمر، وتنتظره وتُردِّده مثل ببغاء حديث العهد بالكلام، يزداد تَعلُّق الرجل بأنثاه، لدرجة أنها باتت تخشى عليه من شِدَّة رغبته فيها، عبد الباقي لا يَنفَكُّ عن الاهتزاز كبندول ساعة يضرب بقوة، لا شيء يصرفه عمَّا يريد، لا استغاثة وداد ولا تَوسُّلاتها كي يخفض صوته خشيَةَ أن تسمعه أُمُّه، ولا حتى التعب الذي يصيب بعض الرجال، إذا فاقت الرَّغبَةُ القُدرَة، في قرارة نفسها كانت سعيدةً بما يفعل، بلا مبالاته بأي شيء عداها!

ثم كان اليوم الأول الذي عاد فيه عبد الباقي إلى العمل مُجدَّدًا، عشرة أيام كاملة قضاها مع وداد، ليأتي ذلك اليوم فتضطرُّ إلى توديعه وتجلس لتنتظره حتى يعود، تطبخ مع حماتها الست فوزية لتذيقه من حلاوة طبخها، وتتخيَّل ما سوف يقوله لها عندما يتناول أول لقمة من الملوخية ذات العِرق المضبوط، تحلم بلقائهما القادم وكيف سيكون مشتاقًا ملتاعًا، تتطيَّب بما يحب من طيبٍ، وترتدي ما يُفضِّل من الألوان.

وعاد إليها عبد الباقي، محمولًا على أعناق زينة شباب السيدة!

عاد جُثَّةً يحمل صُرَّةً هائلة من الصَّمتِ الثَّقيل الأَبَديِّ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(12)

ربيتيكو([14]) للغَرَق والنَّجاة

بعد شهور من زواج العروسين، استقرَّا بـ□يلَّا بشارع شريف باشا، صَمَّمها وأشرف على بنائها المهندس المعماري الإيطالي أنطونيو لاشياك، أصرَّت كيكي أن يكون التصميم مزيجًا بين المعمار البطلمي وبين نظيره الإسلامي، بما يحمل من تعريجاتٍ ونقوش وزخارف إسلامية على غرار المساجد. في الوقت الذي كانت الإسكندرية تزخر بكل ما يُذكِّر الأروام بهيلادا: البنايات الممتدَّة وأبوابها الخشبية والشرفات الزُّرق، السلالم العتيقة، الهواء، البحر، ومع ذلك لا تزال كيكي تفكِّر في أمر الرجل الذي أنقذ حياتها في يوم الفتنة المشؤوم، وتتمنَّى لو أنها عرفت طريق أسرته؛ لتعويضها بأي شكل... على مدار عام كامل، باتت تلك الحكاية الحزينة هي الشيء الوحيد الذي يعكِّر صَفوَ السعادة التي تعيشها أنجليكيً مع زوجها، تشعر بذنب كبير كلما ضحكت أو أكلت أو استمتعت برؤية حديقتها ذات الزهور الوليدة، سرعان ما يلوح لها شبح الرجل بجلبابه وعصابة رأسه ووجهه الحزين شديد النحول، قائلًا: "أنتُنَّ في رقبتي"؛ فتدمع على الفور. أفرز هذا الحزن العميق الكثيرَ من طيبة القلب والشفقة تجاه الفقراء، كانت كيكي تبحث عن المحتاجين في أيام الآحاد، توزِّع ملابس وأغطية في الشتاء القارس، وتولي اهتمامًا خاصًّا للمصريين الساكنين بالأحياء الفقيرة، في كل مرَّة، باتت تتخيَّل أنها تساعد أهلَ الرَّجُل الشجاع... وكان في ذلك تَسرِيَةٌ كبيرة لها.

حتى جاءت ابنتها إيكاترينا إلى الدنيا، تَبَدَّد الحُزنُ شيئًا فشيئًا، فرح تيوخاري بالمولودة فرحًا غامرًا لا يُناسِبُ أبًا يونانيًّا يَسوَدُّ وَجهُه عندما يُرزق بابنة... تَزامَن الحادث السعيد مع قدوم بوليخروني إلى الإسكندرية، كان لقاءً حميمًا جدًّا، لقاء أخوَيْن ظَنَّا أنه لن يرى أحدهما الآخر بعد كل ما حدث، حمل بولي إيكاترينا مُداعِبًا إيَّاها قائلًا:

- أوه يا أخي تيوخاري الحبيب، قطعة منكَ تتنفَّس بين يَدَيَّ! أي حلمٍ عذب هذا؟

- العُقبى لك يا أخي الحبيب! كم اشتقتُ إليك، كأني بأبي وأمي قد حضرا معكَ!

عندما رأى تيوخاري أخاه، استحضر في عينيه ذكريات الرِّحلة، هواجس الغُربَة والبدء والخوف من الفشل والعودة صفر اليَدَيْن، إلَّا أن وجود تيوخاري نفسه كان أكبر عَزاء لأخيه، كان مطمئنًّا بطريقةٍ أو بأُخرى...

لكن تيوخاري لم يرد إيصال هذا الشعور لبولي، تحدَّث معه بكل صراحة عن ضرورة أن يبدأ من الصفر، وألَّا يعتمد على أحد، كانت كلماته صادِمَةً لبوليخروني بشكلٍ ما، ولكنه كان سعيدًا فعلًا عندما حضر تعميد إيكاترينا في الكنيسة، ولم يُفكِّر فيما قاله أخوه قَطُّ، كان سعيدًا فعلًا وهو يستأجر غرفةً بفندق مدام إيزابيل؛ لشعوره بالحُرِّيَّة لأول مرة منذ ترك كاريستو، هذا لم يمنعه من الشرود في الأمر عندما جلس يشرب وحيدًا متأمِّلًا البحر: هل فعلًا عليه أن يبدأ بمفرده تمامًا دون الائتناس بثروة

أخيه؟ بولي مُحِبٌّ للحياة، ضاحك على الدوام، يعشق النساء ويحب الشراب، ليس في جدِّيَّة تيوخاري، ولا طموحه، ولكنه كان موقنًا من أنه لن يَعدَمَ الطريقة التي تجعل منه غنيًّا.

في غضون أسابيعَ من وصول الأخ بوليخروني، عادت الإسكندرية إلى حالة الرعب والذعر، هذه المرَّة ليس بسبب القذائف الإنجليزية أو نيران العسكر والعُربان، ولكن مِن جرَّاء نُموٍّ وتَكاثُر جرثومة مُتناهِيَة الصِّغَر، أَلِفَت أهلَ مصر، فعادت تَنهَشُ بطونهم الجائِعَة: الكوليرا مُجدَّدًا، والتي ربما تَرَعرَعَت في أحشاء جنديٍّ من بلاد الهند، أتى مرغومًا على متن سفينة إنجليزية من أسطول جلالتها إلى أرض مصر.

بات الوباء يحصد المئات دون تمييز، ميزان الحياة يَختَلُّ، أو تراه ينضبط بحسب فكر النُّخبَة التي حسبت نفسها بعيدةً كُلَّ البُعد عن الوباء بابتعادها عن الفلاحين الفقراء، الذين لا يهم موتهم بالطبع، ولكن -بعكس ما تصوَّروا- أصبحوا فريسةً سائِغَةً للكوليرا أيضًا...

أضحى تيوخاري مرتبكًا، سيء المزاج للغاية، أصرَّ على منعِ كيكي من الخروج بإيكاترينا حتى للكنيسة، مُشدِّدًا على ذلك، حتى لو كَلَّفَه الأمر أن يبقى معهما ليلَ نهارَ ولا يذهب للعمل إلَّا للضرورة القصوى، بدأ يفطن إلى أهمية وجود أخيه بوليخروني بجواره، كان في احتياجٍ حقيقي لوجوده، ولو حتى كان بلا قيمةٍ مادِّيَّة تُدرَك، وجود بولي مع تيوخاري لا يساوي الكثير منَ المال، ولكن بالطبع يساوي الكثير من الطمأنينة، صار مُجبَرًا على الاستعانة به في أعمال التوريد، بالفعل كان في حاجة لشخص يَثِقُ به، قد يموت من أجله لو لزم الأمر، اللعنة على الكوليرا التي أفسدت خطة تيوخاري لتربية أخيه، لتعليمه من أمر البدايات، التي لم تكن سَهلَةً قَطُّ.

فوجئ تيوخاري بأداء بولي، كان مبهورًا بأسلوبه وطريقته في إنهاء الأعمال، نشيط، متَّقِد الذِّهن، لديه ذاكرة ممتازة لأسماء الأشخاص والأهم من أسمائهم أرقام ديونهم، تعلَّم العربيَّة بسرعة مُذهِلَة، يحبُّه المصريون والطليان والسويسريُّون، بل واستلطفه الإنجليز، فحوَّل تيوخاري جميعَ مُعامَلاته معهم إلى بولي.

إن كانت كيكي لا تستطيع نسيان فضل الفلاح المصري عليها وموته فداءً لها ولصديقاتها أثناء المذبحة، فإن تيوخاري لم ينسَ ما فعله الإنجليز به وبِعَمِّه، وببلدٍ بأكملها، ستظلُّ تلك الأيام في ذاكرته رغمًا عنه، خلف الابتسامة الزائفة التي يظهرها للماچور الموكَّل بجمع الإتاوات من الشركات التجارية. يحاول مرارًا أن يكون مضيافًا، يُمرِّن عضلات وجهه في المرآة على الضحك، مُبرِّرًا لنفسه أن الثروة التي كسبها كانت نتيجةً مباشِرَة لقصف الإنجليز للإسكندرية، وإلَّا كيف كان سيجمع كل هذا المال من المسافرين عبر البحر؟ ثم يفشل في ذلك بمجرَّد رؤية الماچور وعينه التي تتطلَّع إلى خزينته في المكتب!

وفَّر بوليخروني على أخيه هذا اللقاءَ الثقيل، وكسبِ أصدقاءً عِدَّة من ذوي النفوذ، داخل وخارج الإسكندرية، بات أخوه يتأمَّلُه، وهو يعرج نحو سُلَّم النجاح والتَّحقُّق، حتى في أحلك الظروف، وطائف الكوليرا المميت يطوف بالبشر، يقف كالجبلَ الشامخ وسط العُمَّال والشَّغِّيلة، يضحك معهم، يصافح العُمَلاء بثباتٍ وحرارة، بات أ□يروف يغمز لكوزيكا مجدَّدًا، مُشجِّعًا إياه على المضيِّ قُدُمًا مثل بولي، ولكن كان ينظر إلى إيكاترينا وأمها فيتراجع، يكتشف أن لديه ما هو أثمن من الثروة

ليحرص عليه، الخوف الذي ظل كامنًا بداخله طول السنوات خرج من مَكمَنِه دَفعَة واحدة، وأنبت له مكابح!

في غمار الأحداث الجسام، وصل الأخوَيْن خَبَرُ وفاة الأب تيودور، سافَرَا بصحبة كيكي وإيكاترينا والعم يانِّي وزوجته، لم يتمكَّنوا من حضور الجنازة، ارتمى الأخوان في أحضان والدتهما وانهمرت دموعهما حُزنًا وشوقًا، أعطتهما الشَّارَتَيْن السودواين التي حاكتها لهما بيديها، أقاما عزاءً يونانيًّا خالصًا، تقدَّم فيه القهوة، ويُبذَل الدمع، قابلت الأم كيكي وحفيدتها لأول مرة، أحبَّتهما كثيرًا، وظلَّت تلعب مع إيكاترينا، كأنها تحاول أخذ فسحة من البكاء والألم والتفكير في الوحدة بعد فقدان وليفها. ظلَّت تحكي عن الزوج الذي لم تُصدِّق بَعدُ أنه صار في عداد الأموات، حكت عن مرضه الذي أقعده وجعله أكثر حكمةً:

- أتعرفون ما الذي يحدث للحُكَماء عندما يمرضون؟ إنهم ينضحون حكمةً من كل اتجاه كسفينة مخروقة، ينتهي بها الأمر إلى الغرق على أيَّة حال، ولكن بكرامَةٍ، دون أن يأخذها أحدٌ غصبًا. لقد مات أبوكما غرقًا، تعرَّقَ بِشِدَّة، انتفخ جسده بالماء، ظلَّ يزحف ماؤه إلى أعلى حتى تمكَّن من أنفاسه، لم يصارع تيودور أمواجًا ولم يتوسَّل أحدًا ليعيد إليه حياته، بل فارق ساكنًا صامتًا إلَّا من نظرات الوداع التي شملني بها، خُيِّل إليَّ بعد دفنه أن سريره مبتلٌّ بالماء!

حاول تيوخاري وبولي إقناعها بالعودة معهما للعيش في الإسكندرية، ولكنها رفضت، أرادت أن تبقى بجوار قبر زوجها، ووسط ذكرياتها التي لن تقدر على تركها هنا وتمضي ببساطة إلى بلدٍ آخر لا تعرفه. قضى الأخوان آخر ليلة بكاريستو في حانة توماس، تملأ موسيقى ربيتيكو المكان، يجلس أعضاء الفرقة مُتراصِّين جنبًا إلى جنب، تلتفُّ الساق بالساق، في نظام لطيف تحبُّ العَينُ أن تراه وتألفه، تتداخَلُ الأصوات العَذبَة مع نغمات الأوتار مع روائح الخمور ودُخان الحشيش، ينهض بولي ليرقص بمُفرَدِه، يلفُّ جسده ويدور ببطء على النغمات الحزينة، ينطلق رُوَّادُ الحانة ليرقصوا جميعًا وتيوخاري يرقب من مكانِه دامِعًا، لا يعرف متى سوف يأتي هنا مُجدَّدًا وكيف سيترك أُمَّه وحيدةً هكذا في وطنٍ لا يهدأ!

بينما التقط بولي عينَيْ عازِفَةِ رِقٍّ شديدة الجمال، أشار لها لتَتبَعَه خارجًا، فابتسمت وتركت التمبورين بمفرده فوق المقعد الخشبي، غير مكترثة لأمر الفرقة، جذبها نحو الظُّلمَة بعيدًا عن جلبة حانة توماس، أسندها إلى جدار وقبَّلها بملء فمه، استكانت له في خضوع، وتركته ينزع عنها ملابسها حتى صارت عاريَةَ الصَّدر، فصار يبرق أمام عينيه من شِدَّة بَياضه. لَكَم اشتاق بولي إلى أجساد بنات هيلاس على أرض هيلاس، رفع إحدى ساقَيْها وأفرغ شَهوَتَه بداخلها، ابتلَعَت موسيقى الربيتيكو العالية آهاتهما، ما السِّرُّ فيكِ يا هيلادا؟ لماذا لا يكون الحبُّ حُبًّا إلَّا على أرضك؟ لماذا لا نجد أنفسنا بكل هذا الشَّبق للحياة سوى تحت سمائك القاسية؟!

في اليوم التالي رحلوا جميعًا، شاعرين بأنه قد يكون وداعًا أخيرًا، بينما آثرت الأُمُّ أن تُودِّعَهم كأنما ستراهم غدًا بمنديل كوزيكا الذي يحمل اسمه.

مرَّت أيَّامُ الوباء مُخلِّفَةً أجسادًا هزيلة خائفة، فوق الأرض، وآلافًا من جُثَث الفقراء تحت الأرض، غير أن عجلة الحياة كان لا بُدَّ لها من الاستمرار، فبدأ تيوخاري يستعيد حضوره، ويُعزِّز وجود بولي

أكثر، كانت شركة التوريد التي أسَّسها تيوخاري تَحقق مكاسب جيدة، ولكن ظل هناك شيء ما مفقودًا، لا يُشبع طموح فتى كاريستو، سيطر عليه هذا الشعور وجعله في الأغلب صامتًا شارد الذهن لا يعطي اهتمامًا كافيًا لأسرته، كان مؤلمًا لأنچليكي أن تراقب انطفاء جذوة الشوق في قلبه، وتُخرِج خطاباته وتعيد قراءتها مرَّاتٍ ومرَّاتٍ، تضمُّ إيكاترينا وتتذكَّر لقاءات الحب المفعَمَة بالجنون، والتي باتت فاتِرَةً لا لونَ لها ولا رائحة، في الوقت نفسه لم يضيِّع بولي أدنى فرصة للمُتعَة واللهو، كان محبوبًا من النساء، ولم يغلق قَطُّ بابًا فتحته امرأةٌ وقالت هَيتَ لكَ، لطالما انتقد تيوخاري أسلوبَ حياته، واتَّهمه مرَّاتٍ بالإسراف في كل شيء، حتى في الشراب، ولكن في كل مرة كان ينجز فيها بولي مَهمَّةً بنجاح يصمت تيوخاري مُتعجِّبًا من هذا الولد ويضحك ساخرًا ويقول:

- لا أعرف كيف تستيقظ من النوم أصلًا، في كل مرَّةٍ أُبلِغُكَ بموعد أنتظر أن يتَّصِلَ بي العميل ويقول: لم يأتِ بولي... انتظرته لساعات! لأني أعرفك جيِّدًا عندما تسهر وتشرب.

- أنت ظالم مسيو كوزيكا! لم تحدث سوى مَرَّةٍ واحدة طوال عشر سنوات!

- ستضيِّع عُمرَكَ في اللهو! متى تتزوَّج يا بولي؟ ألا تريد ذلك؟

- بلى أريد، ولكن ما زلتُ فقيرًا لأكوِّنَ أُسرَة!

- أضحكتني! فقير؟ لديك بيتٌ جميل بالقرب منَّا، وتكسب أموالًا طائلة من جَرَّاء عملك، ألم تَدَّخِر شيئًا منها؟

- بالطبع بالطبع! ولكن أقصد أني أطمح فيما هو أكثر من ذلك!

- هذا الارتباك يُرعِبُني! إن لم تستطع ادِّخار مالٍ خلال عشر سنوات يا بولي متى سيكون بمقدروك فِعلُ ذلك؟ أنت شاذٌّ عن سِربِ هيلاس، لا يوجد يوناني مُسرِفٌ مثلك!

بالفعل كان بولي شديد الاختلاف، حتى عندما قرَّر أن يتزوج اختار عروسًا فرنسية تُدعى "سيبيل"، استعصت عليه ولم تُعِره اهتمامًا كبيرًا في البداية، وصل الأمر إلى إذلاله في بعض الأحيان، كلما طلبها للرقص رفَضَت، وتعامَلَت معه بفَوقِيَّةٍ واستعلاء، فرغب فيها أكثرَ، ثم عزم على الارتباط بها، وافقت بعد شهورٍ من مواظبَتِه على إرساله الزهور والهدايا إلى بيتها في ريو دي روزيت([15])، اعترفت له بحُبِّها من اللحظة الأولى، ولكنها سمعت عن مغامراته مع الفتيات، فلم ترد تسليمَ قلبها له قبل التأكُّد من صدق نواياه. شعر بولي بالزهو وقال لها مُمازِحًا:

- وهل أنتِ متأكِّدة الآن؟

- الشَّكُّ ليس وضعًا مُريحًا، ولكن اليقين سُخفٌ كما يقول ڤولتير!

وتزوَّجا في غضون أيام من وفاة الخديو توفيق بعد احتفالات عيد الميلاد، وبرغم معارضة تيوخاري، فلماذا يترك كل فتيات اليونان الأرثوذوكس ذوات الحسب والنسب والثروة، بنات العائلات الكبرى، ويتزوَّج من سيبيل الفرنسية الكاثوليكية؟ الفتاة التي تنتمي لأسرة أجنبية متوسِّطة لا ناقة لها ولا جمل في عالم ال- "إيبخريسي" أو البيزنس!

تحدّثت كيكي مع تيوخاري، وحاوَلت إقناعه بزيجة بولي، وكيف أن الحب هو الذي جمع بينهما، فلا يجب أن يفرقهما إنسان، عرف تيوخاري أن بولي لن ينثني عن زواجه من سيبيل، هو يدرك جيدًا مدى عناده، وفي قرارة نفسه هو سعيد أن لبولي هذه الطبيعة الاستثنائية المتمرِّدة، وأثار ذلك الإعجاب في نفسه حزنًا عميقًا على حاله، كيف أصبح جبانًا، مُكبَّلًا بأغلال الثروة التي يخشى أن تضيع أو تنقص؟

كانت سيبيل في عُرسِها أشبَهَ بتفَّاحة فوَّاحة العطر، راسخة في العيون، جليَّة الحُسن لأصحاب البصائر، خفيفة الروح، تحبُّ بوليخروني فعلًا، نعم سترافقه طيلةَ حياتها، تبتلع نظرات الحاسِدات اللائمات، وتغفر اللَّومَ والكراهية، مُردِّدةً في نفسها: أنا لحبيبي وإليَّ اشتياقه، تفسح طريقًا لأصحاب الوداد القليلين، لم تُلقِ بالًا لشروط الكنيسة الأرثوذوكسية اليونانية لقبول الزواج من كاثوليكية، وافَقَت بكبرياء رحيم، ووفَّرَت على بوليخروني مُهادَناتٍ وتوَسُّلات ومحاولات مُؤكَّدٌ سوف تبوء بالفشل لإقناع عائلته بزواجهما في الكنيسة الكاثوليكية. كانت سيبيل دُرَّةً حقيقية، عازفَةً ماهِرَةً على البيانو، ذات صوتٍ ساحر لا يُقاوَم، تعشق قراءة الشِّعر، وتُعامِل الكتاب المقدَّسَ مُعامَلَةَ النَّصِّ الأدبي، كانت تحفظه عن إعجابٍ ومَحبَّةٍ وفَهم عميق... أدرَكَت مُسبَقًا ماذا يعني أن تتزوَّج من رجلٍ يحب النساء، وقد بذلت قصارى جهدها كي تَجتذب بولي إلى عالمها فلا ينفذ منه إلَّا بمقدار، أنجبا طفلهما الأول وأسماه بولي على اسم أبيه: تيودور... ومنذ أن نظر الأب إلى ابنه، تغيَّر عالمه بالكُلِّيَّة، عرف الحب الخالص المنزَّه من كل غرض طريقًا إلى قلب العربيد بولي، أكسبته الأبوَّةُ بعض الجدِّيَّة والدأب والتَّطلُّع والطموح. خالَطَت تلك الخصال شِيَمًا أخرى أصيلةً فيه، كالطيبة وخِفَّة الظِّلِّ والحضور الطاغي؛ فكوَّنَت جميعها شخصًا يَصِفُه الجميع بأنه رائع! حتى تيوخاري نفسه، لم يَمرَّ يومٌ عليه دون أن يَمتنَّ لوجود شريك عَمَلٍ وأخ أمين يُعتَمَد عليه مثل بوليخروني. إنما لم تَنَل الأبوَّةُ من روحه المغامرة المتمرِّدة. لم يستطع تيوخاري إنكارَ غَيرَتِه من أخيه، على الأقل أمام نفسه؛ لأنه صار أبًا لتيودور، إيكاترينا هي قلبُه لا ريب، ولكن تمنَّى لو أنه رُزِقَ بابنٍ يكون عَونَه في رحلة العمر، تمنَّت كيكي الأمرَ نفسه، وترَدَّدَت على الأطباء عَلَّها تستشفي لوَ أنها مريضة بالفعل... اكتشفت كيكي أيضًا أنها مريضةٌ بداء الغيرة من سيبيل، بقدر إعجابها بجمالها وجوهرها وصبرها على بولي، ولكنها كانت تغار منها، إلى الحد الذي جعلها تتجنَّب زيارتها وتُعامِلُها بجفاءٍ، يدفعها إلى الندم والبكاء فيما بعد. كانت مأساة أنجليكي الحقيقية هي تَغَيُّر تيوخاري عنها، وعدم قدرتها على استيعاب طموحه الجامح، ولم يكن تيوخاري يحاول أن يُطَمئِنَها، ظل يتجاهل الأمر ويتركه بلا معالجة أو أدنى محاولة لذلك.

لأعوام، عمل الأخوان بجدٍّ، يتحرَّيان مكانًا مرموقًا بين التُّجَّار الكبار في الإسكندرية، عرف كلٌّ منهما نقاطَ القوة التي يرتكز عليها لينجز عمله، تيوخاري البارع في التخطيط، في خلق الأفكار، وضع سياسات الشركة وتحديد الأهداف التي يجب تحقيقها، أمَّا بوليخروني فكان مَن يتعامل مع العملاء، ينفذ ما يطلبه الأخ الكبير بدقَّة، ولكن على طريقته الخاصة، هو المُفاوِضُ بحديثه المُقنِع مرَّةً بالهدايا، والرشاوى مرَّات، لم يكن يتخيَّل أي منهما أنهما سيحصلان على صفقة العمر، التجارة التي ستأخذهما إلى مستوى آخر من الغنى والثروة!

استطاع بولي أن ينتزع موافقة القائد كتشنر على تزويد الحملة الأنجلو مصرية على السودان بما تحتاجه من مُؤَنٍ لفترةٍ لا أحد يعلم متى تنقضي، فقد عزم هربرت كتشنر على أنه لن يبرح السودان قبل أن يهزم المتمرِّدين لتتخلَّص بريطانيا العظمى من الحركة المَهديَّة وخليفتها الذي يُدعَى ب- "التعايشي"، والذي خَلَفَ المهدي بعد موته. وبالفعل على مدار عام وأكثر استطاع الأخوان كوزيكا أن يَمُدَّا الجيش البريطاني بما يلزمه، ربما لم تكن البضاعة التيً تُورَّد إلى الحملة جديدة على الأخوين، لقد تاجرا بكل شيء من قبل، حتى السلاح، ولكن لم يشتغلا بتجارة الرقيق قط! ربما لم يعلم الأخوان أن المهدي ورجاله قد ضَمُّوا إليهم نساءً ورجالًا وأطفالًا كُثرًا، باعتبارهم عبيدًا لهم، لم يَعلَمَا الكثير عن الفظائع التي ارتُكِبَت في حق أهل السودان، ولم تكن بالطبع بريطانيا تبحث عن خلاصٍ لهم من قبضة مجموعة فقدت صوابها تمامًا، وهَيمَنَت على عقول الناس قبل أجسادهم، ولكن كان الأمر سياسةً فحسب، ورغبةً في إرضاخ قُطرٍ آخر تحت لواء الدولة العظمى المُهَيمِنَة على الشرق..ولكن ما يعلمه الأخوان كوزيكا وتعلَّماه جيدًا أن التجارة لا قلب لها ولا دين ولا وطن، حتى امتعاض المسيو كوزيكا من معاملة الإنجليز تلاشى مع الوقت، وقَضَت عليه عقودُ التسليم والمصلحة والأرباح الوفيرة، كان الجديد في تلك الصفقة الوفرة والضخامة، إمداد الجيش بكميات هائلة من الأطعمة والأشربة، خاصَّةً من المشروبات الروحية، الجندي الإنجليزي لا يقدر على حربٍ بدون لحم وجِعَة، لم يتأخَّر الأخوان عن شحن ما يلزم للقائد ورجاله من بلد المنشأ في انجلترا، ثم إلى البحر، ثم إلى النيل...

وحدث كل ما خَطَّط له السَّاسةُ بنجاح، وسقطت الحركة المهدية، وانضمَّ السودان لقائمة البلاد التي تسيطر عليها بريطانيا العظمى، الكيان الذي ينمو على الثغرات، وكبائر أرباب السلطة في العالم القَصِيِّ، وعلى الضَّعف والفاقة والجهل.

وكما تَحقَّق للسَّاسة والملوك أهدافهم، تَحقَّق للتُّجَّار أَمَلُهم في ازدياد ما يجمعون، لم يُخطِئ العَمُّ يانِّي عندما قال إن الوُسَطاء هم الآلهة الجُدُد.كان تيوخاري بعيدَ النظر، ظلَّ شاردًا حتى في ذروة الاحتفال بمكاسب الصَّفقة الأخيرة كما أراد بولي، ينظر إلى الجَمع في إشفاقٍ، كمَن يطَّلِع على المستقبل، يرثي لحال الذين يضحكون؛ فقد كان تيوخاري متأكِّدًا من تضييق الإنجليز القادم بعدما تمَّ لهم ما أرادوا، وخاصَّةً فيما يتعلَّق بحركة المِلاحة، وكيف أنهم سيفرضون ضرائِبَ باهِظَةً على كل ما يستوردونه من الخارج، الذي هو في غالبية الأحوال "الداخل" بالنسبة لبريطانيا، لم يَعُد بحر الروم -كما باتوا يُسمُّونه- للأروام، لم يعودوا هم ملوك الماء، لا بُدَّ من تغيير نشاط كوزيكا وتحويل الأعمال لطريق آخر ليس للإنجليز كل هذه السُّلطة المخيفة عليه.

كان العم ياني هو الوحيد الذي يشعر بما يختلج في نفس تيوخاري، أَسَرَّ له صراحةً بما يحاذر، وأيَّدَه بشدَّة، وأخذ يتندَّر على الأيام الخوالي:

- كُنَّا أولاد القطن المصري، وكان الطَّليان أولادَ الحرير، لكلٍّ صنعته وهجرته.

- نعم يا عَمَّاه، ولكن انظُرْ إلينا الآن، لقد كبرنا، وتكاثرنا، وغَزَونا البلادَ غَزوًا، حتى أنك لو تَعثَّرتَ بحَجَر في الإسكندرية لوجدتَ تحته يونانيًّا، أليس هذا ما يقولون؟

- بلى، ولكنّك لم تلقَ المهاجرين الأوائل، الذين رسوا مبكرًا فحصدوا الخير كله قبل الجميع: الأراضي الخُضر، الأموال الوفيرة التي باتت تأتي إليهم دون جهد يذكر، حتى الآثار الفرعونية والبرديات، كل ذلك جَعَلَهم أصحابَ كلمة مسموعة وسط أقرانهم من الفرنسيين والإنجليز والبلچيكيين والطَّليان وغيرهم، حَرَّروا العبيد اليونانيين من أيدي العثمانيين، وأرسلوهم إلى اليونان، أسَّسوا أوَّلَ مدرسة وأوَّلَ كنيسة وأوَّل مستشفى يوناني، أعطوا حياةً جديدة لمن هاجروا من بعدهم، ولكنهم بلا شَكٍّ كسبوا أكثر بكثير.

- لديك كل الحَقِّ يا عَمَّاه، لا بُدَّ من استكمال تلك المسيرة، من الضروري أن نُؤسِّس لعلاقةٍ وثيقة أبَدِيَّة مع إخواننا اليونانيين هنا وهناك في هيلاس، سأدفع ببوليخروني ليقوم بلعبته المفضَّلة: بناء علاقات، كسب ثِقات، الحصول على مناصب مرموقة، الدخول في شَراكَةٍ مع آلهة الإسكندرية، لقد ألهمتني بحديثك.

هل يبني مصنعًا للمنسوجات القُطنيَّة؟

هل يُصنِّع النبيذ أم البيرة؟ أم تراه يستورد خاماتٍ لتصنيع ورق البَفْرة؟

للبيرة صُنَّاعُها، البلچيكي ألبرت هندركس بدأ الرحلة مُبكِّرًا، بنى في الإبراهيمية مصنع بيرة "التاج"...

الفكرة لم تَكُن جديدةً تمامًا على الخواجة، بل بدأ يُفكِّر منذ بدأ بتوريد الخمور إلى الإنجليز في السودان، في كل مرَّةٍ تَصِلُ فيها شَحنَةٌ جديدة إلى المعسكر تتنفَّس الصعداء، البحر بمخاطره وأهواله لم يكن وسيلةً آمِنَةً لنقل البضائع في كل مرة.

ماذا لو صُنِعَت هذه الخمور بمصر؟! وكم سيوفر هذا الأمرُ على الخواجة خساراتٍ ومُجازَفات! كم سَيُدِرُّ أرباحًا لا حَدَّ لها!

فكَّر في الكحول، تلك المادة العجيبة، المادة الخام للغياب، آلة الهروب والنسيان، الكحول السائل الذي تتطاير معه الهموم في الحانات، وتخشاه الأمراض في المستشفيات، قِوامُ الخمر والبيرة، ومُطهِّر الجروح والأحزان!

هل هناك ما هو أَثمَنُ من هذا الكَنز؟

ولكن أين يقيم مصنعه الجديد؟ ولِمَ لا يختار مكانًا بِكرًا بعيدًا عن المنافسة الشَّرِسَة التي تدور في الإسكندرية بين الكِبار، وبمنأى عن عيون الإنجليز ولو لبعض الوقت؟

هل سيوافقه بولي على تلك المجازفة؟

بالطبع سيوافق المغامِرُ المُقامِرُ بولي بكلِّ سرور!

في تلك اللحظة التي تنزَّلَت فيها الأفكارُ الجديدة كالوحي على تيوخاري، كان في انتظار إشارة بدء من مُلهِمِه أ□يروف، لم تأتِ، فقرَّر أن يزوره للمرَّةِ الأولى بعد كل تلك السنوات، مُحمَّلًا بأمله الكبير لخَلق عالمه الخاص، ولكن في اليوم التالي سبقه إليه الضيف الثقيل ولم يغادر إلَّا بصُحبَة روح

چورچيو أ□يروف، آخر ما أنجب جبل الأولمب من أساطين التجارة في عصر ذهبيٍّ لن يعود، ليبدأ عصرٌ جديد مع مبتدأ قرن جديد له قوانينه وآلهته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(13)
ميتة كُبرَى وإمالَةٌ صُغرَى

مات رجلٌ عجيب، فارع الطول، يشبه حاجبَه القصير حيث بدايته ليست كنهايته، الحاجب ذو البداية المستديرة والنهاية المقتَضَبة، البداية الكثيفة الغَنيَّة والنهاية الفارغة المفاجئة.

فاحت من روحه رائحة أخيرة ومَلَك الموت قابض عليها، ليست شائِعةً بين بَني البشر، ولكنها تُنعِش الملَك، وتجعل عمله أسهلَ وأخفَّ، رائحة رضا. فالأرواح الساخطة الجائعة ثقيلةٌ يصعب حَملُها؛ لِما لها من جذور في دار الفَناء يصعب اقتلاعها، أمَّا الأرواح الراضية تجذبها من أعلى فروعُ شجرة سماوية رواها النور الإلهي، وأزهرها الصبر على المكاره، وطيَّبها الودُّ والرَّأفة.

مات عبد الباقي، قبل أن يتحوَّل إلى زوجٍ مُزعِج، أو أخرس، قبل أن يملَّ وداد ويتشاجَرَا على زرِّ قميصٍ أو فردة جورب، قبل أن يشمَّ رائحة امرأة أخرى أكثر إغراءً من بيرة أبيها العالِقَة بروحها، قبل أن يشهد خناقة لرَبِّ السماء بين أمِّه ووداد، وقبل أن تحمل زوجته بولَدٍ من صُلبه وتُرهِقه بالوَحَم والدَّلَع والفاكهة في غير أوانها، وقبل أن يشكو ضيق الحال ويلعن الخلفة واللِّي بيخلِّفوها، مات بعد أن ظفر بحلاوةٍ خالِصَة دون أدنى مَزازة، أو مرارة، حصل على الثمرة في ميقاتها المضبوط، وضمن عبد الباقي أن يظلَّ باقيًا بألَّا يُنسى أو يتحوَّل قلبُها عنه، مات مبكِّرًا مثل نُكتَةٍ أطلقها القدر تسخر من طول قامته التي لا تتناسب مع عمره، أو مثل ثورة انتهت عند الحناجر وأُجهِضَت في مَهدِها الأول، مات وبقايا حِنّاء العرس ما زالت عالِقَةً بيَدَيْه.

غابت الابتسامة التي تَجبُر الخاطر!

- آخرِ شُغلَك الوِسِخ!

كلهم تلك المرة أعلنوها في وجهه، لبعضهم البعض في عزاء الرجل المسكين الذي توقَّف قلبه فجأة بدون مُقدِّمات، قالوا سوف تلاحِق هذه العائِلَةَ لَعنَةُ المال الحرام إلى الأبد، متى يتوقَّف هذا المتبجِّح قاسي القلب عن الإضرار بأسرته؟ وما ذنب هذه الفتاة وقد ترمَّلَت مُبكِّرًا جدًّا؟ وما ذنب الست فوزية التي لا عائِلَ لها سواه؟

عندما يغيب المنطق عن كارثة، يضطر المرء إلى البحث عن مبرِّر يُخفِّف وطأتها، وكان المبرِّر في كل مرَّةٍ حاضرًا وجاهزًا، وذَكَر النَّخلة يوشك على الوقوع وقد أعمل الجميع أسلحتهم فيه، تجريح جماعيٌّ لِذَكَر النخلة، لم يتبقَّ سوى الاستسلام بالصمت، ولو بالإيحاء ببعض الندم والوعد بمراجعة النفس حيالَ مِهنَتِه التي لا يُتقِن سواها!

الحديث عن الحزن في هذه الحالة قد نسمِّيه حديثًا مبتَذَلًا مُستَهلَكًا، وخاصَّةً في تاريخ هذه العائلة التي أصبح الموت ضيفًا مألوفًا عليها، يا للسخرية! ترفض وداد تصديق ما حدث، وتتشبَّث بأمل أن تصير حاملًا من عبد الباقي أفندي، باتت تتحدَّث بما تُفكِّر به بصوتٍ عالٍ، حتمًا ستصير حامِلًا، كم مرَّةً جرى ماؤه بداخلها؟ أربع... ثماني... اثنتا عشرة، عشرات المرَّات في عشرة أيام! حتمًا سيحدث ذلك،

تلتفت إلى شوقة وتسألها: ماذا لو قلنا إن هذا قد حدث عشرين مرَّة؟ هل هو كافٍ؟ ولكنها تؤكد أنه أكثر من ذلك بكثير! حتى أنه في آخر ليلة ظلَّ مُتشبِّثًا بها لا يريد أن يقوم عنها حتى بعد ارتياحه، ظلَّ عُضوُه عالقًا بالداخل قرابة الربع ساعة، مثل ذَكَرِ الكلب الذي يلتصق بأنثاه، كانت تصرخ بأعلى الصوت، تسبُّ روحها على طريقته المفضَّلة، تُلجِم صابرة فمها بِكَفِّها، لا تكفُّ عن الكلام، لم تفعل شيئًا يضايقه، لم تعترض أبدًا، هل هو الامتعاض الخفيُّ؟ هل كان يشعر بها لهذه الدرجة؟ تحلم به كل ليلةٍ بحاجِبَيْن طويلين مسحوبين إلى أعلى كحاجِبَيْ عفريتٍ من الجِنِّ، ألهذا يعيش الجِنُّ طويلًا؟ تطلب منه العودة، ولسوف تمنحه كلَّ القبول الذي يحلم به، سوف لن تكفَّ عن السباب البذيء، ولن تخجل مجدَّدًا، وستبدأ به، لن تتوقَّف أبدًا عن سَبِّه على ما فعله بها! عبد الباقي على حقٍّ:

تلك الأيام لا يمكن أن تمرَّ إلا هكذا!

ولكن عندما احمرَّت ثمرة البرتقال، وانبجس الدم بغزارة منها في تحدٍّ صمتت وداد، كفَّت عن الكلام، وتوقَّفَت أنثى الكلب عن نُباحها بعدما ترَجَّل عنها ذَكَرُها، ليس ماؤه ما تبقَّى منه فيها، ولكنها الحسرة المُقيمة، اللا منطق، اليأس. حملت صُرَّةَ الصَّمت عن زوجها، وبدأت تفهم ما الذي يجلب الموتَ للأحياء!

عندما دخل عبد العليم الفابريكة في ذلك اليوم، شعر بأنه المكان الوحيد الذي لا يلفظه، أخذ يملأ راحَتَيْه من حبوب الشعير، ويملأ صدره من رائحة البيرة التي تفوح من طبَقَة العجين الطافي فوق الشراب السِّحري في قدوره الكبيرة، لاحظ الخواجة ستافانوس حُزنَه وشروده، فنادى مصطفى قائلًا له:

- صديقك في حاجَةٍ إلى نُزهَة بعيدًا عن البيت والعمل، لا تَعُد به إلَّا وقد عاد كما كان!

- ألا نحتاج إلى نزهة نحن أيضًا يا خواجة؟

قالها أنطون، أحد العاملين في المصنع، وقد انتزع ضحكةً منهم لَكَم احتاجوا إليها!

- يا خواجة، لقد مات جدِّي منذ خمسة أعوام، أريد نزهة الآن!

- أتدري؟ يومًا ما سأُحوِّلكَ بنفسي إلى قِدرٍ هائل من البوظة، فلم أَرَ عفنًا كهذا من قبل!

قهقه الجميعُ وعَلَت ضحكاتهم، حتى عبد العليم كان في حاجةٍ ماسَّة إلى الضحك، فاستسلم، أخذه مصطفى إلى كلوت بك، لافتات في كل مكان، خمَّارة مانولي، بار خريستو، بنايوتي، خرالامبو، كوستا، العالم الحقيقي، الذي يحاول الهرب منه ولا يعرف كيف!

- ما رأيك في سهرة معتبرة في عماد الدين؟ انظر إلى الأضواء يا عبده! البرينتانيا: يقدِّم جوق السيدة منيرة المهدية، الرواية الجديدة "البريكول"، تلحين كامل أفندي الخُلَعي، تقوم بالدور المهم في الرواية السيِّدة منيرة المهدية، سلطانة الطَّرَب، وكروانة مصر الوحيدة، وبلبلة وادي النيل! الليلة تغني السيدة منيرة المهدية دكتوراة ممتازة في الغناء والطرب بين العالم الشرقي جميعه([16])!

يبتسم عبد العليم لمصطفى ولا يُظهِر حماسًا، فالسُّلطانة تحتاج منه إلى مزاجٍ خاصٍّ وحُسن استقبال وتقدير، ماذا لو وقَعَت عينها الساحرة عليه وهو على تلك الحالة؟ يتأمَّل جدران الشارع وقد امتلأت

عن آخرها بلافتات المطربين والمشخّصاتيَّة: "ملحن أناشيد ومقرئ مدائح نبوية ومشخّصاتي".

"بائع يناصيب وسجاير ومغني".

"حانوتي ومُقرئ ومشخَّصاتي".

يبتسم ساخرًا مرَّةً أخرى.

- "الإچبسيانا"، ولا "ألابي دي روز"؟ الراقصات الشقراوات، سيقان عارية لم تَرَ لها مثيلًا من قبل، الله يعمر بيت الحرب اللي حَدَفِتهم علينا!

- الله يجازي شيطانك ويلعن أبو الحرب!

- واللَّا انت غاوي نكد؟ تيجي ندخل مسرح رمسيس؟ نابغة مصر في التمثيل... يوسف وهبي يقوم ببطولة رواية "الذبائح". طَب أقولَّك؟ بينا على المحطة. هاسَمَّعَك حاجة جديدة.

- مَغنَى؟

- أُمَّال!

- مَغنَى غير السلطانة يا غشيم؟ فتحية أحمد؟

- بيقولوا اسمها الآنسة أم كلثوم.

وصلا إلى كازينو "البسفور" بميدان المحطَّة:

"تغني الآنسة أم كلثوم صاحبة اسطوانة: مالي فُتِنتُ بلحظِكَ الفَتَّاك".

دخلا إلى صالة الكازينو واستقرَّا في آخر كرسيَّيْن شاغِرَيْن بها، أزيح الستار عن المطربة في تمام العاشرة مساءً، وتختها، بلا مَذهَبجِيَّة يسندونها، ثم صدحت مُنشِدَةً:

لي لذةٌ في ذلَّتي وخضوعي

وأحبُّ بين يديكِ سفكَ دموعي

لم يدرك عبد العليم ما حدث بالضبط، ولكن صوتها، صوتها وحده كان مألوفًا جدًّا على حداثة عهد الأذن به، وتلك الكلمات الكاشفة لما يجيش به صدره، ليس الآن فقط بل طوال حياته، كيف تأثَّر إلى هذا الحد؟! ما الذي فعلته هذه الآنسة بقلبه؟

تذكَّر الآن اسمها الذي تَردَّد على الألسنة في أكثر من مناسبة، وكيف كان مُستَفَزًّا من المديح الزائد عن الحَدِّ من قِبَل بعض أصدقائه، وكان يضحك مع مَن يسخرون من لباسها الذي يشبه ما يرتديه الرجال، لم يهتم؛ ربما لأنه لم يَرَ ولم يسمع... كان يقول لروحه: هل سيأتي أبدًا في هذا الزمان مَن هي أبدع من السُّلطانة؟ السُّلطانة التي آنَسَت وحشة لياليهم بِشَدْوِها، افترشت أَسِرَّتَهم وتدلَّلَت على شفاه نسائهم حتى الوصول، السلطانة، ضحكة القلب التي لا تموت، النبيذ الأحمر المعتَّق الذي يطيل العمر، اللذَّة التي لا يصاحبها نَدمٌ ولا وجيعة؟!

مستحيل...

ولكن هذه، هذه التي يبدو أنها تنشد، تتبتَّل، فعلت شيئًا ما، لا يقدر عبد العليم على الإمساك به، أو وصفه، نظر إلى مصطفى محاولًا أن يجد في وجهه أمارات ما يحدث له فوجد دموعه تنهمر على خديه، اكتشف عبد العليم أنه أيضًا في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى البكاء، خاصَّةً عندما وصلت الآنسة إلى هذا المقطع:

"ما الذل للولهانِ في شرع الهوى عارٌ... ولا جَورُ الهوى ببديعِ"...

ما يجعل ذُلَّ الهوى محتملًا أننا كُثرٌ، وفي ذلك بعض التعزية!

صاح أحد الحضور مُصفِّقًا في انتشاء:

- فتح الله عليكِ، أملتِ قلوبنا مع ذاك الهوى!

صاح آخر يجلس بجانبه: أمالت الهوى يا شيخ صالح إمالةً صُغرَى!

مصطفى وعبد العليم يجلسان في خضوعٍ تامٍّ أمام صوت الآنسة وما تغنيه، اتَّكَأت على جراحهما دون قصد، فصدَّتها وأخرجت دماءها وتركَتها تنزف في قلبين مُستَتِرَيْن خلف الضلوع.

ما حكاية هذه الآنسة التي أمالت الهوى؟ أم يكون ذلك كله من مفعول البراندي؟

غير أن "الإمالة" الكبرى لم تأتِ بعد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(14)

البيرة تُنقِذ العالَم

تُرى ما الذي شعر به تيوخاري كوزيكا عندما وقف على هذه الأرض للمرَّة الأولى؟

رغم أنه كان على دراية باسم المكان وحكايته، إلا أن رؤيته جعلته يستعذب الاكتشاف الأول، حاول أن ينصت إلى الهواء القادم من ناحية النهر، فأغمض عينيه مُتخيِّلًا أعدادًا كبيرة من الفراعين، يقطعون بفؤوسهم الصلبة الحجرَ الجيري الأبيض من الجبال التي تحيط بهم ويحيطون بها، يلفح الحَرُّ صدورهم العارية ويصفهعم البرد لسنواتٍ وسنوات، حتى اكتمل بناء الهرم الأكبر... ثم غيره من المعابد والصروح التي يراها في كل مكان... ليس هذا فحسب، الأهم من ذلك بالنسبة له هو تلك البقعة الواقف عليها الآن بقدميه والتي تعانق النيل الطيب.

أَلَم يسكنها أهلُ طروادة من قبل؟

- أوه يا إلهي! طروادة... إنها هي...

طُرة ليست إلا طروادة في زمنٍ آخر...

الفردوس المفقود!

تنهَّد الخواجة، شاعِرًا بأنه قد وجد ضالَّته... وقال في نفسه:

- سيظلُّ كُلُّ يونانيٍّ في غُربَتِه يبحث عن حُبِّه المفقود "هيلين" أبَدَ الدَّهر، أزعم أنني أصبحتُ الآن أكثر أهل بلادي حظًّا، عندما وصلتُ إلى هنا... إلى طروادتي...

وإذا ذكر المرءُ طروادة لا بُدَّ وأن يتذكَّر هوميروس!

هل هي مجرَّد صُدفة أنَّ هوميروس وُلِد على ضفَّة نهر ميليس؟ وأن أمَّه قد أسمته ميليسا؟ أي ابن النهر؟

فلربَّما كان هوميروس نفسه ثَمَرةَ ليلة حُبٍّ بين أمه اليونانية وأبٍّ مصريٍّ من أهل الجن!

هل هي مجرد صدفة أن أم موسى ألقت به هنا تحديدًا قبل أن يجده فرعون؟

ما السِّرُّ في النهر؟ ولماذا كل حضارةٍ تُخفي وراءها نهرًا وقصصًا وراءه؟

في اللحظة التي اسحضر فيها "كوزيكا" هوميروس مُحاوِلًا أن يَشقَّ الغيب المُظلِم، مُتبرِّكًا ببعض الشِّعر الذي يحفظه له عن ظهر قلب، انتفض جَسَدُه لوَهلَةٍ وهو يتخيَّل بومةً هائلة الحجم قادمة من أثينا وقد وقفت على كتفه، هنا أيقن تيوخاري أنها روح هوميروس كفيف البصر، والذي بُعث من العالم الآخر في صورة بومة تنظر إليه بعينيها الرائعتين...

هو يعرف أن البومة لا تفرد جناحيها لتُحلِّق إلَّا عندما تتجمَّع الظِّلال...

هو يعرف أيضًا كم يكره المصريُّون البُومَ، ويضربون بها المثل في الشؤم وسوء الطالع... ولكن الخواجة ذاته، ومنذ ترك بلاده الحزينة وودَّع كلَّ شيء فيها، كان قد دفن سوءَ الحَظِّ تحت جدرانها العتيقة، واستجمع كلَّ الحنين الساري لموج ميناء كاريستو وخبَّأه عميقًا في ذلك القلب البعيد عن الأعين.

لقد أصبح كلُّ شيء بعيدًا: صلوات النساء في الكنائس والجوع يأكل بطون أطفالهن، بكاء الرجال في الليالي حالكة السَّواد من الفقر والعَوَز، حتى التماثيل الصامتة لأثينا والعذراء والمسيح المصلوب، أمُّه التي لحقت بأبيه، كل ذلك أصبح بعيدًا الآن...

همس تيوخاري لنفسه:

- سوف أبدأ من هنا!

الصُّروحُ التي تُبنى من هذه الحجارة لا تَبلَى... والقلوب التي تحطُّ هنا لا يمكنها المغادرة إلَّا بالموت...

والمسيح أيضًا ليس بعيدًا عن هنا، فها هو دير أرسانيوس الذي يحتضنه جبل طُرَة، يرسل بركاته إلى الوافد الجديد.

ولكنَّ الخواجة لم يكن رومانسيًّا إلى هذا الحَدِّ، بالطبع لن يَظلَّ في عالمه الهوميري، هو أيضًا تاجر، ويعرف أن المقامرة مرَّةً واحدة في العمر قد تكون ضربةَ حظٍّ، وقد تكون ضربةً قاضية... هو يعرف أن الثروة التي جمعها منذ وصوله إلى الإسكندرية لن تنمو من تلقاء نفسها بدون عمل وأفكار جديدة. ما جعله مُميَّزًا أنه لم يأتِ من وطنٍ مُفلِس إلى مصر لكي يبيع الجُبنَ والزَّيتون في بقالة بسيطة على ناصية حارة مثل الكثير من أهل بلاده!

بعد الأحداث المتسارعة فوق أرض الإسكندرية، بدأ تيوخاري يفكِّر في مَهرَب، أو مَخرَج، هو لا يريد أن يخسر شيئًا، بل يريد المكسب المضمون، ولكي يُحقِّق ذلك عليه أن يتَّجِه إلى تجارة جديدة من نوعها متهافت عليها مسبقًا، ولا غِنى عنها، كما فعل چناكليز بكرومه ونبيذه، والخواجة هنري نوس البلچيكي بقصب السكر، وحتى لاجوداكيس الذي احتكر صناعة ورق البفرة، فسوف يمتدُّ هنا فوق هذه الأرض مصنَعٌ لتقطير الكحول، أكبر وأحدث بكثير من قرينه بالإسكندرية.

سيُشيِّد بناءً ضخمًا هنا في طُرَة، طروادة الجديدة، يُطِلُّ على النيل بدلًا من بحر إيجة، حصانه فيها هو الثروة، واسمه المعروف بين العائلات الكبرى!

قام الخواجة بجولَةٍ مع بولي زار فيها عددًا من الدول الأوروبية، وشاهد الصناعة من كَثَب، خطَّط لمشروعه جيدًا، اقترح بوليخروني أن يُلحق بالمصنع الكبير آخَرَ لصناعة البيرة، كانت الحكاية بسيطةً للغاية: سوف يحوِّل المصنع الكبير العَسَلَ الأسود إلى كحول، بينما يحوِّل المصنَعُ الصغير حبوبَ الشعير إلى بيرة!

ولماذا اختار بولي البيرة؟ هو الإغريقيُّ الذي يُفضِّل النَّبيذَ على الجِعَة، هو نفسه الذي بات يَصِفُ البيرة على أنها مشروبٌ مُخنَّثٌ مُنتَقَص الرُّجولة! ربما لأن چناكليز لم يترك للأخوَيْن خيارًا، ولأنهما

تاجران تَعلما كيف يُحقق المكسب، وربما لأنهما أدركا مدى إقبال المصريين على مشروب الأجداد القدامى، البيرة أخت الخبز، من عجينٍ واحد يُصنعان، وعلى مائدةٍ واحدة يتواجدان، سمراء كجلودهم، رقيقة المعشر كقلوبهم، شراب الآلهة ومنقذة العالم...

نعم، مُنقِذَة العالَم...

فعندما يَئِس الإله "رع" من ذنوب البشر وغبائهم، أرسل عينَه الرَّبَّة "سخمت" للقضاء عليهم، انطلقت سخمت بإرادةٍ خالِصَةٍ للانتقام من بني الإنسان، تُقطِّع جُثَثَهم إربًا، تشرب من دمائهم ولا ترتوي، غضبت الآلهة ونبَّهَت إله الشمس رع أن هذا الحقد المقدَّس سيُفني العالم، وأن سخمت لن تُبقي بشرًا يَعبُدُ إلهًا أو يُقدِّم قربانًا أو يتعلَّم تعاليم الإله رع... وقبل أن يفوت الأوان، أرسل رع في طلب سخمت، ولكنها كانت مُنهَمِكَة في شرب الدماء، وأمست غير قادرة على التوقُّف، أمر إله الشمس بإعداد كمِّيَّاتٍ هائلة من الجعة المقدَّسة، وصَبَغها باللون الأحمر لتبدو كالدماء، ووضعها في طريق الرَّبَّة سخمت، انكبَّت على الشراب حتى آخره، دارت رأسها التي هي بالأساس رأسُ لَبُؤَة، غابت في سَكرَةٍ طويلة وغلبها النعاس، واستيقظت في ثوبٍ إلهيٍّ جديد، لتُصبِحَ الرَّبَّةَ حتحور، المُحبِّة الطَّيِّبة، صديقة الإنسانية!

حتى في المرض، فإن وصفة الطبيب والكاهن لا تُحقِّق الشفاء الكامل إلا ببركة البيرة؛ فإن كأسًا منها يُربك الأرواح الشريرة ويفقدها توازنها وقوتها، لتُخلِّي الجسد المريض؛ فيستردَّ عافيته وينشرح قلبه!

تعرَّف الأخوان إلى ستافانوس الجريجي الضليع بتلك الصناعة، ابن أثينا الذي انتقل مثلهما إلى الإسكندرية في وقتٍ لاحق، وجمع مالًا من شغله كبارمان في أثينا... هذا المال الذي جمعه في ليالي أثينا حالكة السواد، من أيدي المحبطين واليائسين، مالهم المبلَّل بدموعهم ودموع أطفالهم، آخر ما يملكون عادةً في جيوبهم الممزَّقة، النقود المشبعة ببصمات أصابعهم، رائحتها رائحة كل الموانى، رائحة الترحال والغربة...

ذلك الشعور الحر!

هذا هو الفَقدُ الحقيقيُّ! الفقد هو ألَّا تقدر على استعادة روحك مرة أخرى من براثن الزمن!

عاش ستافانوس لحظاتٍ من الفقد والوجع والتَّخلِّي، يتذكرها جيدًا ويستطيع الحديث عنها الآن بكل طلاقة وسلاسة، وهو جالسٌ مع الأخوين بالكثير من الفخر والضحك أيضًا، ولكنه لن يقدر أبدًا على وصف حالات السُّكر الصافي، الأمر الذي كان يجعله يخبط رأسه في الحائط عدَّةَ مَرَّاتٍ في كل مرَّةٍ حاول فيها أن يتذكَّر... ما الذي كان بوسعه أن يتغيَّر في عالمه لو أنه فقط تذكَّر؟! لطالما آمن بأن لكلِّ امرئ حالة سُكرٍ مختلفة عن الآخر، يأتي السُّكر على شاكلة الروح، وكيفما خُلِقتَ سَكِرتَ! لو أنَّك لم تسكر فأنتَ لم تُختَبَر بعد، ولم تدخل في التجربة...

ألم يكن دعاء المسيح: رَبَّنا لا تُدخِلنا في التجربة ونَجِّنا من الشرير؟

لم يكن يشرب مع أحد، إلا فيما ندر، وإن جالَسَ أحدًا حرص ألَّا يَدخُلَ أبدًا في السُّكر، أن تخلع ملابسك وتتعرَّى أمام الناس أيسَرُ على ستافانوس من أن يَسكَرَ مع أحدهم! وكانت تلك مُعضِلَتَه، لعنته وقوته في الوقت ذاته!

هو يعرف كل شيء عن الجميع، بينما لا أحد يعرف عنه شيئًا!

بالتدريج هو البارمان المحترف، هو كاتم أسرارهم الأمين، جالب الفرح في الكؤوس، وماحي آثار الحزن والخوف! ينصح المبتدئين بأفضل ما يمكن تجريبه كبداية، إن لم يقتنص البارمان هذه الفرصة يكون قد خسر زبونًا مستديمًا! البارمان ليس مجرَّدَ نادِلٍ يُقدِّم ما يُطلَب منه فحسب، بل هو الناصح والخبير والعارف، الذي اختبر الآلاف من البشر من وراء الزجاج، شاهَدَ اندهاشَ العيون، اشتعالها وتَوهُّجها مع الرَّشفات الأولى، راقب انطفاءها بالتدريج مع اعتياد النشوة والمتعة...

- أوه... كم كان هذا مُحزِنًا! مثل عاهرة في الأربعين تبيع روحها للمرة الألف وواحد!

يتذكَّر الصمت المُطبِقَ على الأرواح... هناك العديد والعديد من الليالي التي لا لم ينطق فيها سُمَّار الحانة بأي كلمة، كان هؤلاء غارقين في الغياب، أيديهم المرتعشة والدموع التي تملأ مآقيهم، وجودهم المؤقَّت فوق الكراسي المُنهَكَة وغيابهم الدائم عن العالم، حالِمون بالسُّموِّ والخلود، ثم يفيق الواحد منهم في تَماهٍ مكتمل مع العدم!

- بلوغ الذروة من كل شيء ثم هذا السقوط!

النيل يهتزُّ، يرسل النسمات العليلة من الحين إلى الآخر، تتكرَّر زيارات ستافانوس لتيوخاري وبولي في طُرَة، يتابع بناء الحلم من كثب بشغف، يقف في رسوخ كمَن يزرع روحه في الأرض الجديدة، يحاول أن يوقف سيل الذكريات، التي لا تنقطع مهما حاول تجاهُلَها، مَرَّ بخاطره الآن كيف أفقده الفضولُ عَملَه،كيف طُرد للمرة الأولى من بار ميخائيليس، وقضى ثلاثة أيام يتضوَّر جوعًا، مُتسكِّعًا في الأزِقَّة، يتساءل عن هذا السر الذي أراد أن يطَّلِعَ عليه وقد كلَّفه عمله لدى ميخائيليس! لماذا غضب الرجل إلى هذا الحَدِّ عندما رآه يتلصَّص عليه؟ كأنه قد اطَّلَع على سَوأته، أو رآه يُضاجِع زوجته؟!

كان يقوم بتحضير البيرة فحسب!

كان يدخل بمفرده ولا يسمح لأحد بالدخول معه!

ولكن ستافانوس في هذا اليوم لم يستطع مُقاومَةَ الرائحة المنبعثة من الداخل، من الغرفة البعيدة المظلمة، لم يستطع مقاومة كل هذا الإغراء!

- آه... الغرفة البعيدة المظلمة! وتلك الرائحة!

ستافانوس في تلك اللحظة كان أشبَهَ برَجُلٍ يتحسَّس امرأته في الظلام، يبحث بكل شوقٍ وتَوقٍ عن سِرِّ المتعة واللَّذَّة، كان ممتلئًا بالرغبة، وهذا الغموض البعيد يناديه ليقترب، لم تكن تجربته الأولى في الجنس أكثرَ جمالًا وإشباعًا من تلك التي يجترُّها الآن، رائحة الخبز المختمر الطازج، تختلط برائحة أخرى أكثر إغراءً، لن يقدر أبدًا ستافانوس على وصفها، كيف لرائِحَتَيْن متضادَّتَيْن أن يجتمعا معًا بتلك الروعة؟!

الغرفة المظلمة هي التي نادته، تمامًا مثل ماريًّا في تلك الليلة العذبة، كان محظوظًا... الفتى الأكثر حظًّا في أثينا كلها، هكذا شعر حينها، ماريًّا في طريقها إلى فقدان عقلها تمامًا، وعندما يصادف أحدُهم

امرأةَ في طريقها إلى فقدان عقلها لا بُدّ وأن يأخذ حذره، قد تكون اللحظة الأجمَل في عمره وقد تكون لعنةَ حياته!

- ماريًّا، تُرى أين أنتِ الآن؟!

- مَن هي ماريًّا يا ستافانوس؟

يسأله بولي في فضول، يرقبهما تيوخاري في صمتٍ يحاول إخفاء فضوله أيضًا، بينما يسترسل ستافانوس غارقًا في الذكرى:

- كنتُ خارجًا لِتَوِّي من بار ميخائيليس، أجرُّ قدميَّ جرًّا، من طول جلوسي على الأرض أنظِّفها، أعكف على ما تبقّى في الأكواب والكؤوس من خمر وجعة فأجمعه، أغسل الزجاجات الفارغة وأُجفِّفها، لا أنتظر أحدًا ولا أحد ينتظرني كالمعتاد، فإذا بها تقف لي عند رأس الطريق بدلًا من الشمس المحتجبة، تقف بابتسامةٍ مُشجِّعَة، بيدٍ واحدة تشير إليَّ كي أقترب منها، كي أتبعها، كنتُ بالكاد أقدر على فتح عينيَّ، ولكن في اللحظة التي أبصَرتُها أمامي دبَّت طاقَةٌ هائلة في أوصالي، مشيتُ مسرعًا باتجاهها دون تفكير، بدأَت تجري وتنظر إليَّ خلفها ضاحكةً، أجري نحوها، لا أشعر بشيءٍ سوى أصوات أنفاسها المتلاحقة، وأنفاسي وراءها، وجدتنا أمام البحر، ولم يكن في خيالي أبدًا ما فعَلَته ماريًّا عندما وقفت أمام البحر!

فقَدَت عقلها!

رأيتُ ذلك في عينيها قبلها بثوانٍ، رأيتُ إصرارًا ما، نظَرَت إليَّ بعينَيْن ثابتَتَيْن، كمن يعرف جيِّدًا ما الذي يريده، نَمِرَة وجدت فريستها، نمرة في الخامسة عشرة من عمرها! أشارت بِيَدِها مُجدَّدًا ولكن كانت وقتها مغمورة في الماء حتى بطنها، ماريًّا ماذا تريدين؟ خَلعتُ قُبَّعتي وبنطالي وقميصي المهترئ، وذهبتُ نحوها، أرقب فتاة في طريقها إلى فقدان عقلها، كان الماء باردًا كالثلج، وقلبي ساخنًا وعقلي يفور، ماريًّا ماذا تريدين؟

ضَحِكَت عاليًا وهي تنثر الماء البارد في وجهي بأناملها الرشيقة، ملَكٌ أبيض يلهو بأَسهُم كيوبيد، أو حورية عارية من حوريات جبل الأولمب ترقص حول موائد الآلهة بدون إذنٍ من زيوس! قبل أن يشقى البَشَرُ بذنوبهم وقبل أن تحاسبهم الآلهة! هوميروس هو الذي يَصِفُها الآن وليس أنا! أنا ساعتها كنتُ مأخوذًا بمُشاهَدَة جنون فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، جذبتني من يدي، واقتَرَبَت من وجهي بكامل جنونها وقبَّلَتني، كبَّلَتني بذراعَيْها، بشفتيها، بشعرها البُنِّيِّ المُبَلَّل النائم على كتفيَّ، بجسدها الممشوق يلامس جسدي تحت الماء، كل شيء يبدو أكبر وأعظم، أنفاسها أعلى كأن مئات المحارات تتنفَّس في أذني، لمساتها خناجر مخمليَّة تدغدغني حياةً وموتًا، وهذا البحر الواسع الكبير ما هو إلا خمر صافية نزحت من قلبي وقلب ماريًّا!

ماريًّا ماذا تريدين؟

لم تَرُدَّ أبدًا ماريّا، ولكنَّني أنا الذي رغب واشتهى:

- سوف أُحوِّل مياه البحر خمرًا من أجلك يا ماريًّا!

تضحك حوريَّتي الصغيرة...

تضحك منِّي...

أعضُّ رقبتها الرقيقة في غيظ! تصرخ عاليًا ولا تَكفُّ عن الضحك!

لم تكن العَضَّةُ قَويَّةً لكي تترك أثرًا، خطر ببالي هذا فقط الآن! كان يجب أن تكون عَضَّةَ أسَدٍ يوشم لَبُؤتَه كي لا يقترب منها أحد سواه!

قال تيوخاري مُقاطِعًا:

- الأسد أيضًا يصنع من بولِه حدودًا لغابته، هذا لا يفوتني وأنا أضع يدي الآن فوق طرة!

- ولكن أقسم بالعذراء الممتلئة بالنعمة يا صديقيَّ، كانت غرفة ميخائيليس المُظلِمَة أكثرَ إغراءً من جنون ماريًّا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(15)

جَري المتاعيس

البيت... الجدران... الملاذ الذي يبدو صامدًا أمام كل ما يحدث، وهذا الصمت الذي يُعشِّش في قلب وداد، ظلَّت لعدَّة أشهر لا تتحدَّث مع أحد، تجلس بالقرب من المشرفيَّة ذاتها، حيث اللقاء الاول، أخواتها يُراقِبنها مُتألِّمات صامتات، أما هي فباتت تراقب الغادي والرائح، كأنما تبحث عن شيءٍ لا تجده، في الحقيقة لم تكن تنظر وداد إلَّا لحواجب الرجال، تتفقَّد طولها وكثافتها وكيف تبدأ وكيف تنتهي، وتُغَمغِمُ في سِرِّها:

- عمره طويل، أمَّا هذا فعلى ذِمَّته أربع، وهذا ذيله نجس!

تظلُّ حتى أذان المغرب تقرأ الطالع في وجوه أبناء الحي، تكشف ما يُخبِّئه الحاجب لصاحبه، ما زال الأمل يسكنها؛ فلرُبَّما تُصادِف مُجدَّدًا حاجِبَيْن قصيرين كثيفين في مبتدئيهما، مبتورين في نهايتهما... حاجبا ذلك الرجل صاحب الابتسامة التي تجبر الخاطر، هدية السيدة نفيسة لها.

لا فائدة.

بدأت وداد تعي ما حلَّ بأُمِّها صابرة بعد فقدان الوَلَدَيْن، وعرفت من أين أتى هذا الخوف على طلعت، أخيرًا شعرت بنفس الحُرقَة: ها أنا أفقد اثنين أيضًا يا أمي: زوجي وابني الذي لم أحمل به!

أمَّا صبر الجميل، ومنذ وفاة زوج ابنتها كانت تموت رعبًا كل ليلة؛ خوفًا على طلعت، فإذا كان حامل الصُّرَّة قد مات فكيف بحال المحمولة له؟

يا لطيف الطُفْ بنا!

أمَّا ما شعرت به حيال وداد فكان مختلطًا، لم تكن تحتمل وجودها، ولا النظر في وجهها، باتت تشعر وكأن روح وداد تقفز بداخلها، ترسل خناجر إلى قلبها، نظراتها تخيفها وتصيبها بالخفقان، تجعلها تتذكَّر الأيام السود التي فقدت فيها ولديها، ثم تأتي عليها لحظات لا تشعر بروحها إلا وقد ضمَّت وداد بقوَّةٍ، باكيةً بكاءً مُرًّا لا يتوقف لساعات!

وقفت شوقة عاجزة أمام ما يحدث للأم وابنتها، فراحت تبذل أقصى ما بوسعها للاعتناء بالبيت وبالفتيات، بالجلوس بجانب وداد المسكينة خشيةَ أن تلقي بروحها من المشرفية، حتى شرعت وداد في الحديث ببضع كلمات لأول مرة منذ شهور، كأنها طفلة حديثة العهد بالحروف، تهلَّلَت أسارير شوقة واحتضنتها، وقالت لا بُدَّ من الوفاء بالنذر لأم هاشم، فطلبت وداد أن تذهب معها، كادت تُزَغرِدُ من الفرح، أسرعت صابرة تَضمُّها وتبكي، والتفَّت أخواتها حولها يُقَبِّلنها دامعات، تَعلَّقَت ست أبوها برقبة وداد، ولم تتركها إلا وقد نزلت بصحبتهما!

طوال الطريق لرئيسة الديوان، ظلَّت وداد تمارس هوايتها المفضَّلة، فتقرأ الطالع من أقواس الحواجب، تهمس لشوقة:

- هيعيش كتير.

- وعِرفتي منين؟

كَتَمَت وداد السِّرَّ، فصمتت، أمَّا شوقة فقالت في نفسها هو المدد الرباني الذي تصالحها به الأقدار بعد ما حدث لها، يبدو أن الله أمدَّها بشيءٍ من علمه وانفتحت لها أبواب العرفان!

- اسم النبي حارسِك يا وداد!

في الطريق سمعت شوقة همسَ نساء الحيِّ ومَصمَصَة الشفاه في إشفاقٍ على العروس التي تَرمَّلَت بعد عشر ليالٍ، راقَبَت واحدةٌ منهن نظرات وداد الزائغة المجترئة على الرجال، وهمست بصوتٍ مسموع:

- كبدي يا بنتي، جَوِّزوها!

نظرت شوقة إلى المرأة في غضب، وأمطرتها بوابل من السِّباب:

- تشاور هِيَّ بس يا مَرَه، يا اللِّي مالكيش راجِل يِلِمِّك!

كانت وداد في عالم آخر، تتكشف لها الحُجُب بقراءة الحواجب، وتعبَّد لها طرائِقَ الرزق باجتياز النوائب!

في البيت، شردت نعيمة في حال أختها المسكينة، وانتابها خوفٌ وحذر من الرجال جميعهم، وما يجلب ظهورهم على السِّت من دول من وجع وحزن وخيبة أمل... وأولهم أبوها الذي جلب الموت والعار لهُنَّ جميعًا. في الوقت نفسه كان هناك مَن ينتظر ليخطب نعيمة التي لم يرها أبدًا، ولكنه مصطفى، صديقه، والذي رشَّحها له وأقنعه بأنه لن يجد من هُم أطيب وأحسن من عائلة سي عبد العليم ليناسبهم.

عمارة، صاحب محل في سوق الكانتو، وصاحب مزاج مثل مصطفى، لم يتردَّد الرَّجُل، وفاتح عبد العليم في الأمر، فوافق وزفَّ الخبر إلى صابرة، حيث باتت في حيرة من أمرها، هل تسعد وتستمر في تلك الخطبة؟ أم تُرجِئ ذلك كلَّه حتى تتعافى وداد وتُرزَق بابن الحلال الذي يُعوِّضها مرارة ما ذاقت فلا تغار الأخت من أختها؟

طلبت المشورة من شوقة، فنصحتها بإتمام الزواج على الفور، والبنت التي يصل إليها عَدَلها لا بُدَّ من تزويجها. ولكن نعيمة رفضت بشدَّة، وقالتها صراحةً إنها لا تريد الزواج!

ذُهِلَت صابرة من النبرة المجتَرِئة التي تحدَّثَت بها نعيمة، وحاوَلَت أن تفهم السَّبَب، فانفجرت البنت باكيةً بأنها تخشى مصيرًا مُشابِهًا كالذي حدث لأختها. ما الفائدة من الزواج إذا كان سينتهي بلعنة؟ وماذا بوسعهنَّ أن يفعلن حيال عمل أبيهم المحرَّم الذي يجلب سوء الحظ وغضب الله؟

أصرَّت صابرة على إتمام الزيجة، وتَردَّد عمارة على البيت لتقديم هدايا العُرس لنعيمة، أصرَّت وداد على رؤيته وهي تمسك بذراع أختها وظلَّت تنظر في وجهه تتفقَّد حاجبيه الكثيفين شبه الموصولين وقد احتلَّا نصف جبهته، وهمست لأختها:

- راجل سَوّ...

لطَمَت نعيمة خدَّيها؛ لأنها في قرارة نفسها كانت تشعر بالشيء نفسه حيال الرجل، ولم تَرتَح له... اللعنة! ستُسلِمُها الأقدارُ إلى خيبةٍ أخرى باسم تلك العائلة الملعونة؟

لا، لن توافق نعيمة على هذه الزيجة، سوف ترفض حتى آخر نَفَس، وبكل ما أوتِيَت من قوَّةٍ وعزم، حتى جاء اليوم الموعود، فاصطحب العريسُ عروسه وأهلها لالتقاط صورة الزفاف، طلب المصوِّرُ من العروسين الوقوفَ بجانب بعضهما البعض، فصرخت نعيمة:

- نجوم السما أقرب!

غضب عمارة، وعنَّفها، وحوَّل حديثه لأبيها مُستَفهِمًا عن سبب هذه الثَّورة غير المحسوبة، ظلَّت نعيمة تصرخ بفستان الزفاف مُمسِكَةً بصحبة الورد الاصطناعي التي أعطاها إيَّاه المصوِّر، رافضةً كل المحاولات لتهدئتها، حاول عبد العليم وشوقة، ومرَّات ومرَّات، وصابرة التي همت بضربها دون جدوى، همست أم عمارة له وجذبته من يده صائحةً فيهم جميعًا:

- يالَّلا يا عمارة، باين عليها معيوبة!

وهنا دارت عركة كبرى بين العائلتين، انتهت بفسخ الاتفاق، ما دام الأمر قد وصل إلى هذا الحدِّ، رحل عمارة وذووه، وبقيت العروس وأهلها بالاستديو يبكون ويندبون حظَّهِم العَسِر في تلك الحياة، لا عروس ولا عريس، ولم يَتبقَّ لهم سوى جري المتاعيس، أمَّا نعيمة فالتصقت بوداد، شدَّت على يدها، شعرت بالسعادة، وبأن حملًا ثقيلًا قد انزاح أخيرًا عن قلبها الصغير؛ لأنها خلَّصَت أُسرَتَها من"راجِل سَوّ"، حاول المصوِّر المسيو ستيفان مُصالَحَتَهم، فأصرَّ على تصويرهم معًا، صمَّمت صابرة أن يَقِف طلعت إلى جانبها، وتجلس البناتُ كلُّهنَّ على الأرض وقد افترشن فساتينهن المُبهِجَة، أمَّا عبد العليم فجلس على كرسي مضطجعًا، ثم قام المسيو بتصوير نعيمة بمفردها بفستان الزفاف وصُحبَة الورد، واستطاع أن يلتقط لها ابتسامةً آسِرَةً، احتفظ بها طوال حياة هذا الاستديو!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(16)

مُنتج سيِّئ السُّمعَة

مثلما بنى هيفايستوس لنفسه بيديه قصرًا عظيمًا لا يأتي عليه الزمن، بنى تيوخاري صَرحَه المزدوج على طروادة الجديدة: طرة المطِلَّة على النيل الطيب، المصنع الكبير الذي يصنع فيه الكحول الخام من العسل الأسود، الواجهة الشرعية لأعمال الأخَوَيْن كوزيكا في مصر، الكحول الذي سوف يدخل في صناعة الأدوية وأدوات التجميل والصناعات الغذائية، السبرتو: كلمة سِرِّ التطهير والتعقيم والنظافة في المستشفيات، الكلمة سَيِّئة السُّمعَة تُطهِّر نفسها وتصنع تاريخًا ناصعًا من الطهارة بأيدٍ إغريقية، أمَّا معمل البيرة الملحق بالمصنع الكبير، كان البوابة الخلفية لطموحهما الحقيقي، الطريقة الذكية للهروب من ضغط الإنجليز وثورة المصريين وصراعات العائلات الكبرى.

استشرف الأخ الأكبر ما سوف تجلبه الحرب، فكما جلبت الحبوب على حساب القطن، من المؤكَّد سوف تجلب حروبًا أخرى، علم تيوخاري أن أيام القطن سوف تنقضي عاجلًا أم آجلًا، وأن الأيام القادمة هي أيام القمح والشعير! الإنجليز أنفسهم روَّجوا للبيرة في بلادهم على حساب الخمور القوية مثل الجِن، ففي ظاهر الفكرة التي تبدو مثالية أن الملوك يريدون لشعوبهم حياةً أفضل بعيدة عن السُّكر والجرائم المترتِّبة عليه، حياة بلا أمراض فتَّاكة تقتلهم ببطء، أيدٍ غير مرتعشة تبني انجلترا، كان الجوهر غير ذلك، فالمطلوب هو جنودٌ أقوياء أصحَّاء يُشبِعون مطامع بريطانيا العظمى، ومن ثمَّ فرضت ضرائب ضَخمةً على الخمور، البيرة هي النتاج المنطقي لجشع الحُكَّام، التكيُّف الذي كان على الصُّنَّاع القيامُ به حتى يمكنهم التعامل مع الضرائب التي تفرض على الخمور وتزداد كلما زادت نسبة الكحول.

ومع ذلك فلم يرحب رجال بريطانيا في المحروسة بمشروع كوزيكا بطرة، ووضعوا له العراقيل على طول الخَطِّ؛ رغبةً منهم في الحفاظ على مكاسبهم الطائلة من وراء استيراد الخمور والجِعَة من بلدهم، وهنا بدأ بولي يمارس هوايته المفضَّلة حول طاولة البلياردو في اللعب مع القادة الكبار، كانت إنجلترا قد قرَّرَت بالفعل أن تتكسَّب أكثر من ذي قبل، من جرَّاء كل صناعة جديدة تنشأ في مصر، بذل بولي جهدًا كبيرًا ليحصل على موافقة لإتمام المشروع، وبالطبع عرض تيوخاري من خلال بوليخروني مبالِغَ كبيرة مع نِسَبٍ من الأرباح؛ كونَها اللُّغةَ الوحيدة التي يفهمها الإنجليز، وبالفعل منحوه البركة بعد إتمام الصفقة.

أمَّا المصريون المساكين الفقراء وإن كان الإسلام قد بنى حاجزًا كبيرًا بينهم وبين الشَّراب بصفةٍ عامَّة، فأنساهم مشروبهم المفضَّل "هاكت" وإلهة الجِعَة "تنينيت" التي ترعى صانعات البيرة وتلهمهم أفضل الطُّرق والوصفات، المشروب السحري الذي أنقذهم من الهلاك وجنون الرَّبَّة سخمت، وشاركهم في بناء أهراماتهم ومعابدهم، أنساهم كذلك أرجُلَهم المخَضَّبة بالعنب والبلح وهم يصنعون النبيذ- فمع ذلك ما رأوه وما فعله بهم الاستعمار على مَرِّ العصور، ضيق العيش، الفقر، المرض العُضال، المجاعة والوباء والخوف من المستقبل دفعهم لكي يعودوا أدراجهم طوعًا وكرهًا

للغياب: الانخراط في حياة السُّكر، الرغبة في اللهو والنسيان ولكن مع الحرص على السِّرِّيَّة، التي تشبه عبادة التابعين لدينٍ جديدٍ في السِّرِّ!

بات ستافانوس يحلم باكتمال هذا الحلم، والذي وإن كان بالأساس حلم الخواجة تيوخاري، إلَّا أنه اكتشف مع أول حديث بينهما شِدَّةَ تَعلُّقِه به هو الآخر، لن ينكر أن غرفة ميخائليس المظلِمة ظلَّت تراوده، وبات يحدث روحه بأشياء مجنونة: المسيح نفسه لم يحوِّل الماء إلى جعة، بل حوَّله إلى نبيذ! من المؤكد كان ذلك أسهل! العالم نفسه ليس سوى كأسٍ من البيرة: كل الفقاعات تتنافس على المقاعد العليا لتطفو، الكبير منها ينمو أكثر وأكثر، والصغير يتضاءل حتى يضمر ويختفي...

ولكن ستافانوس تعلَّم كيف يواجه هذا العالم الظالم من طريقة صَبِّ البيرة في الأكواب، فإذا كان يجب أن تسكُبَ البيرة عند زاوية الكوب لا أن تسكبها في منتصفه، بل لا بُدَّ أن تُميله قليلًا لتحصل على مشروبٍ غنيِّ الرغوة، مستقرٍّ في كأسه، بين الصعود والهبوط، فلِمَ تُفسد حياتك بالمواجهات المباشرة الصداميَة؟ لمَ يجب أن تقف في منتصف المعركة عاري الصدر؟ احتم بجدارٍ كجدار كوب البيرة، ثم مِل قليلًا، حتى تمُرَّ العواصف وتنتهي الرعود، وحتى يمتلئ كوبك بما تَحب وتهوى.

كان رَجُلًا حكيمًا هو مَن صنع البيرة كما يقول أفلاطون.

وكان كوزيكا حكيمًا عندما فكَّر في هذا المشروع...

في الحقيقة لم يبخل ستافانوس بأي جهد، خرج في جولات بأحياء المحروسة مع مقاول الأنفار ينتقي عُمَّالًا للمصنع الصغير، كان يريد أن يفعل ذلك بنفسه، يبحث في الوجوه؛ عَلَّه يجد إصرارًا يشبه ملامحه القديمة في أثينا، كان أبرز المختارين: سمعان وأنطون وعبد العليم ومصطفى، والعديد من الجريج بالطبع!

في البدء، كان الأمر صعبًا. ليس فقط بسبب عائق اللغة لرغبة ستافانوس القوية في الحكي والشرح، وقد كانت له فلسفة خاصة في الصناعة ذاتها، بات يعشق الأمر ويتحدث بأشياء رائعة أذهلت العُمَّال الجُدُد، علَّمهم الخواجة من أمر الصنعة التي لم تكن بالأساس سوى مُصادفَةٍ خَطَّط لها الرَّبُّ كي تحدث، أخبرهم ستافانوس أن الرب أرادنا أن نكون سعداء عندما جعَلَنا نكتشف هذا السرَّ المذهل، غير أنه أرادنا أن نفكر ونفهم. صناعة البيرة فنٌّ وعِلم، هي دليلٌ قاطع على تَحضُّر الأُمَم التي عكفت على صُنعها، فالبيرة لم تكن لتُصنع من دون محصول حبوبٍ نتج عن زراعَةٍ في مجتمع يعرف حياة مستقرَّةً ومنظَّمة.

بات يقول لهم: التجريش المكتمل للحبَّة هو الذي يؤدي إلى بيرة جيدة. إذا لم تُعطِ كُلَّ مرحلة من مراحل تصنيع الجعة حقَّها فستُفاجَأ بأنك قد صنعت خلًّا وليس بيرة، البيرة أيضًا تعطب وتفسد إن لم تتدخَّل في الوقت المناسب وتُنضِجها على النحو الصحيح، هذا الصفو الذي ترونه في الكوؤس هو مقدرة الانسان على تغيير واقعه العَكِر.

لكم استمتعوا بحكاية مشروبٍ "المزر" أو "الرُّوم" وكيف تحوَّل من اللون الداكن والطَّعم المُدخَّن إلى هذا اللون العسلي الفاتح الجذَّاب، فكان الصُّنَّاع من قبل يستخدمون الأخشابَ كوقود أثناء الغليان قبل تخمير المشروب، ولكن بعد ظهور الفحم الذي أخذ على عاتقه قيام وازدهار الثورة الصناعية، بدأ

استخدامه أيضًا في معامل تصنيع البيرة، واختفى الطعم المحمَّل بدخان الحرائق، واستَبدِل بمذاقٍ حلو له نَكهَةُ الفاكهة، كطعم النعيم الذي يُمنِّينا به الرَّبُّ لنعبده.

كانت كلماته تُلهِمُهم إلى أقصى حَدٍّ، تسري فيهم كمفعول الشراب السحري فتبهج قلوبهم، لأول مرة شعروا بأنهم يتعلَّمون أشياء ذات قيمة، لَكَم أذهلتهم الفكرة من الأساس، فكيف بعد تلك الرائحة الكريهة التي تملأ أنوفهم أثناء الصناعة، ينتج هذا الطعم الغني برغوة ورائحة ولون لا مثيل له؟ وكيف نفس الرائحة الناتجة من جرَّاء تصنيع الكحول تتحوَّل في زجاجة إلى عطرٍ أنثويٍّ مثير يخدِّر الرجال ويُهيِّج أعصابهم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(17)

بين امرأتَيْن

ذهب عبد العليم كالمعتاد إلى عمله، يائسًا تمامًا، يفكِّر بجدِّيَّةٍ لأوَّل مرَّةٍ في حياته في تَرْك هذا العمل الذي سلبه وأُسرَتَه راحَةَ البال، لِمَ لا يكون جميعهم على حَقٍّ؟ ولِمَ لا يستسلم؟ كان مصطفى يطحن الحبوب، وأنطون يَصبُّ الماء صَبًّا، وسمعان يتذوَّق الشَّرابَ الطازج بصُحبَة ستافانوس، ومع ذلك مضى عبد العليم باتجاه الطاولة التي تعجُّ بالكؤوس، وطلب أن يتحدَّث إليه على انفراد، ساعتها انفجر الرَّجُل بالشكوى والضَّجَر من كل شيء قائلًا:

- سوف أرحل من هنا، لم يَعُد لي مكانٌ يا خواجة.

- ما الذي تقوله يا رجل؟

- ما سَمِعتَه يا خواجة... لم أَعُد أستطيع تَحمُّلَ هذا الأمر.

- ما الذي لم تَعُد تحتمله؟

- العمل هنا، العمل في هذه الخَمَّارة الكبيرة!

- لا أُصدِّق ما أسمع!

- أولادي يموتون، زوج وداد لَحِقَ بهم، بالطبع أنت تعرف البقيَّة، وما حدث لنعيمة ابنتي، أنا خائف.

- أعلم أنك ما زِلتَ متأثِّرًا بما حدث لعبد الباقي، ولكن ما دَخلُ عَمَلِنا بالموت؟

- إنها لَعنَةُ المال الحرام يا خواجة... كفى..أنتَ لن تفهم ذلك، لن تفهم كيف تُنتزع البرَكَة من حياتِكَ.

- أنتَ مَن يقول هذا الكلام؟ انظر في كل مكانٍ حولَكَ يا صديقي، انظر كيف يحيا الناسُ هنا بالبيرة والويسكي والعرقي، انظر كيف يتنطَّعون في الحانات حتى الصَّباح، ألم تَدرِ أن السجن نفسه لا يمنعهم عن الشراب؟ ألا تعلم أنهم يقتطعون من خبزهم، يُخمِّرونه بالماء والسُّكَّر، ويُفضِّلون الجوع على الحرمان من هذا الشيء؟

الحرام هو ألَّا يحيا هؤلاء، ألَّا نعطيهم الفرصة لكي يغيبوا عن هذا العالم ولو لساعاتٍ!

ما الحرام في أن يَسعَدَ هؤلاء؟ ثم أخبِرني: هل هناك شيءٌ آخر يُسعِدُهم هنا؟

أجِبني يا علوة!

لماذا تصمت الآن؟

ألم تَرَ كيف تقوم الحياة في عماد الدين وكلوت بك على إنتاجنا المدهش؟ هل تصادف واحدًا من أصدقائك أو معارفك لا يشرب من صُنعِ يَدَيْك؟

إنّ كل مَن يَتَهمُك لم تَحِن ساعته فقط، عندما تحين ساعته يا صديقي لن يلومك أبدًا، لن يقوى على شيء سوى البحث عن كأسه التي يتحرَّق إليها، إنهم يتَّهِمونك وقد ملأهم الرِّيُّ، ولو أنهم ظمؤوا لطَلَبوا منكَ شَربَةً تسقيهم حتى الثُّمالة.

انظُر جيِّدًا يا عبد العليم، ودَقِّقْ حولَكَ، نحن ملوكُ هذا العالم!

هنا ليس خمَّارة، هنا معمل، فابريكة، خليَّة نَحلٍ ربَّانيَّة تُؤمِّن حدوثَ ما وجب حدوثُه فحسب، ما لا يقدر أحدٌ على إيقافه! هل سَتكفُّ الدجاجات عن وضع البيض؟ وهل يتوقَّف العَفَنُ عن الزحف فوق الخبز؟ هل سيُقلِعُ البَشَرُ عن السَّهو والخطأ والأذى؟ ألا ترى؟ إنها الطبيعة...

ما الذي فعلناه؟!

اخترعنا ذلك الشراب السحري؟ قلَّدنا يَدَ الله الرحيمة بالبَشَرِ التُّعَساء؟

أحسنَّا صُنعًا!

صمت عبد العليم، صمت وقد ملأه فجأة زهوٌ ولا مبالاة تجاه كل ما حدث وما سوف يحدث!

وهمس لنفسه: ياكشي تِوْلَع!

تلك المرة ذهب طواعيةً، دون أن يأخذه مصطفى من يده، إلى شارع عماد الدين حيث مسرح رمسيس، ليحضر حفلًا جديدًا للآنسة، جلس في هدوء، وقعت عينه على التَّخت المُكوَّن من القصبجي والعريان وكريم ورحمي. كان في حاجةٍ ماسَّة إلى سماع صوتها، والذي تركه منذ آخر مَرَّة في حيرة ودهشة وتذكارات، وجرحٍ موغِلٍ لا يندمل، لماذا يَرِقُّ لها القلب ويشتاق إلى رنَّة صوتها الصادح: في أنينه وفرحه ولوعته؟

"الموسيقية الحسناء، صوتها ساحر ملائكي، تعزف بأناملها على العود وتطربكم بكل جديد!": هكذا كتبوا على لافتات المسرح!

الآنسة أم كلثوم!

ماذا ستفعلين بذَكَر النَّخلة الجريح الليلة؟

"أيقظتِ فيَّ عواطفي وخيالي... وبَعَثتِ مني مَيِّتَ الآمالِ

وأَثَرتِ نفسي بعد طول سُكونها... في حين لم يَخطُر هواكِ ببالي".

لم يتمالك عبد العليم نفسه، انهمرت دموعه مع حضور الآنسة الطاغي بالصوت والصورة، خاصةً عندما شَدَت: "وحَسبتُني أصبَحتُ جمرًا هامدًا... وظننتُني أحيا بقلبٍ خالِ". كان شعورًا لا يوصف: المتعة التي يعادلها نفس القدر من استفاقة الألم، الألم نفسه يستفيق، يخرج من مَكمَنِه جامحًا ليتطهَّر من ذاته على نبرات هذا الصوت الذَّهبيِّ، كأنَّ صوت الآنسة لا يُخدِّر الحواسَّ كما تفعل سَكرَةُ الخَمر، بل كأنه يُهيِّجها، يُربِّيها ويكافئ خضوعها بلذَّةٍ لا تُضاهَى... تخيَّل الآنسة وهي تشرب في صحته، تخيَّلها ممسكةً بكوب من البيرة ممتدحةً إيَّاه، وسأل روحه: هل تشرب الآنسة؟ ولو "حلواني" حتى؟!

نظر إليها طويلًا وقلبه مُفعَمٌ بالآهات والتنهيد، طمع في نظرةٍ منها على حاله، خَيِّل إليه أنها نظرت وأشفقت، ولكنها سرعان ما تبسَّمَت للجمع الصاخب إذ يطلب منها إعادةً وراء إعادَةٍ بإلحاح وتوسُّل، شعر بالإحباط، لا يبدو أن هذه الآنسة تَرِقُّ لحال أحدهم، لا يبدو أنها تتقن شيئًا سوى الغناء العجيب الذي يخرج من عينٍ روحيَّةٍ صافية عَذبَةٍ، لم يُصِبها كَدرٌ ولا نضوب!

عين الآنسة لا تلتقت أبدًا...

ترك عبد العليم الصالة وما تَغنَّت به الآنسة يدوِّي في أعماق روحه الحزينة، بصمتها الباكي المطبِق الذي يُغْني عن الشَّرح والتفسير: "فرضيتُ ما قسم القضاءُ وما انطوت نفسي عليه من الأسى القَتَّالِ"!

"يا نعيم القلب وأساه!"...

ظلَّ يحدِّث عبد العليم نفسه، ويعيد عليها ما عَلِقَ بروحه من كلمات القصيدة التي نَظَمَها رامي ولحَّنها القصبجي، لم يكن يريد الوصولَ إلى بيته، بحث عن مصطفى في الجوار، وعرف في أي البيوت يقضي ليلته، فتحت له إحدى الفتيات، وكانت بالكاد تفتح عينيها المخمورَتَيْن النَّاعِسَتَيْن، في زيٍّ يكشف عن صدرها وذراعيها، وعندما وَجَدَته أمامها تعمَّدَت أن تكشف عن ساقيها برفع الثوب إلى أعلى بخفَّة، سأل عن صديقه فقالت إنه بالداخل، وبإمكانه الانتظار في إحدى الغرف، بعد استئذان سيِّدَتِها بالطبع، وقبل أن يدخل عبد العليم الغرفة كان قد دفع للسيدة إيجار الليلة، دخل الغرفة مُؤتَنِسًا بوجود صديقه في إحدى حجرات هذا البيت المزدحم، كان في قرارة نفسه يحتاج إلى بعض التشجيع ليُقدِمَ على خطوةٍ كهذه، كرجلٍ غير معتاد على الشرب ولا على خيانة زوجته، ظلَّ يسترجع آخرَ مَرَّةٍ ضاجَعَ فيها صابرة، دون أن يشعر بنفورها ودون أن تنهره وتؤنِّبه، نعم، هو في حاجة الآن إلى ذاكرته ليخونها بكل ما يملك من قوة، ولكن هل يحتاج فعلًا عبد العليم إلى امرأةٍ فحسب؟ أم أنه يحتاج إلى صدرٍ حنون يرتمي فيه دون أيَّة حسابات؟ يحتاج إلى لسانٍ يتذوَّق بيرته ويقول من أعماقه: الله، تسلم إيدك يا عِلوة! ربما يحتاج إلى لحظة جنون يفقد فيها السيطرة على نفسه، يفقد فيها كل شيء؛ فقط لكي يَذهَب هذا الحزن من حيث أتى؛ لأن الحزن عندما يرحل لا يبرح النفس وحيدًا، هو عادةً ما يصطحب معه أجزاء حيَّة: قِطَعًا من أرواحنا...

دخلت عليه امرأة في أوائل الثلاثينيات من عمرها، بيضاء وممتلئة القوام بالشكل الذي يثيره تمامًا، كان في أَتَمِّ الاستعداد للوقوع تحت تأثيرها، نثرت شعرها البُنِّيَّ المُمَوَّج، ومشت على جَسَدِها بكفَّيها، مُستَعرِضةً مفاتنها أمام عبد العليم وهي تضحك بمكر، كانت ترتدي قميصًا أزرق اللون يلتصق بها، ودَّ عبد العليم بشدَّة لو كان في موضع هذا القميص تمامًا، وأخذ يقترب منها بعد التعارُف السريع الذي تَمَّ بينهما، أخبرته باسمها وهو يُقبِّل منبتَ نَهدَيْها: "امتثال"، طلب منها أن تناديه بعِلوَة، كلما نطقت بحرف اللام ازداد تعلُّقًا بها، ظلَّت امتثال تكشف عن جسدها لعلوة المنتظِر بشبَقِ المحروم، حتى صار منها في موضع قميصها الأزرق قبل أن يخلعه عنها، هو الآن يحيط بها إحاطةً تامَّة، يلهو بمفاتنها كما يحلو له، تضحك كمومسٍ محترفة تعرف متى تَئِنُّ، ومتى تموء كالقِطَّة، ومتى تصرخ، ومتى تلوذ بالفرار، أمَّا علوة فكان مُلتَذًّا ولا يريد لهذا الحلم أن ينتهي أبدًا، فما أجمل الامتثال لأمره، وما ألذَّ أن يشعر ذَكَرُ النخلة بنفسه بعد كل تلك القسوة!

الأمر ليس مكلفًا أبدًا! ويبدو يسيرًا وبسيطا بشرط: أن يجد امتثال في كل مرَّة يزور فيها هذا البيت، خرج بعد أن دَسَّ في كفِّ المرأة مبلغًا إضافيًّا مقابل المتعة الإضافية التي منحته إياها، وقبل أن يخرج من الباب ناداها: امتثال! فالتفتت له بكامل جسدها وقالت: نعم يا علوة، صمت لحظاتٍ وقد قفزت الآنسة أمامه فجأة وهي تغني على صورة غير المبالي، فقال لنفسه مجدَّدًا: عين الآنسة لا تلتفت أبدًا!

لم يقابل مصطفى ولكنه خرج راضيًا فخورًا بفحولته التي امتدحتها امتثال بأفحش ما يمكن من كلمات، كيف عرفت امتثال العِلّة وعالَجَتها في ساعة زمن؟

"يا سلام عليك يا واد يا عِلوة"!

شعر بطاقةٍ كبرى تسري في كيانه، طاقة لصُنع المزيد من البيرة، بإمكانه في تلك اللحظة أن يملأ منها قدورًا تسقي الحيَّ بأكمله، ولكن هل يعود إلى البيت؟ ولمَ لا؟ لم لا يجعل صابرة تتألَّم بالظنون والشكوك عندما يستلقي بجانبها ورائحة "امتثال" تفوح من جسده؟

لا لن يعود الليلة، سيذهب إلى طرة إلى حيث ينتمي، الخواجة ستافانوس على حقٍّ: نحن ملوك هذا العالم!

- مبدَّر يعني يا عِلوة!

داعَبَه أنطون محاولًا أن يعرف السر وراء مجيء عبد العليم مُبكِّرا، ولكنه لم يَبُح به، تكتَّم أمر الليلة التي قضاها مع امرأتين لا مثيل لهما: الآنسة وامتثال! ثم بدأ صوت تلاوة عذبة يملأ الأركان، يتردَّد صداها كأنما أُطلِقَت من السماء، تتنزَّل الآية وراء الآية، وعبد العليم يبحث عن مصدر الصوت الذي برق في صحراء طُرَة بلا سابق إنذار، يتتبَّع الصوت ليجد شيخًا نحيلًا كفيف البصر جالسًا فوق تَلَّةٍ، يرتِّل في خشوعٍ ولَذَّة، لا تبدو عليه أمارات البؤس ولا الجوع، وقف يستمع إليه في ذهول وسعادة، وما أن انتهى من تلاوته حتى اختفى كأنَّ الأرض انشقَّت وابتلعته، صحا عبد العليم من غفوته مُلتَذًّا قرير النفس نشيط الجسم:

- اللهمَّ صَلِّ ع النبي!

هكذا اكتَمَلَت أركان المتعة، ويستطيع أن يبدأ عمله بكل نشاط.

"بسم الله الرحمن الرحيم! يا فتّاح يا عليم"!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(18)

أحفاد ديونيسوس

في الأوبرا الخديوية، وفي ليلة سبت من ليالٍ عديدة جاد بها الزمان على أهل هذا الزمان، اجتمع الأخوان وزوجتاهما، كيكي وسيبيل، وقد استقرُّوا جميعًا بالبنوار الأيمن المحجوز لهم سلفًا منذ أسبوع، ينتظرون بتلهُّفٍ رَفعَ الستار عن رائعة بوتشيني التي سمعوا عنها كثيرًا: أوبرا "توسكا"، سيبيل حُبلَى للمرة الثانية، من بعد ولادة ابنها وقُرَّة عين والده: تيودور، منحها ذلك شعورًا غامرًا بالسعادة، بالزَّهو أحيانًا كثيرة، يفوق كلَّ أَلَقٍ قد تتمتَّع به امرأةٌ في مثل عمرها ووضعها الاجتماعيِّ المختلف، ولكنها لا تنسى كونَها فرنسيَّةً كاثوليكية لا تلقى ترحيبًا كبيرًا وسط عائلة يونانية أرثوذوكسية، ولا أنها زوجة لبولي المعروف بمزاجه الشَّره للنساء، هي فقط تتغافل بذكاءٍ حادٍّ، كحيوان بَرِّيٍّ مُتمرِّس على القَنْص، يترك للصيد وقتًا وفسحةً للعب قبل اللحظة الحاسمة للانقضاض، بالرغم من مظهرها الهادئ البرَّاق الملائكي من الخارج، لكن سيبيل ليست مجرَّدَ امرأةٍ، هي عقل مُتَّقِد مُنتَبِه لكلِّ ما يحدث حولها، كيان مستقلٌّ يَستَمدُّ قوته من الداخل، صلبةٌ هي، تبدو مُسَيطِرَةً على بوليخروني، "تستعمره" بلُغَةِ العصر، وتنازعه نفسه فيها مجاهدًا إيَّاها بألَّا يُغضِبَها، قدر ما تحتمل طباعه البَرِّيَّة الميَّالة للحرية والانطلاق... بات تيوخاري يختلس النظرات إليها لا يقدر على كتمان الحنق عليها، ما صرفه عنها غير الشرود في أمرٍ آخر، سيطر عليه شيئًا فشيئًا منذ اتَّخذ مقعدًا أمام العرض المبهر، يعاني تيوخاري دومًا كلَّما قَدِمَ إلَى هذا المكان، لا يقدر على التَّمتُّع بروعته، تُهَيمِن عليه روحه النقدية الهائمة في ماضي الأجداد القدامى، ينهمك في رسم صورة لمسرح ديونيسوس في قلب أثينا، هو حاضِرٌ ضمن أربعين ألف متفرج، على بوابة المسرح العتيق يقف حارس الجنَّة الإغريقية واضعًا في يده ويد كل من ارتاد المسرح من الدراخمات ما يكفي عمل يوم كامل، فقط لكي يجلس ويشاهد ويتعلَّم كيف يشعر ويفكِّر، التراچيديا في أبهى صُوَرها، الكوميديا، الشِّعر، اللَّعِب:

- نحن مَن علَّم هذا العالَمَ كيف يلعب! كيف يتعامل مع عبث الدنيا ومآسيها، وفي الوقت نفسه لا يَدَعُ تقديس الآخرة يسلبه شهيَّتَه للحياة. المسرح هو ذاته المعبد، ألم يكن هناك مقعدٌ محجوز لتمثال الإله ديونيسوس وسط الآلاف، مِمَّن يعبدونه ويُقدِّسونه؟

ديونيسوس إله الخمر والفنون والجنون، السعادة والشقاء، الصيف والشتاء، الذكورة والأنوثة، الهزائم والانتصارات، الحياة والموت، ديونيسوس هو إلهي المفضَّل لأنه مُتناقِض، لو أن للإنسان أن يصير إلهًا فسوف يكون ديونيسوس لا رَيبَ! ولكننا تَغيَّرنا، حتى احتفالات الإله ديونيسوس المليئة بالشُّرب والرقص أصبحت تحت مُسمَّى آخر: احتفالات أبوكريس التي تؤدَّى في الكنيسة لأسبوع، ولأسبوع يُؤكَل اللَّحمُ كلَّ يوم، ثم لأسبوع ثالث يُحظَر أكلُ اللحم، ويرتدي الناس الأقنعة... لا أعلم لماذا يجب أنَ أرتدي قناعًا؟ ومِمَّن عليَّ أن أتَوارى وأختبئ؟

ظَلَّ كوزيكا يُحدِّث نفسه وماريو كا□اردوسي يبثُّ توسكا أشعار الغرام، ويتخيَّل أنه تارَةً مُصارِعٌ في حلبةٍ، مُكلَّلُ الرأس بإكليل الزيتون بعد هزيمة غريمه، وتارةً كأنه أحد فلاسفة أثينا الكبارَ،

يُجالِسُهم ويشاورهم في المعضلات الكبرى، وتارة نبيل من النبلاء، يَسري فيه الدم الأزرق الذي تمتدّ من خلاله دَيمومَةُ الآلِهَة وخلودها فتُخَوِّله الحُكم!

هو الآن في قلب المعجزة التي أذهَلَت العالم، كيف أضحت المُثُل العليا والقِيَم هي المقياس الحقيقي لسُموِّ الإنسان وعُلُوِّ شأنه لا الثروة؟ مُعجِزة أثينا التي جعلت شعبًا بأكمله يتمتَّع بالرياضة للجسد، والموسيقى للروح، والأدب للعقل- مشمولًا برضا آلهته ومؤازرتها ورعايتها له في اللهو والجد، حتى في الحرب التي لا يتخيَّل المرءُ أن شعبًا مُرهَفًا صغيرًا كهذا قد يكسبها، ألم يَغلِب اليونانيُّون الفُرسَ في سالاميس وماراتون في حربَيْن غير متكافِئَتَيْن بالمرَّة، كان من البديهي أن تُحسَما لصالح الفُرس؟ ولكن انتصر الإغريق! سألوهم بعد معركة سالاميس كيف انتصرتم؟ قال أحدهم: "انتصرتُ لأنني أدافع عن نفسي، أمَّا الفارسي فإنه يدافع فقط عن سَيِّده"!

- عَبَثٌ أن لا توجد أوبرا باللغة اليونانية! نحن مَن عَلَّم الرومان ما يفعلونه الآن! نحن مَن علَّمهم الآداب وألهمهم كيف تُبنى المدن وتولد الحضارة... كانوا بارعين فقط في القتال، والشُّرب حتى الثُّمالة! لا يقدر الرومانيُّ على كبحِ نفسه عن القتل والشُّرب، ألم يكن على كل مائدةٍ نادِلٌ يراقب النُّدمان المُسرِفين في الشراب؛ خَشيَةَ ارتكابهم لأيِّ فِعلٍ مُشين أو خطير؟

انفلَتَت منه ضحكةٌ ساخرة في غمرة احتدام الأحداث بالفصل الثاني من الأوبرا الحزينة، وانهماك الحضور في متابعة العرض الفريد؛ فانزعج الجميعُ، واستنكروا الصوت الذي قطع عليهم المتابعة المشوقة... لم يأبه تيوخاري ولا حتى بنظرات أنجليكي اللائمة التي تتحيَّن الفُرَصَ لصَبِّ غضبها عليه كلما سنحت الظروف، ظلَّ كوزيكا مستغرقًا في معجزة أثينا، وما قدَّمَته للعالم، وكيف أن أصحاب الثروات هم فعليًّا مَن هدم ذلك الحلم، وبرغم كراهيته للنُّبَلاء أصحاب الفضل في تحقيقه، إلَّا أنه تعاطف معهم كأنهم نجوم آفِلَةٌ، أظلمت من بعدها دنيا الحق والخير والجمال:

- كان النُّبَلاء -مثلهم كمثل الآلهة- يمسكون بزمام الأمور كلِّها ظاهريًّا، بإيهام ما بأنهم يحكموننا، إلا أنهم صامتون، على الحياد، لا يملكون حمل أحدهم على الإذعان لمشيئتهم! ربَّما من أجل ذلك أحببتُ المسيح؛ لأنه تكلَّم قبل أن يأتيه الكلام، وتبخَّر الصمت في الطريق إليه، هو بذاته كلمة جَلِيَّة أصيلة لا تحتاج إلى أحرف لتُنطق، تحتاج فقط إلى قلوبٍ تؤمن بصدقها. الجليليُّ الراعي، وصانِعُ النَّبيذ، وابن الرب! أَلَا يشبه ديونيسوس؟ لأن كليهما إنسانٌ وإلهٌ في آنٍ واحد، كلاهما وُلِدَ مَرَّتَيْن: مرَّةً من أمِّه، ومَرَّةً من الرب أبيه! فماذا تعني قيامة المسيح إن لم تكن ولادةً ثانيةً له من فم الرب الذي ألقى كلمته: يسوع؟

اختلست كيكي النَّظراتِ لزوجها، تحاول التعرف إلى هذا الشخص الذي ينام إلى جانبها كل ليلة، ويقدِّمها على أنها زوجته... تتساءل: أين ذهب الفتى القديم؟ الشاب الممتلئ حُبًّا، مَن سيبيع عمره مقابل مقعد بجانبها، يتيح له فرصة سماع أنفاسها واضطراب وجدانها على نغمات الأوبرا؟ ما الذي يحدث عندما نحظى بمَن نحب؟ ما لهذا الكساد العاطفي -بلغة المال التي لا تفهم سواها يا مسيو كوزيكا- ينمو ويتضخَّم حتى يحبس الحياة بداخلنا؟ أرجعت أنجليكي الأمر -كسائر نساء عصرها- إلى أمرَيْن: أولهما أنها لم تنجب الولد إلى الآن، والثاني وجود امرأة أخرى في حياة زوجها، تركت كيكي دموعَها تنساب بدون مُقاوَمَةٍ أو مُجاهَدَة، لن تجد فرصة أفضل للبكاء، فلن يلحظ أحدٌ شيئًا: الظلام،

المسرح الذي يملأ العيون دهشة ومُتعَة وشوقًا لمعرفة النهاية، لكل صُحبَة يأنس إليها وينعم بها، كلها أسباب تُلهي عن مراقبة امرأة تبكي على نور خافت، وإن لاحظها أحدُهُم فسيُرجِعُ الأمرَ كلَّه -حتمًا- إلى توسكا! ما أن تساقطت دموعها حتى صارت ترى انعكاس روحها أمام عينيها في مرآة مخبوءة عن الأعين، يرسمها الكتاب المُقدَّس بمهارة في سِفْر راعوث: " وَقَالُوا: "أَهذِهِ نُعْمِي؟ فَقَالَتْ لَهُمْ: لاَ تَدْعُونِي نُعْمِيَ بَلِ ادْعُونِي مُرَّةَ، لأَنَّ الْقَدِيرَ قَدْ أَمَرَّنِي جِدًّا"([17]).

"اعرف نفسك، لا تتطرَّف، اليقين يجلب الخراب"، هذا ما أعطيناه للكون وكتبناه فوق معبد دلفي للعالمين، أنا أعرف نفسي وقدري وطبقتي: صاحب ثروة، ولكني لا أعيش كأغنياء عصري، أمَّا بولي فهو بارِعٌ في تجسيد الحكمة الأخيرة، هذا الملعون مَرِنٌ كقطعة عجين، لا يستمسك بشيء ولا يَثِقُ بأحدٍ، ومُستَعِدٌّ دومًا لتغيير وِجهته بالكُلِّيَّة، ما زال تَصَلُّبي يَحُولُ بيني وبين نجاحاتٍ أكبر وثروات أضخم بكثير! ولكن أعترف: كنتُ سأرضخ بِرِضًا تامٍّ لمشيئة بركليس في مجلس الشيوخ عندما طالب بأن ينفق الأغنياءُ من مالهم على عرضٍ مَسرحيٍّ أو أكثر دون مقابل من الدولة، الأمر الذي كان سيرفضه بوليخروني رفضًا باتًّا، بل أظنه كان سيصنع ما صنع الدَّبَّاغ الذي انتظر ظهور بركليس على المسرح أمام الجماهير العريضة وداس على إزاره فكاد أن يتعرَّى في حركة انتقاميَّة ساخرة لتتحوَّل التراچيديا إلى كوميديا على الفور... ولكي أكون صادقًا مع نفسي، لا تزال لعبتي المفضَّلَة هي لعبة الأطباق الطائرة، المهم فعلًا هو التَّوازُن المنشود الذي سيجعل أطباقي تتأرجح بمهارَةٍ فوق عيدانها وفوق أرضٍ صلبة لا تهتزُّ.

ثم نظر تيوخاري إلى أخيه مبتسمًا في إشفاق، وغبطة، يعرف أنه مستغرق في التطلُّع إلى نهود النساء في الصالة من خلال نظارته المكبِّرة، يعود إلى شروده ويتمنَّى لو أن بإمكانه رؤية المستقبل بوضوحٍ وجَلاءِ نَظَّارة بولي، أو أن لديه شخصيَّةَ أخيه غير المكتَرِث...

- يا لهؤلاء الحمقى، الذين يتركون كل هذا الجمال الجالس إلى جانبهم ليُسلِموا أسماعهم وأبصارهم إلى عرض سخيف كئيب، لَطالما كرهتُ الأوبرا ولم أجد في تلك الأصوات التي تتبارى في العُلُوِّ والإزعاج ما يجعل هؤلاء المجانين يولونها اهتمامهم وحُبَّهم، إن دندنة عجوز على شاطئ كاريستو وهي تصنع السِّلال، بحشرجة صوتها وبُحَّته الخَشِنة وأنفاسها المتقطِّعة لَهِيَ أجمل وأَشَدُّ أثرًا في نفسي من هذا الصراخ، إن غانِيَةً نحيلةً من أثر الجوع تمسك بالتمبورين تشدو وترقص في حانة صغيرة بإحدى الأَزِقَّة في بلادي بالتأكيد أروع من تلك البدينة ذات الوجه والصوت المنتفِخَيْن... حتى الغناء العثمانلي وإن كنتُ أبغضُ التُّركَ أشدَّ البُغضِ إلَّا أن المصريين جعلوا هذا الغناء عذبًا وبديعًا... لا أستطيع أن أبقى في القاهرة لوقتٍ أطول، أفتقد الإسكندرية بشكلٍ لا يوصف، بقدر ما أَدَرَّ علينا مصنع طرَة الجديد ربحًا وفيرًا لم نكن نحلم به، إلَّا أن مكوثي في القاهرة سلبني الكثير من الانطلاق والمتعة، اللتان كنتُ أتمتَّع بهما في الإسكندرية، آه... راكوتيس لكَم عَوَّضتني كثيرًا جدًّا عن هيلادا... أمتع رحلاتي تكون في القطار عندما يستبدُّ بي الشوق للبحر فأذهب بلا تَرَدُّدٍ وبدون أن أُبلِغ أحدًا... أتَّصِل بهم عندما أصل: أنا هناك! لا تبحثوا عني! ثم ما فائدة أن تمتلك ثروةً بلا أدنى مَقدِرَة على الاستمتاع بها؟! لا أعرف لماذا يفعل تيوخاري ذلك؟ لماذا يُقتِّر على نفسه بهذا الشكل؟ إنني مُشفِقٌ على كيكي وإيكا، يبدو لي وكأن تيوخاري لا يُفكِّر فيهما على الإطلاق... على أيَّة حال، سأتمتَّع بما أشاهد من جمالٍ الليلةَ برغم الضوء الشحيح، وسأنسى ما يضايقني، حتى حصار القنصل الفرنسي

الجالس إلى جانبي: سيبيل! سأتذكر أنني صاحب أكبر مصنع لصناعة الكحول والبيرة في مصر والسودان وإثيوبيا، سأنسى حتى أنني شريك!

أُسدِلَ الستار بعدما قَتَلَت توسكا نفسها لتلقى حبيبها الذي رماه الجند بالرصاص، بعد تصفيق الجمهور الحاد وتحية المُؤدِّين الطَّليان، تصوَّرَت كيكي والدموع تغرق وجهها أن الرَّبَّ قد انتهى من متابعة الأوبرا، وراح يتفقَّد قلوب المشاهدين ليَطَّلِع إلى أمنياتهم ليُسَرِّي عنهم بعد التراچيديا المؤلمة التي طهَّرَتهم من خطايا قديمة أو محتملة، فشبَّكَت يديها على الفور متأهِّبةً لزيارته في غمار التصفيق وصخب التحايا، حوَّلَت أنچليكي المسرح إلى كنيسة للرب، ثم همست: أيُّها الرَّبُّ يسوع، يا مَن قُلتَ تعالوا إليَّ أيها المُتعبون والثَّقيلي الأحمال وأنا أُريحكم: ها أنا آتي إليكَ وأضع أمامك كلَّ أعباء حياتي؛ لأنني أؤمن بأنك ستحملها عني اليومَ -وكلَّ يَومٍ- كما حملتَ الصَّليب ذات يومٍ، وها أنا أغسل باب حياتي وحياة عائلتي بدَمِكَ الكريم. آميين...

أفاقت كيكي من صلاتها على صرخة مدوِّية انطلقت على مقربة منها، إنها سيبيل! كانت تنزف بغزارة، كان الحدَثُ جَلَلًا ومُباغِتًا ولم يُحسِن أحدٌ التَّصرُّف، عن جَهلٍ تام بما لا بُدَّ من عمله في هكذا حوادث، وبعد مُضيِّ وقتٍ بدا طويلًا جدًّا أخذوها إلى المشفى، حيث فقدت ما تبقى من جنينها في أحشائها، بَدَت سيبيل كأنها نزفت روحها مع طفلها المنسكب في صورة دماء، شيء ما ذهب ولم يَعُد مرَّةً أخرى...

أصبح المسرح فارغًا، من المؤدِّين والجمهور والعُمَّال، وأرواح الآلهة القديمة، بعد أيام تَمَّ هَدمُ الديكور استعدادًا لعروضٍ أخرى أكثر جمالًا وبهجة، في نفس الوقت كان ديكور آخر يُنصبُ بسرعة واحتراف في قرية مصرية خضراء تحيط بها الحمائم ويختبئ أطفالُها الحفاة في أجران الغلال، ديكور لمحكمة ومشنقة وبشر كُثرٍ خائفين، في التراچيديا يُعدَمُ فَلَّاحٌ أوَّلًا، ثُمَّ يُجلَد آخر بالسَّوط الإنجليزي ذي الأذرُعِ الخمسة، ثم يُعدَم واحِدٌ ويُجلَد الآخر مُجدَّدًا، وهكذا، وهكذا حتى نهاية المأساة المصرية... وُجِّهَت إلى هؤلاء التُّهَم بلا جريرة، وأصبح الجُناةُ ضحايا، لو طال قضاة تلك المسخرة الهزلية رأسَ الشمس التي قتلت الضابط الإنجليزي بول بضربةٍ قاضية لشنقوها هي الأخرى.

ولأن العروض الكبرى لا تُقام إلا هنا على مسرح الأوبرا الخديوية؛ أُعِدَّ ديكور خاص وعظيم لحفل توديع الحاكِم بأمر الشيطان لورد كرومر، المسؤول الأول عن مذبحة دنشواي، والذي خَيَّره رئيس الوزراء بين تغيير سياسته في مصر أو استقالته، فاختار الرحيل، وحتى آخر كلمة نطَقَ بها في حفل الوداع، كان يَسبُّ أصحاب الجلاليب الزُّرق: الفلَّاحين.

فأصبح لسانُ حال أُمَّةٍ بأَسرِها ما قال "شوقي" فيه:

لمَّا رَحَلتَ عن البلاد تَشهَّدَت

فكأنَّكَ الدَّاءُ العَياءُ رَحيلا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(19)

عينان بِلَونِ البيرَة

"أكيد أبو ديل نِجِس أَخَذُه معاه في سهرة من السهرات إيَّاها يا صابرة"!

قالتها شوقة بغيظ عندما عَلِمَت من صابرة أن عبد العليم لم يَبِت ليلةَ أمس في بيته، هي تعلم جيدًا أمرَ مصطفى، وتدرك أنه يقضي كلَّ ليلة مع "مَرَه شَكْل" على حَدِّ قولها، تَنعِتُهنَّ بأقذع الصفات، ولا تُفوِّت فرصةً لِسَبِّ زوجها وأُمِّه المتوفَّاة، ليس بمقدروها أن تنسى، ولطالما طلبت منه أن يتزوَّج ويتركها لحال سبيلها، ولكنه يُصرُّ على الرفض، هي التي يبدو أن نفسها قد عافت الرجال، وليس مصطفى وحده، ولكن آخر ما كانت تتخيَّله هو ما حلَّ بعبد العليم، أن تمتدَّ يَدُ هذا الشيطان للرَّجُل الطَّيِّب الأمير!

- هي حَصَّلِت لسي عبد العليم!

قاوَمَت شوقة مشاعِرَ جديدةً عليها، استغربتها وحاولت أن تلفظها وهي تبصق في منديلها الورديِّ، إنها... إنها تغار على عبد العليم:

- لا، لا أستغفر الله.

ظلَّت تبصق في المنديل حتى كادت أن تتقيَّأ، ولكن إحساسها بالغيرة عليه لم يفارقها، صمتت طويلًا وصابرة تسترسل في حديثها وسبابها لأبي العيال "العايب"، خائن العيش والملح، "اللي عيشته حرام في حرام"، تَنهَّدَت ثم قالت دامِعَةً:

- رضينا بالهَمّ!

حاوَلَت شوقة أن تداري حنقها وثورتها؛ فغلَّفتها كلها بالتهديد والوعيد لمصطفى، وقد أقسَمَت أن "تِطيِّن عيشتُه" جزاءً بما فعل بالرجل، ووَعَدَت صبر الجميل بحَلِّ المسألة الليلة، ونصحتها بألَّا تُؤنِّبَه، وبأن تُحسِن إليه وتُخفِّف من حِدَّة العتاب والسِّباب:

- ده مهما كان راجل، وما يستحملش كده يا صابرة!

- راجل؟ يا فرحتي براجل عيشته كلها حرام في حرام، راجل ملعون ورامينا كُلِّنا معاه في النار!

- استهدي بالله يا اختي، مِسيره رَبِّنا يهديه، المهم الصبر عليه، ده ثواب كبير قوي، وبعدين انتي ناسية اسم النبي حارسه طلعت واللّا إيه؟ عمره ما يستغنى عن أبوه أبدًا.

- يا حَبِّة عيني طول الليل يسأل عليه!

- حِنَيِّن وطالِع لُه.

وشردت شوقة في حنان سي عبد العليم، اليد التي تربت على كتف البناتِ، الظهر الحَمول الذي تَحمَّل كل هذا التجريح من سنوات طويلة، ومن بعده بلاء وراء بلاء: ما حلَّ بوداد وزوجها، ثم ما حدث لنعيمة، وفوق ذلك كله ما تفعله صابرة به ليلَ نهارَ! وتخيَّلَت روحها في مكان صبر الجميل، لو كانت هي زوجة سي عبد العليم! ولكن بشكلٍ ما كانت شوقة بالفعل تقوم بواجبات الزوجة تجاه صاحب هذا البيت، كم مرَّة عاد من عمله مُتعَبًا ليجد شوقة هي مَن أعدَّت له طعامه وهيَّأت له مضجعه، مُقدِّمَةً له الحلوى التي يُحبُّها مع القهوة؟ تعترف شوقة أنها تجد في ذلك سعادةً كبرى... كم مرَّةً أَسَرَّ إليها بغضبه وحزنه بسبب ما تفعله صابرة؟ بل أكثر من ذلك، كيف إرتمى في حِضنها الواسع بعد وفاة عبد الباقي عندما وصل ليلتها إلى البيت وكانت صابرة وبناتها كُلُّهنَّ مع وداد في بيت الست فوزية، أصرَّت شوقة على انتظاره لِتُعدَّ له طعامه وتسدَّ احتياجاته بدلًا من صابرة في تلك الليالي العصيبة، تقضي النهار مع وداد، وتعود عصرًا لبيتها، ثم منه إلى بيت سي عبد العليم...

كيف لها أن تنسى ما حدث في تلك الليلة؟

لقد بكى الرجل على صدرها كالطفل، وبَكَت هي أيضًا فوق رأسه، بكت كل السنوات التي كان يجب أن تعيشها بصُحبَةِ ابنها المتوفَّى، وبكت قَدَرَها القاسي الذي تحمَّلَته في رضاء، وبكت روحها أيضًا... لشدَّ ما احتاج كلٌّ منهما إلى الآخر في تلك الليلة!

غير أن عبد العليم لم يبرح ضَمَّتَها، أزاح عنها طرحتها وظلَّ يَتأمَّل وجهها وعينيها الدامعتين، لونهما! ما أشبهه بلون البيرة! شعر برغبةٍ جامحة في تقبيلها، لم تقاوم، ترَكَت له شفتيها في رضا، شعرت بأنفاسه كلها في جوفها.

في القبلة، هناك رَجُلٌ يختطف أنفاسَكِ، ورَجُلٌ يَهَبُكِ أنفاسه، أدرَكَت شوقة الفَرقَ فقط في تلك اللحظة، ولكنها أفاقت في المنتصف، وأحسَّت بالمرارة والرخص والوجع، قلبها أعادها إلى التسليم بالأمر، همس لها بأنها لا بُدَّ أن تفعل ذلك من أجل صابرة، لِمَ لا تَفكُّ كَربَ هذا الرجل وتريح قلبه المُنهَك؟ تحمل بعضًا من همومه كي يحمل هو عن صابرة همومَها ومَخاوِفَها؟

كان قَلبَها أم وسواسَها؟

منذ تلك الليلة وهي تعرف جيدًا أنها أرادت ذلك بشدَّة، رغبت فيه، وما زالت على حالها منذ قام عنها عبد العليم دون أن يتفوَّه بكلمةٍ واحِدَة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(20)

الملك تيودور الثَّالث

بعد سنواتٍ من الانتظار، ومن فقدان الأمل، ثم البحث عنه في رحلةٍ شاقَّة- أخيرًا صارت أنچليكي حُبلَى للمرَّة الثانية، لم تتوقَّف صلواتها تَضرُّعًا، ضاعَفَت العطايا التي تُقدِّمها شهريًّا للفُقَراء واليتامى والمساكين؛ عسى الرَّبُّ أن يَهَبَها الذَّكَر الذي تتمنَّاه، أعاد هذا الخبر السعيد الحياة لقلبها الحزين، حتى كوزيكا -الذي لم يَعتَد الابتسامَ لفترة طويلة- عاد له الكثير من الصفاء القديم، وصار يجترُّ مَشاعِرَه الأولى تجاه حبيبته، وأخذ يسأل نفسه في استغرابٍ: كيف انقضى هذا الزمان؟ وفيمَ أضعتُ تلك السنوات الطويلة إن لم تكن في حُبِّ كيكي وإيكا؟ لِلَحظَةٍ شَعَرَ تيوخاري بأنه كمن فَقَدَ ذاكرته ولا يعرف كيف مَرَّ كل هذا الوقت دون أن يشعر. استفاقت نفسه على تأنيبه لها، ودافعت عن حَقِّها في بناء الثروة التي بات يحلم بها طوال حياته، والتي هي في الوقت نفسه الأمان المُحقَّق لعائلته، تيوخاري ليس مجرَّدَ تاجرٍ يونانيٍّ مثل آلاف المقيمين هنا: هو الآن صاحب فابريكة، وأحد أبرز أعضاء الغرفة التجارية اليونانية بالإسكندرية، صاحب أسهم كبيرة مع مسيو هنري نوس في شركة السُّكَّر، وعليه لم يكن الطريق سهلًا قطُّ، ولم يَسلَم في أي وقت من المنافسين، الذين حاولوا مرارًا إضعافَه وإذلاله، هموم البورصة وتَقلُّباتها التي تُلاحِقه ليلَ نهارَ، جشع الإنجليز وما فعلوه بالبلاد. ولكن لماذا يفكِّر فيما حقق الآن؟ عليه أن يُفكِّر فيما هو على وشك التَّحقُّق، ستنجب كيكي بالتأكيد ولدًا يصير عَونًا له، وتكون بذلك قد حِيزَت له الدُّنيا وما فيها! يا لَكَرم يسوع!

ولكنَّ الأحلامَ يجب أن تقطعها اليَقَظَة، فقد الأخوان عَمَّهما يانِّي، في لحظةٍ غير مُتوَقَّعة بالمرَّة، أَسلَمَ الرُّوحَ في هدأة النوم اللذيذ، لم يَمُت من جرَّاء قصفٍ ولا تحت وطأة وباءٍ ولا من مرضٍ نَهَشَ جسده وجعله يتمنَّى الموت، دفنه الأخوان في الإسكندرية كما أوصى، بينما بقيت ألكسندرا ذاهِلَةً لأيَّام، لا تعلم ما تقول وما تفعل، يا لَوَجع الفراق الذي يسبقه طول المعشر، وحُسنُه، وذكرياته التي لا فَكاكَ منها! تخيَّلَت الأرملةُ المكلومة نفسَها في منتصف دائِرَةٍ مُحاطَةٍ بتلك الذكريات: حُلوِّها ومُرِّها مع يانِّي، والتي تُضيِّق عليها الخناق تدريجيًّا، تقترب منها وتُخيفها حتى تكاد تُغرقها! كان الحزن لفقد العم لا يضاهيه سوى الفرحة بولادة الابن الجديد للعائلة، الآن فقط يستطيع تيوخاري أن يَطمَئِنَّ، ويَقَرَّ عينًا، تستطيع كيكي النومَ بعُمقٍ دون رؤية كوابيس مُزعِجَة توقظها مذعورةً، تستطيع إيكاترينا أن تجد أخًا تلهو معه، وتقول لزميلاتها بالمدرسة: لديَّ أَخٌ أصغر يُدعى... صحيح! بِمَ ندعوه؟ وقَفَت العائلة بشَوقٍ تنتظر تَسمِيَةَ الابن الجميل، الحفيد الأصغر للجَدِّ تيودور، النَّائِم في السماء، لن يهمَّ إذا سَمَّى بولي ابنَه تيودور، سيُسمِّي تيوخاري ابنه أيضًا تيودور، إنه حُلمٌ قديم، سيتركه ليُحقِّق نفسه بنفسه، سيكبر هذا الولد ويكمل ما ابتدأه أبوه، الفابريكة: مصنع طرة الكبير، الكحول المقطَّر الذي جَنَى من ورائه مكاسِبَ طائِلَةً، وبيرة "إيكا" التي ينتجها المصنع الصغير المُلحَقُ بأخيه، أرباح غير مسبوقة، بالإضافة إلى توريدات منتظمة لمعسكرات الجيش الإنجليزي عبر البحرين والنهر، تُرى هل يكمل الولدان ما بدأه الأخوان؟ هل يخوضان معًا حربًا في سبيل البقاء؟ كل الخوف من الغيرة، أن تدبَّ الخصومة بين الأخ وأخيه وبين أبناء العمومة، كل العائلات الكبرى ينتهي ذِكرُها على هذا المنوال، ولا يعود لها صيتها مُجدَّدًا إلا ببتر العضو الحاقد الحاسد الطامع... هنا توقَّف سَيلُ الأفكار

والمشاعر المتدفق لدى تيوخاري، وهو يُهَدهِدُ تيودور المولود منذ ساعاتٍ عندما تأمَّل وجه سيبيل، المتظاهر بالفرحة، قرأ تيوخاري ما خبَّأته وراء قسمات وجهها الباشِّ، فلم يَرَ سوى الحقد والحسد والغضب، في الحقيقة صارت سيبيل شخصًا آخر منذ فَقَدَت جنينها، عندما ينهمك الإنسان في طرح أسئلته على الرَّبِّ ولا يجد إجابةً شافية فإنه يتغيَّر، تسكنه الوساوس، وتتمكَّن منه الخيبات، ويلتقطه اليأس، يصير الحزن صديقَه الصَّدوق وعَدوَّه اللَّدود في الوقت نفسه، صراعٍ يتأجَّج في قلب سيبيل عندما وضعت كيكي مولودها، عشرات الأسئلة المُوَجَّهة للرَّبِّ، اندفعت فائرةً في دمها دفعة واحدة، لازَمَت نبضها، كل نبضة تَصحَبُها اللَّعناتُ بقدر ما تحمل من تبريكاتٍ وتهانٍ، شعور مُعقَّد لا يُخمِده شيء ولا يرضيه شيء، الوحش الصغير القابع في سُفل القلب يتمنَّى لو مات الصغير، لو كُتِمَت أنفاسه، ولكن تعود روح سيبيل المخدَّرة للحظاتٍ لِتُلجِم الوحش عن عذابات التَّمنِّي، وبَشاعَته...

احتفل الثنائي السعيد خيرَ احتفال بولادة تيودور الثالث، والتُقِطَت لأربعتهم صورَةٌ تَعمَّدَت فيها كيكي أن تُلبِسَ تيودور رداءً ملكيًّا أزرق اللون، وأن ترتدي إيكا ثوبَ الأميرات وتاجًا ذهبيًّا مُرصَّعًا باللؤلؤ.

اختارت أنچليكي لتيودور مُربِّية خاصَّة، من بين عشرين فتاة وسيدة، لم يستغرب تيوخاري ما تفعله كيكي، ولكنه لام عليها أن تكون هناك مُربِّيَة في البيت بالفعل وتطلب أخرى!

- □يكتوريا لا تَصلُح لتربية تيودور، إنها حادَّة الطِّباع، قاسية، حازمة أكثر من اللازم، وتلك الصفات لا تتناسب مع طفلٍ رضيع يحتاج إلى الحُبِّ والحنان والرعاية الفائقة.

ضحك تيوخاري بمكرٍ:

- غريبة! ألم تكن تلك الصِّفات المُثلَى لتربية إيكا؟ ألم تَكُن رضيعَةً هي الأخرى؟

- بلى يا حبيبي، ولكن لا تَنسَ، تلك الصفات الإنجليزية تتناسب مع تربية الإناث، لا بُدَّ من الشِّدَّة والحَزم مَعهنَّ.

- والذُّكور أيضًا، بحسب منطق حَضرَةِ اللورد كرومر، المطرود بغير رَجعَة!

- كنتَ تكرهه بشدَّة.

- وسأظلُّ على كراهيتي له، هذا المجرم المُتعَجرِف!

- تتحدَّث وكأنَّك فلَّاحٌ من دنشواي!

- فلَّاح من كاريستو وابنه ملك!

- المهم، لماذا تؤنِّبني على اختيار □يكتوريا؟ لقد كُنتَ أنتَ مَن اختارها! ألا تتذكَّر؟!

ردَّ تيوخاري مُتهكِّمًا:

- أنا؟ رُبَّما لأنها على اسم الملكة □يكتوريا! تعرفين كم أحببتُها! ولكن قولي لي: تُرى مَن اخترتِ هذه المرَّة؟

- فتاة تُدعَى "سيمون"... إنها في غاية الرِّقَّة والعذوبة والحيويَّة، فرنسيَّة من تولوز!

- حُلوة؟

- أَيُّها الماكِر! هذا ليس من شأنِكَ!

- عمومًا كيكي أعرف لماذا اخترتِها فرنسية! أنتِ الماكرة يا كيكي! تريدين إذلالَ سيبيل؟ أليس كذلك؟

- أوه، يا أُمِّي العذراء! أنت شِرِّير تيوخاري...

- المهمُّ... يستحقُّ ابني تيودور وجهًا صَبوحًا يُشرِق عليه كلَّ صباح... على كلٍّ، افعلي ما شئتِ يا حبيبتي، أتمنَّى أن يُعوِّضَكِ تيودور عمَّا حُرِمتِ مِن سعادةٍ طوال السنوات الفائتة، ولكن رجاءً لا تنسَيْ إيكاترينا، حاذري من الاهتمام الزائدَ بتيودور أمامها، لا أريدها أن تتعذَّب وتحمل ضغينةً لأخيها منذ الصِّغَر!

- ماذا تقول؟ بالطبع يا تيوخاري، لا تقلق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(21)
مسخرَةٌ هَزليَّة

عادت شوقة إلى بيتها لتستقبل مصطفى بكل ألوان التوبيخ والسِّباب، قلَّبَت في الصفحات القديمة، واتَّكَأت على الجراحات من جديد، هَدَّدَته أنها سوف تترك البيت إن لم يترك هو عبد العليم لبيته وعياله!

وقف مصطفى ذاهِلًا لا يفهم شيئًا، لقد جُنَّت المرأة بكل تأكيد، ولكن ساوَرَه القلق على صديقه وأخيه، تُرى ماذا حدث؟ لقد تركه للتَّوِّ في طُرَة، وكان ضاحكًا، مَرِحًا، كما لم يكن من قبل! وبدأ يسأل شوقة وأجابته بأنها تعرف أين كان كلاهما ليلة أمس! أقسم لها أنه لم يَرَ عبد العليم بالأمس، وأنه رآه فقط في العمل مثل العادة!

بالطَّبع لم تُصدِّق شوقة شيئًا من حديث مصطفى، والذي حاول أن يكتم ضحكته مُتخيِّلًا عبد العليم في أحضان امرأة أخرى، وأنه أخيرًا عمل بنصيحته، وبدأ يفهم: ألهذا كان مَرِحًا اليومَ هكذا؟ تراه مع مَن قضى ليلته؟ سأحرص على معرفة اسم تلك المرأة لأذهب إليها! كان هذا كل ما يشغل باله في أوج غضب زوجته!

أمَّا صابرة فغرقت في الظُّنون والشكوك، وخشِيَت على العيال لو جُنَّ أبوهم وتَعلَّق بحُبِّ المومسات وضَيَّع ماله كلَّه عليهنَّ:

- والبنات دي أَجَوِّزهم منين؟

شعرت بالحيرة، وبدأت تلين لنصائح شوقة... لا يوجد حَلٌّ آخر... لا ضَيرَ من بعض المُسايَرَة، بعض اللين، إظهار شيء من المحبَّة، أو حتى تَصَنُّع القَلَق عليه!

ولكن عبد العليم لم يَعُد تلك الليلة أيضًا، تَوَجَّه الرَّجُل مُباشرةً إلى بيت السيدة "مَزاجات"، دفع الأُجرَة، وهمس في أذن سيدة البيت بأن تُحضِر له "امتثال"، ضحكت عاليًا وهي تناديها، ثم قالت له:

- طلباتك أوامر يا بِك!

أطلَّت امتثال من داخل إحدى الغرف، كانت هيئتها غير مُرتَّبَة، ومع ذلك تهَلَّلَت أساريرها عندما رأت عبد العليم، أشارت له مزاجات بأن ينتظرها في تلك الحُجرَة، ولكنه لم يكن ينتظر بمُفرَدِه تلك المرة، أحضر معه زجاجة براندي وعِدَّة زجاجات من البيرة الطازجة تقرع بعضها البعض، صنعها بيديه خِصِّيصًا من أجل امتثال، ملفوفة بحقيبة من الورق تخفي ما بها عن العيون. بدأت موجاتُ اللَّذَّة تسري في جسده بمجرَّد رؤيتها، تناوَلَ عِدَّةَ رشفات من زجاجة البراندي، وعندما فتحت امتثال بابَ الحجرة عليه في قميصها الأسود كان جسده كلُّه ينبض بالرغبة فيها، طلب منها أن تتذوَّق صُنعَ يديه، وهي جالسة على السرير، جلست امتثال مُنفرِجَة السَّاقَيْن، وأخذت الزجاجة بين ثدييها، مُطبِقةً كليهما حول زجاجة البيرة ثم رفعتها إلى شفتيها، تساقط المشروب برغوته الوفيرة على ذقنها ومنبت

صدرها، جُنّ جنون علوة، فأخذ يَلعَقه من فوق جسدها الناعم، لم يشعر في أيِّ يوم بإثارة مثل تلك، أفرغ زجاجة بيرة أخرى فوق شعرها، ومنه إلى جسدها العاري، كانت امتثال تضحك وهي تطلب منه التَّوقُّفَ، بلا فائدة.

تتلصَّص مَزاجات على الغُرَف كالمعتاد، لتضمن سَيرَ العمل كما تريد، وتتأكَّد من إخلاص بناتها التام، شاهَدَت ما فعله عبد العليم بامتثال، المهم أن يشعر الزبون بالاكتفاء والراحة، هذا هو الضمان الوحيد لعودته، وهذا ما يهمُّها! المهم أن يتمكَّن منه هذا الإحساس ويملأ كيانه: أن هذا البيت هو الملاذ، وأنه لا يشعر بالحرية أبدًا إلَّا في تلك الحجرة الصغيرة، وفوق هذا السرير، مع تلك المرأة... نعم، هناك مُتَّسَعٌ من الحرية في بيت السِّتّ مزاجات، حتى لو كان هذا البيت في بلدٍ ليس سوى سجنٍ كبير، لقد رأت أشياء لا يمكن تصديقها من غرابتها وشذوذها وبشاعتها، وكلها تتلخَّص في كلمة واحدة: الناس مزاجات؛ لذلك لم تُسمِّ المرأةُ نفسَها بهذا الاسم عبثًا، هي في الأصل زينب، ابنة المُزارِع الطَّيِّب منصور، والتي جار عليها الزمن مثل الآلاف ممَّن يُشبهْنَها في البلاد، ولقد فهمت قانون اللعبة جيِّدًا، واختارت بناتها بعنايَةٍ فائقة، ونظرة لا تخيب...

النساء أنواع: نوعٌ ناقم، الواحدة منهنَّ تعيش على الأيام الخوالي قبل أن تبيع روحها بالمال والطعام والكساء، تفعل ذلك كراهةً، حتى لو بدا أنها تُسايِرُ الزُّبون، لا تنظر في مرآة، حتى السُّكْر لا يشفيها، تلك تُمثِّل خطورةً كبيرة على بناتها؛ فلا تُبقِي عليها إلَّا إذا كان جمالها يخلب اللُّبَّ، هكذا تضمن زبونها باستمرار، وتضمن أن تراها زميلاتها في حالاتِ الرضوخ التام لمشيئة الست مزاجات؛ فيبعدن عن خواطرهن أيَّ ظنونٍ أو أحلام بالإفلات. هناك نوعٌ رَضِيَ بالأمر الواقع، ما أنسب هذه الكلمة: الأمر الواقع! كم تُعبِّر عن مدى خضوع امرأة لمُواقَعَة الرِّجال! هذا النوع لا يشكو، غير مُتطلِّب، يُخيَّلُ إليكَ كلَّما نظرتَ إليهن أنهن تماثيل من الشَّمع، جُثَثٌ مُحنَّطة بجودة فائقة، حتى إن الكلمات والحركات والأصوات حُنِّطَت هي الأخرى، لا جديد أبدًا في فُرُشهن، أمَّا النوع الذي تنتمي إليه امتثال نوعٌ نادِرٌ من النساء، نوع مُخلِصٌ للعطاء الكامل لأي رجل، نوع لا يفكِّر أبدًا في شكل الزبون أو طباعه، هي في النهاية لا تهتمُّ إلَّا بمزاجه، الشيء الذي يُفضِّله ويثيره ويجعلها ترى وجهه في حالة السُّكْر والغياب، أشد حالات النشوة، امتثال تقتات على وجوه الرجال المُشبَعين بها ومنها؛ وهذا ما يجعلها تحتمل "قساوة المهنة وبلاويها"، فماذا تريد الست سوى نظرة رضا في عين رَجُلها؟ يُخيَّل إليها أحيانًا أنها "مِشَخَّصاتِيَة" في مسخرة هَزليَّة، وأن كل هؤلاء الرجال ليسوا حقيقيين، إنها مجرَّد أدوار يلعبونها، من المؤكَّد ستتبدَّل هذه الأدوار يومًا ما، وحتمًا ستنتقل من دور المومس إلى أدوار أخرى تثير الفَخارَ والبهاء -وربما الضحك- في نفوس المتفرجين وفي نفسها هي الأخرى!

عاد عبد العليم في اليوم التالي إلى البيت، مُتوقِّعًا أيَّ شيء من أم العيال: التجريح والسِّباب، وحتى قذفه بالقباقيب، ولكن لم يكن يتوقَّع أبدًا مقابلتها له بكل هذا اللين، كانت مُبتَسِمَةً وهادِئَة، وجهها الأبيض المشَرَّب بالحُمرَة -الذي طالما أسكَرَه- رائقٌ، باديةٌ عليه أمارات الرِّفق والسلام، التفَّت حوله البنات مُتسائلاتٍ عَمَّا حمله إليهنَّ والدهن بعد غيبة يومين، قفز طلعت يريده أن يحمله بين ذراعيه، أمَّا صابرة فأحضرت الطاولة المُحمَّلة بطيب الطعام والشراب، وجلست بجانبه تُطعِمُه بأناملها، كان عبد العليم مذهولًا ممَّا تفعل المجنونة بنت المجانين، التي لا تلين إلَّا بالشِّدَّة، ولا تُرخي جَناحَها سوى ذُلًّا وقهرًا، "أبِهَذا وحده ينصلح حال النساء العُوَّج يا علوة؟".

تكاد صابرة تتميَّز من الغَيظ، تحاول بكل ما أوتيَت مِن قوةٍ ألا تَظهِر غضبها لعبد العليم، شعرت بأنها بصدد تَحوُّلٍ كبير يحدث لها، ليس مجرَّد تَغيُّر يحدث لزوجة تحاول الاحتفاظ بزوجها الذي "يخَلْبِص"، بل ذلك التغيير الذي يكسر "النِّفس" والخاطر، ويجعل المرء بلا روح مع مرور الوقت، أو الآخر الذي يخلق منها رَجُلًا بدلًا من تلك الأنثى الوَلُود، الرجل الذي يُصرُّ أن يحمل الأعباء بمفرده، دون مساعدةٍ من أحد، رجلٌ صبور كاظم للغيظ وللوجع والخوف ولموت الأولاد، لا مفرَّ من مُعاينة كل هذا الألم دفعةً واحدة، لن يعاينه أحدٌ بدلًا منها أو منه، لا فرق... وشرَدَت في اسمها "صبر الجميل"، وأصله المُشتَقِّ من الدَّواء المُرِّ "الصَّبر"، الذي بَدَت وكأنها تتجرَّعه وحدها، ثم بدأت تعي بعد كل هذا العمر المعنى الحقيقي للصبر، الصبر صمتٌ عن الشكوى، لم يَعُد الكلام يريحها أو يزيح عن قلبها المُثقَل ما تعانيه، وفي نفس الوقت لا تستطيعُ أن تحبسَه، الكلامُ المحبوس سجينٌ ينهش في أحشائها، ما الحل إذًا؟ الحل أن يذوب الكلام، يتلاشى كأنه لم يكن...

ولكنَّ عقلها لم يُرِحها، ظلَّت تخفي وراء ابتسامتها الكذوب تفكيرًا عميقًا؛ بحثًا عن حَلٍّ لهذه المهزلة التي لن تستطيع مُواجَهَتها أو احتمالها لوقتٍ طويل، ثم أطلقت ضحكةً رقيعةً عاليةً من أعماقها، وهي تُلاطِفُ صَدرَ عبد العليم، ضحكة حقيقية، لا زَيفَ ولا تَصنُّعَ فيها، ضحكة أنثى تَعلَّمَت كَيدَ النساء لِتَوِّها، وعرفت كيف تُنهي ما لا يقدر الرجال على إنهائه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(22)

ما لا يعرفه سمعان

لم يهتم سمعان في أي يوم من الأيام بتتبُّع شجرة عائلته اليهودية، ولو سأله أحد جيرانه في الحارة أو زملائه في فابريكة طَرَة: "هل وُلِدَ أجدادُكَ بمصر؟"، سوف يقول بثقة وعدم اكتراث: "لا أدري"، بعكس غالبيَّة أبناء طائفته الذين إذا اجتمعوا تحدَّثوا عن أصولهم، وتَفنَّنوا في سَرْدِ ما عانى أجدادهم منذ القِدَم طِيلةَ بقائهم في مصر، وحتى عندما كانوا يهاجرون منها ليعودوا إليها مُجدَّدًا، على اختلاف الحُكَّام والأَزمِنَة، ولكن ما يعرفه سمعان جيِّدًا هو أنه مصري، سيبدو ذلك على ملامحه رغمًا عنه بكل وضوح، وإن كانت عيناه مُنتَفِخَتَيْن، وتحيط بهما الدمامل بصورة ملحوظة؛ الأمر الشائع بين عشيرته بفعل زيت السمسم المواظبين على تناوله، ولكنَّه على الأقل ما زال يرى بهما بعد نجاته من التراكوما التي لم تترك مصريًّا إلَّا وقد أصابت عينيه، يتحدَّث في البيت والفابريكة ويُنَكِّت ويُقَفِّي ويسبُّ ويرفث إلى امرأته بالعربية، ويصلِّي ويستمع إلى العِظات والابتهالات بالعبرية، لا يتحدَّث اليديش، ولم يتعلَّم الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية، يدرك منها فقط ما يلزمه للتعامل اليوميِّ، اضطرَّ إلى تَعلُّم اليونانية، بفضل الخواجة ستافانوس، الذي اكتشف في سمعان موهبة نادِرَةً تلخَّصَت في قدرته الفائقة على تمييز طعوم البيرة ومعرفة أَجوَدِها وأَحسَنِها وأكثرها طَزاجَةً، كانت تختبئ وراء هذا الجلباب الأبيض البسيط مَعرِفَةٌ كُبرى بالشراب وطريقة صُنعِه بشكل مُتفرِّد واستثنائيٍّ، لم يتذوَّق ستافانوس في حياته "عَرَقًا" كالذي يصنعه سمعان بنفسه ويقدِّمه في الأعياد كهدية، ومهما حاول ضبطَ المقادير فإنه يفشل في جلب الطَّعم الذي يُخرِجُه سمعان؛ فأصبح قائمًا على تَذوُّق البيرة قبل تعليبها ثم خروجها إلى أماكن التوزيع. بشكلٍ ما كان سمعان مُحافِظًا على التقاليد اليهودية أكثر من كونه مُتديِّنًا، يعجب من كل هؤلاء الذين يؤكدون على أنهم يهود شوام أو مستعربين أو سافارد أو أشكيناز، وإن كانوا ربَّانيِّين أو قَرَّائين:

- مَن صَنَعَ تلك الفُرقة، وكل هذا الشَّتات؟!

لطالما شغله هذا الأمر، وعاش يسأل نفسه منذ صِغَره، منذ تَفتَّحَت عيناه على الحارة المنقسمة إلى شياختَيْن، والمعابد المُخصَّصة لكل طائفة دون الأخرى، دون أن يفهم، كان يذهب مع أبيه للصلاة في كنيس موسى بن ميمون، سمع المؤذِّنَ لأوَّل مَرَّةٍ ينادي بصوتٍ عذبٍ وباكٍ:

- شماع يسرائيل... أدوناي إلوهينو... أدوناي إحاد... أدوناي هو إلوهيم... أدوناي ملِك... أدوناي يملك ليولام □ائد...

سأل أباه "معتوق" ماذا يعني هذا الكلام، فوبَّخه، قال له أَلَا تعرف لُغَةَ آبائِكَ وأجدادِكَ؟ هذا هو الأذان ويقول: اسمَعْ يا إسرائيل... الرَّبُّ إلهُنا... رَبٌّ واحِد... الرَّبُّ هو الله... الرَّبُّ قد مَلَكَ... الرَّبُّ سَيملِكُ للأَبَد...

تأخذه أُمُّه "زهرة" بالحبرة واليَشمَك خارجَ الحارة، كما اعتادت أن تفعل بين الحين والآخر، كلما شعرت بالضيق، فيَمُرَّان بمسجد الحسين، يسمع سمعان الأذان فيشعر بألفَةٍ لا يفهم مصدرها، ولكنه

يُدرِكها بقريحته، فيقول لوالدته: "شبه الأذان!"، يتأمَّل بنيان المسجد البديع وعُلوَّه مقارنة بالكنيس الصغير في الحارة، يُحدِّثها ثانيةً: "الله... جميل قوي يامَّا... ما تيجي نصلِّي هنا؟".

تعلو ضحكات زهرة قائلة:

- ماسمعكش أبوك كان قتلك!

- ليه يامَّا؟

- يا واد يا سمعان... إحنا يهود... وده الحسين جامع المسلمين.

- وإيه الفَرق؟

وهكذا ظلَّ سمعان يسأل طوال فترة طفولته وصباه، تارَةً أُمَّه، وتارةً أباه، دون أن يحصل على أجوبَةٍ شافِيَة تُلجِم فضوله، حتى عندما احتفلوا به إذ بلغ سِنَّ التَّكليف، وأضحى الجميعُ ينادونه "بـار متسفاه" في فرح- لم يكن يفهم شيئًا، وظلَّ يسأل الحاخام، الذي ظلَّ يتأمَّله في إعجابٍ، مُتمنِّيًا أن يصبح مثله في يومٍ من الأيام؛ من كثرة ما يَلقَى من احترامٍ وتقديس.

كانت أسعد أيام سمعان على الإطلاق يوم "عيد النصيب"، أو "الأقدار"، العيد البابلي القديم، حيث كانت تُقرِّر فيه الآلِهَةُ مَصائِرَ البَشَر، هو نفسه "عيد بوريم" الذي أنقَذَت فيه إستير يهودَ فارس من الذبح، تتحوَّل الحارة في هذا اليوم إلى جَنَّةٍ في عيون الصغار والكبار، حيث تكتظُّ بالموسيقى وتمتلئ بالراقصات، الحواة يُبهِرون العيون بألعابهم البصرية والنارية، تُستَأجَرُ الخيول ويصعد على أظهرها الشباب والصبيان والولدان بصُحبَةِ آبائهم، يتمتَّعون بما ظلَّ مُحرَّمًا عليهم لقرون، فلم يكن مسموحًا لِذِمِّيٍّ بالرُّكوب لسنوات طويلة، العَرَق والبيرة في أيدي المحتفلين، الجميع يقرع الكؤوس، تُطِلُّ الفتياتُ بمَكرٍ من بعيد، بعيونٍ مرسومة بالكحل من خلف اليَشمَك، يتَنَهَّدنَ كلَّما رأين شابًّا وسيمًا يرقص ليلفتَ الانتباه، كلٌّ تتمنَّى الحظوة برجلٍ مثله...

"آه، هذا هو العيد!"

يتذكَّر أنه رأى حِنَّة لأوَّل مَرَّةٍ في عيد بوريم، مع أول كوب عَرَقٍ تَخيَّل أنها تنظر إليه، مع الثاني رآها تغمز بعينها اليُسرَى، مع الثالث ظهرت أمامه حاسِرَةً الرَّأسَ، ومع ثُمالَة الكوب الرابع قَرَّر أن يخطبها، وبعد أسابيع ظفر بموافقة والدها وحاخامات الطائفة، فتزوَّجها، وكانت في الثامنة عشرة.

قضى طفولته يتضرَّع إلى أدوناي كي لا يأتي يوم السبت أبدًا؛ لخشيته من الظلام، ولِعَدَم السَّماح له باللعب في الخارج مع العيال، حتى لو لم يكن هناك عيال أصلًا، وحتى وإن كانوا غير مُكلَّفين بعدُ؛ فلا أحد يخرج من بيته يوم السبت، ولا توقَدُ نارٌ، الإفطار من بقايا الفول المدمِّس منذ أمس، مُضافًا إليه بعض القِشدَة، والغداء "دفينة" مُعدَّة سَلَفًا أيضًا، والتي تحوي بطاطس وبيضًا ولَحمًا، وأحيانًا كوارع... حاول عشرات المرَّات أن يتسلَّل خارجًا، وكان معتوق يُشبِعُه ضربًا مُبرحًا كلما فعل ذلك، إلا أنه لم ييأس من المحاولة، حتى نجح في إحدى المرات، ورأى الحارة كما لم يرها من قبل: هادئة... جميلة... فارغة... اكتشف سمعان -مع الوقت- أنه يصير أكثرَ راحَةً وطُمَأنينةً بمفرده، خاصةً بعد تلك المرَّة التي خرج فيها يوم السبت من البيت ومن الحارة كلها، ذهب ناحية الحسين، باحثًا عن أطفال

يلعب معهم، الشحَّاذون يُطوِّقون المسجد، ويضايقون المارَّة، أمَّا العيال فكانوا مندمجين في لعبة جماعيَّة.

لمحوه من بعيد وهو قادم، فعرفوا من سِماته أنه من حارة اليهود، انهالوا عليه سِبابًا:

- امشي من هنا يا يهودي يا كافر.

كانت صَدمَةً كبيرة لسمعان في المرَّة الأولى التي يُقرِّر فيها أن يخرق قانون العشيرة، ويذهب للأغيار ليكتشف ما يحدث وراء ظُلمَةِ يوم السبت... عاد أدراجه إلى الحارة باكيًا، ثم إلى البيت، لم يُبالِ بالعقاب الذي تلقَّاه من والده، وظلَّ يسأل: "ما العيب في أن يكون المرء يهوديًّا؟ وماذا تعني كلمة كافر؟ ولماذا نسكن هنا وحدنا؟".

كُلَّما أجابه معتوق بأنهم "شعبُ الله المختار"، وأنه يجب أن يفخر بكونه يهوديًّا، تساءل: "أين الله؟"، "مَن هو أدوناي الذي أُصلِّي له كُلَّ يوم، والذي يريدني أن أرتعد في الظُّلمَة يومَ السَّبت؟"، و"ماذا يعني اسم معتوق هذا؟"، و"لماذا يرتدي قرطًا في إحدى أذنيه؟".

سمعان بركانٌ من الأسئلة التي لا تنتهي إلَّا بضربه على وجهه، أو برَكلَةٍ فوق مُؤخِّرَته؛ لِيَصمتَ ويَكفَّ عن التفكير...

كانت تُصالِحُه زهرة في اليوم التالي بطبق من الكوشير، وتُطعِمه المفتَّقة في فمه، بأصابعها، تحتضنه وتُفضِّله على إخوته، ليس فقط لأنه البِكريُّ، ولأنها أعادت شراءه من الكوهين بخمس قِطَعٍ من الفضة؛ ولكن لأنه أشبَهُ أبنائها بها، وأكثرهم طيبةً ونَقاءً. أخبرته بقصَّةِ تَسمِيَةِ أبيه معتوق، وأنَّ جدَّة سمعان لأبيه تأخَّرَت في الإنجاب عشر سنوات، ثم جاء أبوه إلى الدنيا، وبحسب التقاليد يجب أن يُسمَّى بهذا الاسم، وأن تُثقَبَ إحدى أذنيه؛ دلالةً على أنه جاء إلى الدنيا بمُعجِزَة!

عندما يجلس الاثنان: ستافانوس وسمعان على طاولةٍ واحدة في الفابريكة، وأمامهما أكواب البيرة ليختبرا الجَيِّدَ منها قبل بَيعِها، فهما بذلك يعيدان إنتاج علاقة من نوعٍ جديد بين الإغريقيِّ واليهودي، لم تَعُد الخلافات وثنيَّةً عبرانيَّةً، ولم تعد أسماء اليهود مُعدَّلَة لتلائم الهلِّينيَّة، فيصبح يعقوب "يعقوبوس"، وإزاك "إزاكيس" وأبرام "أبراميس"، هما الآن -كلا الطائِفَتَيْن- رعايا بريطانيا العظمى، حَلَّت المسيحيَّةُ مَحلَّ الوثنيَّة، ومع ذلك لم تتساوَ الرؤوس بَعدُ، الأجنبي اليوناني المتمتِّع بالامتيازات ليس بالطَّبع كاليهودي المصري، الساعي خلف أيِّ جنسيَّةٍ أجنبية تعفيه من الضرائب.

أن تكون أجنبيًّا في مصر معناه أن تُعفَى من الضرائب وتَتمتَّع بحصانَةٍ ضِدَّ ارتكاب الجرائم.

ولكن سمعان لم يسعَ كغيره من اليهود وراء جنسيَّةٍ أجنبيَّة، هل لهذا السبب أحبَّ البيرة؟ لأنها مثله ومثل بني قومه، لا يمكن خَلطُها مع أيِّ شيءٍ آخر، اليهودي لا يبحث سوى عن الرغوة الغَنيَّة الطافية على سطح البيرة، مجرَّد جدارٍ فاصِلٍ يَعصِمه من العالم الذي لم يَتقبَّله يومًا إلَّا في ظروف استثنائية، كان يجب أن يبتعد اليهوديُّ عن الطريق، يُنحَّى جانبًا ليفسح المجال للأطهار من المسلمين المارِّين، وبطرطور فوق الرأس كما كان الحال أيام المماليك، ما الفرق بين الطرطور والطاليت (شال الصلاة)؟ وما سوف يَستَجِدُّ من أدواتٍ لتمييز هذا العِرْق؟ بل وكل عِرقٍ يخالف الأغلبية السائدة المتناغِمَة؟

كان جيرانه ينظرون إليه نظرةَ الأحمق عديم النّظر، كيف لا يذهب في زَمرَة اليهود أقرانه الذين استغلُّوا فرصة حريق ليفورنو في إيطاليا واَحتراق سِجلَّات المواطنين، وسارعوا إلى القنصلية الإيطالية لتسجيل أسمائهم كمواطنين طَليان؟! هل يُصَدَّق أن يرتمي شعبُ الله المختار في أحضان الرُّومان؟

شعب الله المختار هم الآن المفضَّلون الأثرياء، الذين يستطيعون شراء جنسيَّةٍ إنجليزية أو فرنسية أو نمساوية مَجَريَّة...

كان هؤلاء اليهود اليائسون هم أوَّل مَن تَمَّ استدعاؤهم لأداء الخدمة العسكرية -كمواطنين طليان- عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى وقرَّرَت إيطاليا أن تتراجع عن حيادها وتدخل الحرب بجوار الحُلَفاء...

التاريخ ما هو إلا تذكارٌ لِما قد يَصِلُ إليه عَجزُ الإنسان ويأسه، وكيف يصبح الأصدقاء أعداء والأعداء أصدقاء...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(23)

تَعويذَةٌ ضِدَّ الحُبِّ

اتَّفقَت صابرة مع شوقة على كل شيء، ورتَّبَتا للأمر بكل دِقَّة، كان يجب على شوقة أن تضغط على زوجها لكي يجلب شيئًا من أثر المرأة التي قلبت بيتها رأسًا على عقب، في الوقت الذي أوهم فيه مصطفى زَوجَتَه بصعوبَةِ الإتيان بشيء كهذا، لكنه كان يعلم جيدًا ما سوف يفعل، أوَّلًا لقضاء ليلة مع تلك المرأة التي خلبت لُبَّ عِلوة، وثانيًا ليرتاح من زَنِّ شوقة التي لا تَكفُّ عن تأنيبه، وفعلًا نجح الرجل في سرقة "أَثَر" امتثال، بعد إيهامها بأنه تَكبَّد عناءً كبيرًا ليفعل ذلك!

هرعت شوقة لبيت صديقتها بالأَثَر، وبعد تَشاوُرٍ ونقاش طويلَيْن، قَرَّرَتا الذهاب بالأثر إلى "الساحر مقار"، هناك سينتهي أمر تلك المرأة للأبد!

كان يقطن في حوش من أحواش مقابر الأقباط، يُلِمُّ بكل ما له علاقة بطقوس دفن الموتى، ويعرف الكثيرَ عن السحر والتعاويذ، ويمارس ذلك في خفاءٍ يُشبِه العَلَن! لأن الجميع يعلم أمره، وقد أَلجَمَهم الخوف، وأسكتتهم الحاجة إليه إذا قهرهم الإنسُ فطلبوا منه مَعونَةَ الجِنِّ. دخلتا عليه وحَكَتا له من أمر امتثال ورغبتهما في التفريق بينها وبين عبد العليم حفاظًا على كيان البيت وسُمعَته...

برقت عينا "مقار وهو يستحضر من كتاب السحر التعويذة الأكثرَ شرًّا على الإطلاق:

- قِفوا، أمسكوا بحصاة واعقدوا سَبعَةَ خيوط في سَبعِ عُقَد، الفظوا الاسمَ سَبعَ مرَّاتٍ، ثم ارسموا الوَجهَ في قاع الكأس، واكتبوا العبارة بإصبع مومياء مخطوطَةٍ بِدَم وطواط، أو بِدَم الحَيْض. اكتبوها على ورقة بردي، أو على الفَخَّار، أو ألواح الرصاص أو القصديرَ أو العَظْم أو الرق، واجعلوها على شكل سيف، ثم اطووها واحرقوها، أو اربطوها بذراعكم... بإبهامكم... اغرَسوا ظفركم فيها، ادفنوها مع المومياء، ضَعوها تحت عتبة بابها، أو اخلطوا الوَصفَةَ واجعلوها تشربها...

غادَرَت صابرة المقابر مع شوقة وهما ترتجفان من الرعب، ولكنهما كانتا راضيتَيْن ومُرتاحَتَيْن لدرجة كبيرة؛ فما استعصى على الإنس فِعلُه، فالجنُّ كفيلٌ به، خاصةً بعد أن قال مقار لصابرة بكل ثقة:

- هيطيق العَمى ولا يطيقها، هيكره فَرشِتها ويشم فيها ريحة عَفَن الجِتَّة اللي هندفن العمل معاها، هيشوفها يشوف الفقر في وِشّها ويِحسّ النار في عِشّها ومكتوب عليهم عداوة، العمر ينقضي وهي ما تنقضيش!

في غمار ما يُحاك لعبد العليم، جاء أخيرًا "عَدَل" ابنته نعيمة، وحدث الأمر بسرعة مُذهِلَة، ففي زيارةٍ غير متوقَّعة من ابن أخيه المتوفَّى، والذي يعمل كتومرجي في إحدى القرى، ولديه قيراطان يزرعهما، ويسكن بقُربهما في بيتٍ ريفيّ بسيط، أحسَنَ بَيتُ عمِّه استقبالَه، وأظهرت الفتيات ترحيبًا كبيرًا به كواحد من أفراد عائلة أبيهم التي لا تصلهنَّ عادةً، وفي نفس اليوم طلب "حامد" يَدَ ابنة عمِّه

نعيمة، كانت الفتاة قد ارتاحت له من النظرة الأولى، ولم تنتظر حتى رأي "وداد" المكشوف عنها حجاب السَّرائر بمجرَّد النظر في حواجب الرجال، بل وأنذرَتها:

- لو شايفة حاجة غير الخير اكتميها يا وداد!

ابتسَمَت وداد لأختها المتعلِّقة في الزيجة، وعادت لشرودها من جديدٍ دون أن تنطق بكلمة واحدة...

جاء يوم العُرس، أصرَّت نعيمة على الذهاب لنفس الاستديو القديم الذي شهد العِركة إيَّاها، انفرجت أسارير مسيو ستيفان بمجرَّد رؤية نعيمة في كنف عريسها الجديد، عرف الرجلُ بنظرَةٍ واحدة أنها سعيدة فعلًا، وأخفى صورتها القديمة دون ملاحظةٍ من أحد: صورة نعيمة بمفردها بفستان الزفاف وصُحبَة الورد، ثم أدار اسطوانَةً ينبعث منها صوت الآنسة أم كلثوم وهي تقول:

"الفل والياسمين والورد عَمَلُم سَوَا صُحبة موضة

وَيَّا الزهور دول ربطم عهد عايزين حبيبي في الأوضة

صحيح تِشابِههم وجْناته لكن وفين لونه الزاهي

وسحر جَفنه ولحْظاته وورد خدُّه ده الباهي

ده حسنكم يفضل ساعة وحسن محبوبي دايم

مفيش بقى إلَّا الطاعة لِلِّي أنا في حُبُّه هايم

انطلقت "الله" من قلب قلب عبد العليم، يتقاطع صوته مع أصوات بطانة الآنسة المستحسِنة لصوتها على الاسطوانة، تلك هي الفرحة بحق! احتضن علوة الخواجةَ ستيفان على حُسن اختياره، بينما كان الرَّجلُ في قرارة نفسه يلاغي نعيمة، هي وحدها سوف تفهم مَقصِدَه من وراء الغنوة...

مغنى ورقص وعوالم... فرح... لَكَم اشتاقه أهل هذا البيت!

زُفَّت نعيمة لحامد، وتبدَّلَت الأحوال بين عشيةٍ وضحاها، كانت صابرة وحدها مشغولةً بما هو آتٍ، وبما سوف يحدث في القريب العاجل لامتثال، لكي تكتمل فرحتها، وفي الوقت نفسه الحذر والخوف يُطوِّقان عنقها ويَسكُنان كوابيسَها بما سيفعله المال الحرام هذه المرَّة بالبنت!

شدَّت الفرحة عودَ عبد العليم، شعر بأن في إمكانه تخمير النيل بأكمله، أراد جدًّا بعد يوم عملٍ شاقٍّ أن يستمع للآنسة، ثم يكمل السهرة لدى امتثال، ولكن الخواجة ستافانوس كان في ضيافة صُحبَة طَرَبٍ وأدبٍ هذا المساء وأراد أن يصطحب عبد العليم معه، ركب سيارته لتتوقَّف بهما أمام إحدى السرايات، ودخلا، فكأنهما في قصرٍ من قصور الملكية، شعر عبد العليم بالزَّهو، واستُقبل مع الخواجة استقبالًا باهرًا، فكان هناك الأمير والأديب والطبيب والمحامي وعين الأعيان والفارس والمطرب والشاعر... كلُّهم معًا تحت قُبَّةٍ واحدة...

تحدَّثوا في أمور شَتَّى، وهم يقرعون الكؤوس، كان الخواجة يميل على عبد العليم من وقتٍ لآخر هامِسًا في أذنه: ألم أَقُل لك؟ نحن ملوك هذا العالم!

أخذهم الحديث إلى الغناء والطرب، فقال الأديب:

- يقول شُريح: "المُصيبُ المُحسِنُ من المُغَنِّين هو الذي يُشبِعُ الألحان، ويملأ الأنفاس، ويعدل الأوزان، ويفخِّم الألفاظ، ويعرف الصواب، ويقيم الإعراب، ويستوفي النغمات الطوال، ويُحسن مقاطيع النغمات الصغار، ويصيب أجناس الإيقاع، ويختلس مواقع النبرات، ويستوفي ما يُشاكِلُها في الضرب من النقرات".

- هذا والله كأنه قيل في عبده الحامولي!

قالها أحدهم بثقة، فاستحسن الحضورُ قَولَه، بما فيهم الأمير صاحب القصر، وطلبوا جميعهم من المطرب الممسِكِ بعوده أن يغنِّي لهم من أعمال عبده الحامولي... ظلَّ عبد العليم صامتًا مأخوذًا بالحديث الذي يتسلَّل إلى أعماقه كالنور في الظُّلمة، يخشى أن يلفظ أي كلمة تُسبِّب حرَجًا للخواجة، حتى بدأ المطرب ذو الصوت الشَّجيِّ يُغنِّي:

- شرِبْتُ الصَّبرَ من بعد التصافي!

آه يا عِلوة يا دَكَر النَّخلَة الجريح!

أدرك "عبد العليم" فقط في تلك اللحظة مدى الارتباك الذي سبَّبَته له صابرة، بمعاملتها الحسنة غير المتوقَّعة، ولكن "بعد إيه؟" شيءٌ ما انكسر ولم يَعُد كما كان بينهما، صحوة متأخِّرة يا سِتّ صابرة، امتثال تقي بالغرض، وتفهم جيدًا ما يريده رَجُلٌ مثل عِلوة...

غادر القَصرَ الفَخمَ الذي قضى فيه ليلة من الليالي الألف وليلة، وأوصله ستافانوس إلى حيث يريد... إلى هناك... إلى بيت الست مزاجات...

دخل وعيناه مُعلَّقتان على بابها، ينتظر أن تظهر كعادتها في أبهى صورةٍ، وبابتسامَةٍ آسِرَةٍ، خاضِعَةً، تقول "هَيتَ لكَ يا عِلوة"...

ولكن كانت مفاجأة أخرى في انتظاره بدلًا من امتثال، ألقتها مزاجات في وجهه بقسوة:

- مِش هِربِت المضروبة على قلبها!

لم تنتظر امتثال جِنِّيَّ الساحرِ مَقَّار الموكَّل بها، بل انتظرها هو، حتى أنه ظَلَّ يجيء ويذهب في بيت السِّتّ مزاجات مرارًا، مُغتاظًا، يريد العثورَ عليها...

انهالت مزاجات بالسِّباب والشتائم في شرف "عَيُّوشة" واللِّي خَلِّفوها، اسمها الحقيقي عيُّوشة، والست مزاجات هي التي سَمَّتها امتثال، وكيف كانت قَذِرَةً نَتِنَة الرائحة، مُنتَهَكَة العرض عندما جاءت إليها، خائِنَة العيش والملح، تهرب مع الولد الصايع، والذي سيلُقي بها حتمًا إلى الشارع من جديد، وراحت تدفع له بفتاةٍ أخرى عندما قرأت الخيبة في قسماته، ولكن عبد العليم كان مفطورَ القلب، حزينًا، غيرَ مبالٍ بمحاولات الست مزاجات لجَذبِه إلى دائرة اللَّذَّة مُجدَّدًا!

"هُوَّ القمر عنده خبر عن طول سُهدي؟

هُوَّ البُلبُل لما بِرَتَل بِعرَف وَجدي؟"...

كان في تلك اللحظة يُحدِّث أم كلثوم ذاتها، يبحث عن صوتها كملاذٍ يشكو إليه قسوة الخِلَّان، يعاتبها هي ذاتها، لماذا هي بعيدة هكذا؟ لماذا يتذكَّر التفاتها وابتسامها ونظراتها؟! لماذا يستحضر عين الآنسة التي لا تلتفت أبدًا؟!

"أنا باحبَّك لروحي!"...

ظلَّ يستعيد من مونولوج "الشَّك يحيي الغرام"، ويتذكَّر بحُرقَةِ تنهيدةٍ وُلِدَت من داخل أعماقه، أن امتثال هي التي أنقذته من الشوق إلى الاثنتين: صابرة والآنسة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(24)
يومٌ حافِلٌ بالقُبَّعات

آلاف القبعات افترَشَت شوارِعَ الإسكندرية، بدايةً من الميناء وحتى النادي اليوناني في قلب المدينة، أكثر من خمسة وعشرين ألفَ قُبَّعة، انتظرَت -بشَوقٍ، مع أصحابها اليونانيِّين- رَجُلًا واحدًا، اصطفَّ له الجريج، ارتدوا أبهى الحُلَل، حوَّلوا مناديلهم إلى قِطَعٍ من السماء، إلى أعلام باللونين: الأبيض والسماوي، كالعلم اليوناني، ووصل "ڤينيزلوس" بقُبَّعتِه السوداء ولحيته البيضاء، مُستَقلًّا سيارة مكشوفة أُعِدَّت خِصِّيصًا لاستقباله لكي يُحيِّي أبناء بلاده الذين دَعَّموه ووقفوا إلى جانبه في حربه ضد قسطنطين ملك اليونان، حتى وإن كان صوتهم بعيدًا عن موطنهم. يقف في المقدِّمة سينادينو، رئيس الجالية اليونانية في الإسكندرية، الأخوان كوزيكا: تيوخاري وبوليخروني أبرز الحاضرين، تيودور الثاني يصفِّق بحماسٍ مع أقرانه من الفتيان، كُلُّهم يهتف باسم ڤينيزيلوس، قُبَّعة زرقاء أنيقة تُغطِّي رأس إيكاترينا، بقوامها الفريد، وبابتسامة تليق بِربَّةٍ إغريقيَّة تشاهد الكون في صمت، أما أنچليكي، التي تمسك بِيَدِ تيودور الثالث، والذي أتمَّ عامَه السَّابع، اغرورَقَت عيناها الزرقاوان بالدموع؛ من شِدَّة التأثُّر والانفعال باللحظة الوطنية التي يعيشها أبناء هيلادا، عبثًا تحاول الحفاظ على وقارها وهدوئها وسط الصخب، كان "ڤينيزلوس" ذاته ينتظر مِثلَهم، مُحمَّلًا بالفكرة الكبرى: يونان مُمتَدٍّ من بحر إيجة وحتى آسيا الصغرى، يُهَيمِنُ على "سميرنا"، يونان مُغذًّى بأفكارٍ ليبراليَّة([18]) جديدة، يفتح عيونه على العالم المختلف الذي بات يتشكَّل ويَتَكتَّل منذ اندلاع الحرب.

كان ذلك في ربيع 1915، وسط هتاف الجموع وعبارات الترحيب والمودَّة، علَّق تيوخاري نظره على "ڤينيزيلوس"، أخذ يتفقَّد ملامح بلاده في ملامحه، هذا الشَّيبُ الساري في الرَّجُل، تُرى هل شاخت هيلاس مثله؟ يحاول أن يجمع من تقاسيم وجهه الأخبارَ، شاهد انقسامًا كبيرًا بين أبناء الوطن المُمزَّق، بين مؤيِّدٍ للمَلِك، ومُعارِضٍ له، مُعلِنًا تأييده لـڤينيزيلوس رئيس الوزراء، عاد لشروده من جديد وهو يرفع قبعته ليُحيِّي الزَّعيمَ الجديد، الذي مضى في طريقه بالسيارة المكشوفة إلى النادي اليوناني، لماذا كل هذا الشَّتات الذي يطادرهم منذ زمنٍ طويل؟ أتراها كَثرَة الآلهة التي فَكَّكَت البلاد ودفعت كل هؤلاء اليونانيين لتركها؟ أم هي إغراءات الأحلام منذ لوَّح بها محمد علي باشا؟

ذلك الحشد الضخم الذي وقف مُرحِّبًا بـڤينيزيلوس خاض أكثرُ من نِصفِه على الأقلِّ حُروبَ البلقان، الآلاف من يونانيِّي مصر ذهبوا ليحاربوا مع جيش بلادهم ضد التُّرك، أرسل إيمانويل بيناكي ولَدَيْه إلى الحرب، في حين تَبرَّع تيوخاري وبولي بِمبالِغَ طائِلةٍ لإصلاح السفينة الحربية المقاتلة چورچيو أڤيروف، على اسم الرجل الذي أسهَمَت أمواله في بنائها.

- هل كنتَ ترى بديلًا آخر عن القدوم إلى هنا يا تيوخاري؟

باغَتَه بولي بالسؤال غير المتَوقَّع، وكأنه يقرأ ردود أفعاله تجاه المشهد المهيب، هل كان هناك بديلٌ عن الحلم وتحقيقه، عن الفابريكة والتجارة والمكانة الرفيعة، عن ثروةٍ قارَبَت المليوني جنيه مصري، عن الزواج بكيكي وتكوين تلك العائلة هنا في مصر لا اليونان؟

- وهل ترى أنت بديلًا يا بولي؟ خاصَّة عن منصبك الأخير كمفتَشٍ لشركة السُّكر والتكرير جنبًا إلى جنب مع هنري نوس وهيراري؟

- كي أكون صريحًا، ليس لمصر بديلٌ بالطبع، ولكن لماذا يا أخي كل هذا الحنين لهيلادا التي لم نَجنِ من ورائها إلَّا أوجاع القلب والوحشة ومرارة الغربة؟

- لا أدري، متى سننضج يا بولي ونعتاد الابتعاد عن الوطن؟

- هل تعرف ماذا أريد الآن؟ أريد أن أرقص!

- لا أُصدِّقُكَ، أنت مجنون، بعد أقل من ساعة سنكون في حضرة الزعيم وجهًا لوجه، وأنتَ تُفكِّر في الرَّقص...

- أتدري؟ يُناسِبُكَ جدًّا مَنصِبُ رئيس الجالية يا تيوخاري، كيف تحافظ على وقارِكَ وصرامَتِكَ طوالَ الوقت؟ ألا تَملُّ؟

- وهل كان "بيناكي" صارمًا ووقورًا طوال الوقت؟

- أراهن أنك تغار من بيناكي!

- بل مُشفِقٌ عليه، لقد آثر أن يترك الإسكندرية ويتنازل عن منصبٍ رفيع كهذا ويعود إلى أثينا من أجل الانضمام للُعبَةٍ خطِرَة غير مضمونة: السياسة.

- وهل التجارة لُعبَةٌ آمِنَةٌ من المخاطر؟

- بالطَّبع لا، ولكن مَخاطِر السياسة ليست كمَخاطِر التجارة يا بولي، عندما يختلف السَّاسَةُ تقوم الحروب، عندما يختلف التُّجَّارُ يجوع الناس...

- ولكننا بالفعل شِئنا أم أَبَينا نلعب اللعبة الخَطِرَة، وإلا لماذا أَرسَلنا كُلَّ هذه الأموال لإصلاح مقاتلة حبيبك أ□يروف؟

- لا، هذا واجبٌ وَطنيٌّ يا بولي... الفرق كبير، لن نستعيد أموالنا، ولكن بيناكي يريد أن يجني الكثير من وراء لعبته.

- المهمُّ أني أحتاج إلى شرابٍ بصورة عاجلة، وإلى خصر فتاةٍ أُراقِصُها حتى التعب، لماذا لم نَبنِ ملهًى؟ كيف لا نملك حانَةً حتى الآن؟

- أتريد القضاء على سُمعَتِنا أيها الأحمق؟ أتريد لعائلة كوزيكا المعروفة بأعمالها الخيرية وإعالتها لليتامى والفقراء أن تُنشِئَ ملهًى؟ ما زلتَ لا تعرف كيف تُدار الأمور هنا في مصر! سوف يجعلنا هذا ضمن قائمة الطبقة الدُّنيا من الأروام، فِعلٌ مُشينٌ كهذا قد يَصِمُنا مدى الحياة!

- وهل ساند هذا الشَّيخ □ينيزيلوس ووقف إلى جانبه إلَّا عمومُ الطَّبقَة الدنيا من أبناء هيلاس الواقفين في البقالات والحانات حتى الصَّباح؟

- أوه، لقد أرهقتَني أيُّها العنيد، المهم أن يكسب الزعيم معركته، على أمل أن يَتَحِدَ تحت رايته يونانٌ قويٌّ مُسَيطِرٌ.

- المسيح نفسه لم يقدر على توحيد هيلاس.

في هذا الوقت كانت الإسكندرية -شأنها شأن سائر البلاد- تغلي من الداخل، ليس فقط من أجل إعلان الحماية البريطانية ووضع القُطر المصري تحت الحُكم العسكري البريطاني، ولا من أجل أخذ مليون ونصف مصري من العمال والفلاحين ووضعهم قَسرًا في فرقة العِمالَة والجمالة لخدمة الجيش وربطهم بالحبال كالعبيد، ولكن أيضًا بسبب هبوط سعر القطن منذ أمرت السُّلطَة البريطانية بتقليص زراعته والتوسُّع في زراعة الحبوب لِسَدِّ احتياجات الجيوش التي تتدفَّق على مصر، كان ذلك سببًا وجيهًا لثورة الخواجات في الإسكندرية... القطن؟... إلَّا القُطن! أمَّا مردود ذلك فعليًّا على الفلاح المصري البسيط كان غايةً في السوء... لم يَرَ تيوخاري كيف يبيع الفلَّاحون في أراضي ترعة المحمودية دوابَّهم وَمصاغَ نسائهم بالبخس، كيف استغلَّ المرابون من الخواجات -بل حتى من اليونانيين أنفُسِهم- حاجَةَ هؤلاء الفقراء إلى سَدِّ ديونهم من الضرائب الأميرية المفروضة فرضًا، ولم يُراعَ معهم أيُّ رأفة أو رحمة... لم يشهد دموعهم أمام مكاتب الجاشنجيَّة: مُثمِّنو أسعار المصوغات والحُليِّ الذهبية الذين عَيَّنَتهم الحكومة، كل ذلك من أجل ماذا؟ الحرب التي لا ناقة للمصريين فيها ولا جمل!

برغم حُبِّه لبلاده وقَناعَته بحلم اليونان الكبير الممتدِّ من بحر إيجة وآسيا الصغرى، رغبته كأي يوناني مُخلِص في التَّخلُّص من هيمنة العثمانيين والإنجليز، إلا أن التجارة عَلَّمَته أن يتبع القانون الذي لا سُلطَةَ لأحدٍ عليه: قانون المال والمكسب. كثيرًا ما تضرُّ السياسة بمصالح التُّجَّار، والتاجر الفَطِن هو الذي ينأى بنفسه عن صراعات الساسة والأحزاب، يكفيه المجازفات والمخاطرات التي يتعرَّض لها طوال الوقت، والتي قد تُهدِّد كيانه كُلَّه في لحظة. صحيح ما زال صراعٌ دام يدور في صدر تيوخاري، ذلك الصراع بين حُبِّه لمصر وبين مصالحه التي لا تقوم إلا بالإنجلِّيز، كلَّما قَدِمَ إلى الإسكندرية تَذكَّر كيف عشق وجوهَ المصريين من النظرة الأولى، بات يُصادِقُهم ويتحدَّث بِلُغَتِهم العربية بطلاقة، يُشَغِّلهم ويكرمهم ويحضر معهم قُدَّاسَ الأحد تارةً في البطركخانة، وتارةً في الكنيسة الأرثوذوكسية اليونانية، يشكو للبحر مثلهم، يستعيد تذكارات بلدته كاريستو وهو جالس بينهم، كيف ينسى "أبو جنيه" الذي أنقذه من الموت؟ وكيف ينسى ابن البلد الذي أنقذ كيكي من أيدي الرِّعاع يوم المذبحة؟ المصريون لا يَثبُتُ لهم حالٌ من الحزن أو الفرح، ولكن السخرية من كل شيء هي السِّمَة التي تُلازِمُهم مدى الحياة ولم يَتخَلَّوا عنها قَطُّ، الشيء الذي تَعلَّمه منهم في غمرة شعوره بالحزن أو الإخفاق أو الإحباط.

أعجبه ما أظهروا من حنقٍ وثورة على أحوال البلاد الجديدة، اندهش عندما سمع بالحادث الذي أُطلِقَت فيه قُنبلَةٌ من إحدى النوافذ فوق رأس الملك حسين كامل وهو يتجوَّل في رأس التين ولم تُصِبه لأنَّها لم تنفجر، وذلك الشاب تاجر الخردوات البسيط في عابدين الذي أطلق عيارًا ناريًّا على الملك، وأُعدِمَ شنقًا،كان في قرارة نفسه يتعاطف معه!

عندما غادر □ينيزلوس الإسكندرية، وبعد رحلةٍ استَقبِل فيها استقبال الملوك، كان الصراع قد وصل إلى أقصاه مع الملك قسطنطين، فأقيل □ينيزلوس من منصبه، لأن الجميع قد عَلِمَ أنه أجبرَ على الاستقالة، ثم حدث شيء أدهش أتباع رئيس الوزراء المُقال وأعداءه على السواء. انقلب الزعيم الجديد على الملك، واتَّخذ من مدينة ثيسالونيكي -بدلًا من أثينا- عاصمةً لحكومته الجديدة...

على مدار عامَيْن فكَّر أعوانه في مصر كيف يُدعِّمون الرجل وحكومته، العائلات الكبرى مَدَّته بالمال، خاصَّةً بعد احتجاز القطن مع غيرهم من الوسطاء والتجار وبيوت التصدير وحرمان الأهلين من أي ربح، أمَّا اليونانيون البسطاء من خلف حوانيتهم الصغيرة، البقَّالون والنُّدل في المقاهي والمطاعم وبائعو الأقمشة والخردوات والخمور وغيرهم- جمعوا توقيعاتٍ من بعضهم البعض ليعلنوا اعترافهم بالحكومة الجديدة، في شهرٍ واحد استطاعوا أن يجمعوا أكثر من خمسة وعشرين ألف توقيع، حتى اليونانيُّون القاطِنون بالسودان وإريتريا دَعَّموا حكومة ثيسالونيكي وأيَّدوها. وجاء الاعتِراف عام 1917 مدعومًا من بريطانيا العظمى؛ فثَقُلَت كفَّةُ □ينيزلوس، وكسب المعركة!

فرح أنصار الزعيم الجديد بما حقَّقوا، واحتفلوا في كل مكان بالرقص والغناء والهتاف والصلاة، قُرِئَت رسالة بولس الرسول إلى أهل ثيسالونيكي في الكنيسة اليونانية في جمعٍ مهيبٍ:

"أَنَّ إِنْجِيلَنَا لَمْ يَصِرْ لَكُمْ بِالْكَلاَمِ فَقَطْ، بَلْ بِالْقُوَّةِ أَيْضًا، وَبِالرُّوحِ الْقُدُسِ، وَبِيَقِينٍ شَدِيدٍ"([19]).

تحمَّس كوزيكا للأحداث الجديدة، ورأى الموقف من وجهة نظرٍ تجارية خالِصَةٍ، ما حدث لم يُثقِل كفَّةَ □ينيزيلوس فقط، ولكن أثقل كفَّةَ يونانيِّي مصر، والذين كانوا في حاجة إلى اعترافٍ قويٍّ بوجودهم وأثرهم الذي لم ينقطع ببلادهم، هنا حلم الهيمنة على تجارة المنطقة الشرقية من البحر المتوسط أصبح سَهلَ المنال والتصديق... وهذا حقًّا ما يهم تاجر يوناني هاجر من إيـ□ـويا إلى مصر، تتعاقَبُ عليه الحروبُ، الواحدة تلو الأخرى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(25)
الذِّئبَة والنَّقرَزان

عاد البيت لحاله قبل أن تتزوَّج نعيمة وتتركه، لم يكن أيٌّ منهم على استعدادٍ لِتلقِّي المزيد من الأخبار السيئة، أو بمعنى أدقَّ: اللعنات الجديدة، ومع ذلك كيف يتخلَّص المرء من التَّرقُّب؟ كيف يُسلِم النفس إلى صروف الدهر لتفعل به ما تشاء؟ لم تتخلَّص صبر الجميل ولا شوقة من القلق الذي حلَّ بمعرفة أسرار عبد العليم التي تُخفيها بيوت البغاء، ومنذ تعويذة الساحر مقار أصبح لديهما استعدادٌ لتكرار الأمر كلَّما لزم التَّدخُّل لإنقاذ السَّبع من اللبؤات، كانت صابرة تلفظ هذه الكلمة: "السبع" بكل سخرية، تمرُّ عليها الخواطر التي تلهيها عن صحبة شوقة، وتظل تفكِّر كيف أصبح الابتسام في وجه عبد العليم شاقًّا على النفس، مرارة التَّظاهُر بالاستسلام أمامه والرضوخ له والإيهام بأنها لا تبالي إن نام مع أخرَيات؛ لأنه في النهاية رَجُلٌ لا يعيبه غير جيبه، محاولات السكوت عن عمله المُحرَّم الذي يسلب البرَكَةَ من بيتها ومن أعمار عيالها وحيوات أزواج بناتها.

وداد وحدها لم تكن تترقَّب أي شيء، باتت مُستغرِقَةً في الآن الممتَدِّ لديها، فلا يغمض لها جَفنٌ إلا قليلًا، تبدو -على ما تملك من فراغ ليلَ نهارَ- مَشغولة بما لا يُرى ولا يُدرك، حتى عن الأكل والحديث، لا يبدو أن ما يوضع أمامها من طعام قد نقص من شيء، ماذا ومتى تأكل وتشرب؟ كيف ما زالت وداد تحيا؟! الإجابة ليست عند أحد...

نظراتها المُعلَّقة على الشارع وما يحويه من بَشَرٍ لا تهدأ، هي ذاتها تُفاجِئُ روحها بما يوحَى إليها وما يكشف لها من أمر البَشَر فقط من خلال النظر إلى حواجبهم، لم تخبر أحدًا بسِرِّها، ولا حتى أختها الصغرى المفضَّلة "ست أبوها"، تجنَّبَت النظر إلى وجوه أخواتها وأمها وأبيها، تهرب كلما تلاقت العيون، ولا يحدث هذا إلا نادرًا؛ لأن وداد ساكِنَةٌ أغلَبَ الوقت، ولا تُرى حتى عندما تدخل الخلاء، والحقُّ أن الجميع أصبح يخشاها، ويكره أن تَطَّلِعَ إليه، كأنها ستكشف خبايا نفوسهم بما تحوي من أسقام وآلام ومساوئ، يقابلونها على عتبات الأبواب برُعبٍ لا حَدَّ له، سوف تقترب منهم جدًّا حتى يشمُّوا رائحة نَفسِها المحترقة، لو أن وداد بعدما حدث لها سَكَبَت سائل الكيروسين فوق جسدها وأشعلت فيه النار لن تصبح الرائِحَةُ أشدَّ ممَّا هي عليه الآن، ثم لن يعرف أحد ما الذي يَردُّها عنهم في اللحظة الأخيرة الحاسمة، قبل أن ترفع يديها وتنهال بالضرب على مَن يقف في طريقها، قبل أن تُفرِغ حِقدَها وكراهيتها للعالم في صفعة، ما الذي يمنعها عنهم؟ إذا تلاقت عيناك بعينَيْ وداد ستشعر بانكسارِ خَيطِ الضوء الرفيع الذي يغذِّيهما. يسقط الكلام من فمها، غيرَ مفهوم، ثم يعود الصمت، ثم يذهب بصُحبَةِ شَبَحٍ أخرس لا تقدر على رؤيته، ثم يُخيِّم عليها خَواءٌ، كفراغ الموتى من الداخل وفراغهم من شؤونِ الدنيا قاطِبَة، تظفر بفرصة أخيرة للنجاة لتهرب من أمامها وتُفسِح لها الطريق لتعبر أنتَ إلى حياتك مجدَّدًا وتعبر هي إلى العدم.

أمَّا فوقية وعدلية الأختان اللتان قد مَنَّاهما الأمَلُ في حياةٍ تُشبِه حياة أختهما نعيمة التي ظفرت أخيرًا بزَوجٍ يُسعِدها ويحسن معاملتها، لم يكن لهما حديث إلَّا عن الزواج والرجال، استعراض تاريخ

وعائلة كل عريس محتَمَلٍ وقَعَ في محيط أسرة عبد العليم، واحتساب فرَص النجاة من جحيم العنوسة الذي ينتظرهما، كلاهما ينظر إلى وداد في إشفاق:

- ماتحكُمْش علينا يا رب!

إلَّا أن فوقية بما أوتيت من قُوَّةِ وصَلابَةِ رَجُلٍ في جسد فتاة ممشوقَةِ القوام، لديها قدرة غير عادية على التَّسلُّط والاستحواذ- أوشكت أن تُسقِط فريسةً في شباكها، تعلَّمَت أن الأيام لن تترك لها رفاهية الاختيار، وشاهدت كم يستغرق عمرًا كي يتحقَّق للمرء ما يريد، أرادت أن تخرج من دائرة اللعنات بأسرع ما يمكن، وتترك هذا البيت الحزين ولا تعود إليه، فعقل الأم وقلبها مع طلعت، الذي حتى بعد ذهابه إلى الكُتَّاب -ومنه إلى المدرسة- لا تستطيع أن تَغفَل عنه قَطُّ، وأبوها عامِلُ الفابريكة كأنه في عالَم آخر، منذ أنقذته صابرة من البغيِّ بالعمل السفلي وهو لا ينقطع عن حفلات أم كلثوم، ويعود مَسلوبَ العقل، يروي عنه مصطفى أنه يفعل أشياء غريبة في حفلاتها، ينتقل بين الابتسام والبكاء والتصفيقِ والصراخ كالمجانين، حتى الشرب لا يفعل به ذلك! كأن عبد العليم مجذوبٌ من مجاذيب السيدة ضَلَّ طريقه إلى أم كلثوم! عندما يعود إلى البيت، فقط، وخلال ذلك الوقت القليل المنقضي في البيت، لا يَنفَكُّ عن سماع أسطواناتها، ليفعل الأمر ذاته مع كل مونولوج أو طقطوقة أو قصيدة...

لن تنتظر فوقية أكثر من ذلك حتى تصيبها اللَّوثَةُ التي تَمَكَّنَت من أسرتها، ستدفع بحسنين المزيِّن لخطبتها، أفندي بظرميط([20]) بجلبابٍ وطربوش، لكنْ رَجُلٌ "كَسِّيب"، صحيح البَدَن، تستطيع سماع صوت ضحكته من آخر الحارة، لن تلين لكلمات أختها عدلية التي تحلم بالزواج من أفندي طويل كمئذنة مثل المرحوم عبد الباقي، مع شهقَةٍ أعقبتها "باسم الله" على العريس المنتظَر من كُلِّ الشرور.

- بلا أفندية بلا وجع قلب، دول خِرْعين يا عبيطة. الراجل إن ما كانش يشتغل بإيده، إيدِك منه والأرض.

- بس برضه منظر الطربوش والبدلة الأفرنجي يِفتَح النِّفس ويِشرِح القَلب.

- هتفضلي طول عمرك موكوسة يا عدلية.

تأصَّلَت لدى فوقية فكرة أن "العَلام يقصَّر الأعمار"؛ لأنه يجعل المرء حامِلًا لهموم الكون فوق رأسه، ويُطرِّي أجساد الرجال، ويُقعِدهم عن العمل الجاد الشاقِّ الذي خُلِقَ لهم، ولا تصير لهم شُغلة سوى الكلام! ترى إن جلس كل هؤلاء الرجال فوق المكاتب وعملوا فيها أفندية، من أين يأكل ويشرب الناس؟

أعجبها حسنين، راقَبَته مرارًا، وعرفت بالتقريب مَكسَبَه في اليوم الواحد، ضبطته وهو يُفرِغُ مَثانَتَه عند مقلب القمامة، وأبصرت أمارات فحولته بلا خَجَلٍ، حتى اطمأنَّ قلبها وفزع الرجل عندما لاحظ وجودها بالقرب منه، تَلفَّت حوله قبل أن يُحدِّثها:

- بتبُصِّي على إيه يا بنت الحرام؟

ابتلَعَت ضحكتها الملآنة بالفضول، ونظرت له من خلف البيشة نظرةً مُشجِّعَةً في دلال وثقة، أصلح ملابسه واقترب منها ليتَحقَّق من وجهها ويَنعَم برؤية جسدها من كثب، قرَّب أنامِلَه من نهدها فأصاب

قِمَّته، فتصلبَت وارتعشت، وباليد الأخرى مسح على قبَّة ظهرها، لم تَرُدّه، تركته يُعاينِ ما لديها من بضاعة ليُثَمِّنها ويُقيِّمَها، وقالت في نفسها:

"وحياتَك لَتِيجي على مَلَا وِشَّك يا روح أمَّك"...

وكأن فوقية ترسم أقدارها بنفسها، سعى المزين سعيًّا خلفها، مُقتَفيًا أثرها ليخطبها، وفي غضون أسابيع كانت فوقية في بيت زوجها حسنين.

كان اللقاء الأول بينهما أشبه بمعركة دامية، بلا قتلى، كلاهما منتَصِرٌ، لا مكانَ للهزيمة هنا، طالما اجتمعت القُدرَة مع الرغبة، لقاء متوحِّش فوَّار بين جسَدَيْن أرادا بعضهما بقوة، لا لين ولا طراوة ولا رأفة أخذتهما ببعضهما، لم تتصرَّف فوقية كبِكرٍ خَجلَى لم تَزِد عن سبعة عشر عامًا، ولم يجزع حسنين من البنت التي تأمره ثم تَركَبُه، استمتع بهذا التَّسلُّط، وبإعلان رغبتها فيه بلا حياء، بات مشغولًا بحِيَلِها الكثيرة، فوقية امرأة لا تعدم الحيلة، تعرف كيف تُبقيه تحت رِجْلَيْها، أصبح رَهنَ إشارتها والتفاتها، أصبح كلاهما في أسابيع قليلة كالعاشق والمعشوق، حتى أنهما لا يشتاقا إلى سواهما، أغنتهما أدوارُ الحب الطويلة -بما فيها من زيادة وإعادة- عن الطقاطيق الخفيفة التي لا تُسمِنُ ولا تُغني من جوع.

في غمار فرحة العائلة بالزِّيجة الجديدة وضعت نعيمة مولودها الأول، وسمَّاه حامد "حسين"؛ تَيمُّنًا بسيدنا الحسين، اختطفته نعيمة من بين أيدي الجميع ومشت وهي تكاد تسقط مغشيًّا عليها حتى وضعته في حِجر أختها وداد، نظَرَت إلى وجه المولود الذي يُشِعُّ نورًا وجمالًا، غرَقَت في دمعها، وهي تحتضنه وأختها في آنٍ واحد، أخذت تُتَمتِمُ بكلمات في أذن الصغير الذي سكن تمامًا بين يديها، تتطلَّع إليها نعيمة في أملٍ ورجاء، تُرى: أيُصلِحُ حسين ما أفسدته الأيام الغبراء يا وداد؟ تُرى يخرجك هذا الضعيف قليل الحيلة من حِدادِكِ وحُزنِكِ ويُعيدُك إلى رُشدِك؟ أشارت وداد لنعيمة كي تقترب وهمست في أذنها:

- ابنِك عالِم من العُلَما... اكتمي.

فكأنَّ الدماء قد اندفعت في جسد نعيمة مرَّةً أخرى لتضخَّ الحياة فيها بعد إنهاكها ونزيفها بعد الوضع، ظلَّت تَحمَد الله باكِيَةً، التقفت سِتّ أبوها حسين لِتُسلم الرضيع إلى زفَّة الزغاريد التي انطلقت في ربوع البيت، احتفالًا بالحفيد الأول، تُصِرُّ صابرة أن يحمل الخال طلعت المولود أوَّلًا ويعطيه النُّقطة المعتَبَرَة، أما عبد العليم فكان قد وصل لتَوِّه من الفابريكة، ملأت وجهه ابتسامة مُتَّهم حَرَّروه من السجن بعد انكشاف براءته. احتضنه مصطفى وعينه مُعلَّقَة على شوقة التي سرعانَ ما أشاحت ببصرها، همس لصاحبه:

- بس لو ما كانِتش الست صابرة تزعل وتتأثَّر، مش كُنَّا سَمِّيناه سعد؟

- الله يرحم الاتنين يا صاحبي.

مرَّت فقط بضعة أشهر على وفاة زعيم الأُمَّة سعد زغلول، وحضر كلاهما جنازته، ولم يكن حزنهما على رحيل قائدٍ وزعيمٍ مُلهَمٍ كافَحَ طويلًا من أجل الحرية والاستقلال، ولكن كان الحزن على الأيام

التي أعادت الروح مُجدّدًا لهم، بعثت فيهم أملًا، وأطمَعَتهم في الحصول على حقوقهم المشروعة، كان الحزن على أنفسهم: معشر الرجال الذين شعروا فقط أيَّامَ سعد أنهم رجال!

ولكن عبد العليم أسلم نفسه للفرح تلك المرة، أول ما خطر بباله أن يجعل ست أبوها تكتب خطابًا للآنسة أم كلثوم على أن يوصله بنفسه مع سبوع المولود كهدية لها، فهل نفرح وحدنا يا ولاد؟ بدون أم كلثوم؟ لا يمكن!

أظهر الجميع فرحة حقيقية، أخذت شوقة على عاتقها القيامَ بطقوس السُّبوع وإعداد المُغات وغيره ممَّا يلزم من تأمين المولود من الشُّرور المرئية وغير المرئية كافَّةً، بإخلاصٍ، وتكريس، حتى وداد التي انقطعت عن الدنيا ومَن فيها لم تفلح في إخفاء سعادتها بحسين، إلَّا واحدة، نبض قَلبُها بالحقد والغيرة من أختها، باتت النظرات الحاسِدَةُ تقفز من عينيها الواسعتين الحادَّتَيْن، وحدها وداد راحت تتصدَّى لسهام فوقيَّة؛ لأنها قرأت مكنونها بسهولة، التفتت بنصفِ عَينٍ إلى الأفندي البظرميط حسنين، وكانت تعرف جيِّدًا أن فوقية سرعان ما ستلتقط الإشارة:

- لا تجعليني أُخبِرك بطالِعِه!

ردَّت إليها فوقية نظرتها المتحدِّية بمزيجٍ عجيب من الخوف والتَّصميم، كالذِّئبة الذي تُخيفها شُعلَةُ النَّار، ولكنها تزيدها جوعًا للافتراس!

ترسل إليها وداد نظرة تحذيريَّةً أخرى، مُفادها:

"ابعِد عن الشَّرّ، وقنِّيله"([21]).

رسمت فوقية شبح ابتسامَةٍ أَمسخَ من الطبيخ الشايط، ازداد حنقها مع ضربات الهون الرَّنَّانة كنقرزان يضرب فوق قلبها في حارَةٍ مُزدَحِمة ساعة ظُهريَّة:

"اسمَعْ كلام أمَّك، ما تسمعش كلام أبوك!

اسمع كلام سِتَّك، ما تسمعش كلام جِدَّك.

اسمع كلام خالتك وداد، ما تسمعش كلام خالتك فوقيَّة"...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(26)

شجرة الحُرِّيَّة والبذرة الإغريقيَّة

خيَّم صمتٌ حَذِرٌ على العاملين بالفابريكة، حتى الهمس المختلَس ذاب على ألسنتهم قبل أن يتفوَّهوا بأي كلمة، غَضبٌ دَفينٌ حبيس الضلوع لشهور، لا يجد مَخرَجًا، كان ستافانوس على علم تام بالحالة التي تفشَّت في العُمَّال، وحاول التَّسرية عنهم بلا جدوى، حتى أنطون الذي لا يَكفُّ عادةً عن الضحك والمزاح طاله هذا الصَّمتُ المُطبِق الذي ينضح حزنًا وألمًا.

- ماذا بكم يا رفاق؟ ما لَكُم على تلك الحال التي لا تَسرُّ عدوًّا ولا حبيبًا؟

نظروا جميعًا إليه في استغراب، يلومونه بأعينهم على سؤالٍ لا مكان له في هذا الوقت العصيب. قال عبد العليم في حنق:

- ربما لأنك خواجة فلا تعرف ما يحدث، وربما لا يهمُّك!

- لماذا تقول هذا الكلام يا عبد العليم؟ ألا تعرفني؟ ألا تعرف ستافانوس جيدًا؟

حاوَلَ سمعان تَهدِئَة التَّوتُّر الناشِب بينهما:

- عِلوَة لا يقصد يا مسيو ستافانوس، إننا فقط نشعر وكأننا مثل الوَلَايا منذ أعلنت بريطانيا الحماية على مصر، نشعر بإهانَةٍ كبرى، وخيبة أمل بعد طول الرجاء.

- ألَستُم فَرِحين بإزاحة العثمانيين؟ ألم تكونوا أَشدَّ كراهيَةً للتُّرك منِّي؟

ردَّ أنطون بسرعَةٍ، وبدون تَردُّد:

- بلى، أردنا ذلك وتمنَّيناه، ولكن لم نُرِد في المقابل سُلطَةً أخرى تستأثر بكل شيء، عندئذ ستصير مِصرُ لُعبَةً في أيدي الإنجليز، ولن نحصل على استقلالٍ أبدًا...

- ألم تكن مصر لُعبَةً في أيدي الإنجليز والفرنسيين طوال الوقت يا أنطون؟ ما الجديد؟ لا أفهمكم!

ردَّ عبد العليم في تحدٍّ:

- نعم يا مسيو، لن تفهمنا أبدًا؛ لأنَّ مصالِحَكم أصبحت مع الإنجليز!

انصرف غاضبًا، ولَحِقَ به أنطون يحاول تهدئته، أمَّا سمعان فظلَّ جالسًا بجوار ستافانوس يُباشِرُ عَمَلَه ويكمل تذوُّقَ كؤوس البيرة.

- أوه، تلك الأيام تحتاج إلى محمد علي باشا، لا أحد سواه يستطيع السيطرة على الموقف.

- بل نحتاج إلى مصطفى كامل يا مسيو ستافانوس، ولكنه لن يعود من الموت، علينا الاعتماد على أنفسنا.

- وكيف ستفعلون ذلك؟ لم يُبدِ حُكامُكم أدنى اعتراض بعد إعلان الحماية. حتى الجمعية التشريعية ووكيلها سعد زغلول لم تَحتَجَّ، بل بَقِيَت صامِتَةً، والأكثر من ذلك أن الرَّجُل كان في مُقدِّمَة المحتفين بالسير هنري مكماهون أوَّلِ مندوبٍ سام بريطاني في ظِلِّ الحماية، واستقبله في المحطَّة بترحابٍ قائلًا إن دلالات الخير باديَةٌ على وجهه، وً"آمل أن يجزل الله لمصر الخير على يده".

- إذًا ما الحَلُّ من وجهة نظَرِكَ؟

- لا أجد مشكلة في الوضع الحالي، أنتم مُتشائمون، ستكسب انجلترا الحربَ بكل تأكيد، وقتها ستكون مصر مُنتَصِرَة أيضًا.

- ونظلُّ أتباعًا؟ مجرَّدَ ظِلالٍ؟ شعبًا مُحتلًّا بأكمله... لا يقدر على تقرير مصيره بنفسه؟

- أعلم أنه شيء مؤلِمٌ ومؤرِّق، ولكن فَكِّر قليلًا ماذا بمقدوركم فعله؟ لا شيء سوى الانتظار.

- أؤكِّد لك يا مسيو أنَّكَ واهِمٌ، لن يمرَّ هذا الأمر مثل سابقيه، سوف لن يمرَّ...

شرد ستافانوس فيما قاله سمعان، واستحضر ما حدث سلفًا منذ سنوات طويلة، هل من الممكن أن تحدث مذبَحةٌ أخرى كالتي حدَثَت في الإسكندرية؟ هل يأتي يومٌ قد يُذبح فيه على يد عبد العليم أو مصطفى؟

قاطع سمعان سَيْلَ أفكاره قائلًا:

- تأمَّل حبوب الشعير يا خواجة، تُخبِرْكَ بالحكمة التي لا تُغفَل، الحبوب التي تبدو مجرَّدَةً من الحياة تنبُت بدون تُربَةٍ ولا سقاية. تلك التوليفة العجيبة بين الموت والحياة هي ما تجعل البيرة جيِّدَةً، أليس كذلك؟ قد تُولَدُ الثورة في أحلك الظروف مهما بَدَا لك الفلَّاحون غيرَ مُبالين، كالموتى في الجبَّانات.

- صحيح... أنت على حق.

أمَّا مصطفى فلم يشاركهم النقاش، كان منهمكًا في تقليب حبوب الشعير فوق الموقد، ينظر إليهم ساخرًا، ثم يبتسم بنصف ثغرٍ، ويعاود الغناء مرَّةً أخرى، رمقه سمعان من بعيد، مُقَلِّبًا كَفَّيه، مُستَغربًا من هذا الرجل الذي لا يبدو عليه الغضب من أي شيء، في مزاجٍ جيد على الدوام، غير مكترث لَما يحدث من حوله، عاد أنطون متأبِّطًا ذراع عبد العليم، يدفعه دفعًا للدخول إلى الساحة الداخلية للمصنع، ثم توقَّفا بالقرب من مصطفى، حاول أنطون تلطيف الأجواء كعادته، فخاطب مصطفى قائلًا:

- ما تشوف قريبك يا عم، يعني كويس لو طَرَدُه الخواجة بلسانه الطويل ده؟

- الله يلعن أبو الحرب يا أخي.

- حد كان بِصدَّق تقوم عركة كبيرة بالشكل ده عشان واحد اتقتل؟

- ما هو مش أي واحد يا علوة... ده أرشيدوق قد الدنيا.

قاطَعَهم سمعان وهو يربت على كتف عبد العليم:

- دي لعبة كبيرة يا ولاد، وليمة وكل حي منهم له نصيب، لو حد خرج بره قانون اللعب بيهبِشوه. نصيبنا في الدنيا نصبر، ونستنَّى تروق الأحوال.

عاد سمعان من حيث أتى، لم يستطع الكَفَّ عن التفكير في شأن مصر وما يحدث لها، همس مصطفى لهما مُداعِبًا:

- باقولِّكم إيه... سيبونا من السيرة دي، عاوزين نسهر سهرة حلوة

- هو حَدّ لُه نِفْس لحاجة يا عم؟

- لا... باقولَّك إيه... اتكلِّم عن نفسك، ولو إن أرض الله واسعة يا واد يا علوة، والحريم الأجانب مَلُوا الدنيا، البَصَّة في وشِّهم تطَوِّل العُمر!

إيه يا أنطون لسَّه بتخاف من مراتك؟

- خلِّيني في حالي يا مصطفى، انت ما تِعرَفش ماري.

- ربنا يفُكّ أَسرَك.

- آمين يا اخويا.

مرَّت سنواتُ الحرب العِجاف، تضاعَفَت فيها مكاسِبُ الأَخَوَيْن كوزيكا، كان لا بُدَّ من تقديم عربون الولاء والطاعة لبريطانيا العظمى، فقدَّم تيوخاري للجيش أوَّلَ سيَّارة إسعاف، بينما استمرَّت أنچليكي في تقديم أعمالها الخيريَّة من رعاية اليتامى وتقديم العَون للفقراء والمحتاجين والمتضرِّرين من الحَرب، تَقدَّم لخطبة إيكاترينا ديمتري أحدُ أفراد عائلة لاجوداكيس، ذلك النائم على تِلالٍ من وَرَقِ البَفرَة، والذي كان له السَّبقُ في تصنيعه لأوَّل مَرَّة في مصر، وأصبح رائِدَ تلك الصناعة بلا مُنازع، كانا صديقَيْن حميمَيْن: تيوخاري ولاجوداكيس، كلاهما غير محبوبَيْن من الإنجليز، وكان هذا الموقف منطقيًّا؛ لأن بريطانيا العظمى ظلَّت تحارب ظهور أدنى فرصة لفتح باب الصناعة في مصر؛ حتى لا تستغني عن استيراد ما يلزمها من انجلترا! ولكنَّ العجيبَ أنهما لم يكونا محبوبَيْن أيضًا من رؤساء الجاليات وأعضاء المجالس اليونانية، والتي تُوزِّع ما يُنفَق من أموال وهِباتٍ، وتُحدِّد جهات الصَّرف بحسب أهوائها، كان يسيطر عليها رجال المال ومديرو البنوك اليونانيون، فاستُبعِد هذان الاثنان من أيِّ منصبٍ مَعنيٍّ بشؤون الجالية، مهما كانت حجم التَّبرُّعات وأعمال الخير التي قَدَّمها كلاهما ببذخ، إلا أن لاجوداكيس المقيم في الإسكندرية قرَّر أن ينشئ عالمَه الخاص في الإبراهيمية، الذي سمَّاه الأرومُ بالحيِّ الأحمر، بتشغيل وتوظيف المئات من اليونانيين الفقراء وتسكينهم ورعايتهم. رحَّب تيوخاري بديمتري؛ باعتباره ابنًا لصديقه لاجوداكيس، كان زواجًا تقليديًّا، لم تسبقه مَعرِفَةٌ خاصَّةٌ بين الاثنين، ولكن تَفنَّن الأبوان في تجهيز عُرسٍ يليق باسم كوزيكا ولاجوداكيس، وكانَ ذلك مَصدرَ سعادَةٍ كبيرة لإيكا، التي شعرت بغضاضَةٍ في نفسها كلَّما فطنت إلى الهدف من وراء زيجَةٍ كهذه، ولكن هذا هو قدر بنات العائلات الكبريات؛ لأنها جُزءٌ من كلٍّ... أمَّا تيودور الثاني فأصرَّت سيبيل على إرساله إلى فرنسا ليكمل دراسته هناك، كل أحلام سيبيل تركَّزَت في تجهيز تيودور للعمل مع والده وعَمِّه، فألحقته بمدرسة التجارة أيضًا مثلهما وعاد ليأخذ مكانه المنتظر في الفابريكة كما كان

مخططا. الأمر الذي بات يحلم به تيوخاري لابنه، ولكن عارَضَت كيكي بشدّة ورفضت أن يفارقها تيودور الثالث...

بات الجميع يتساءل: متى تنتهي الحماية على مصر؟ متى يتذوَّق المصريُّون طَعمَ الحُرِّيَّة؟ ومَن يحاسب بريطانيا على ما أنفقت من ملايين على حربٍ لم تدخلها مصر؟ انتفض وفد رفيع من الوطنيين -على رأسهم سعد زغلول- للمطالبة برفع الحماية وإلغاء المراقبة على الصُّحُف، طلب الوفد مُقابَلَةَ السير وِنجِت، ودار هذا الحوار بينهم:

السير وِنجِت: اقترب موعد مؤتمر الصلح، وسَيَنالُ مصر خيرٌ كثير، ولا يجب أن ننسى أن المصريين هم أقلُّ الأمَم تألُّمًا من أضرار الحرب، بل استفادوا منها أموالًا طائلة، وعليهم أن يشكروا بريطانيا العظمى التي كانت سببًا في تقليل أضرارهم وكثرة فائدتهم.

سعد زغلول: ما أن تكون انجلترا فعَلَت خيرًا لمصر فإن المصريين بالبداهة يذكرونه لها، مع الشُّكر، ولكن الحرب حريقٌ وانطفأ، ولا يبقى سوى تنظيف آثاره، لا محلَّ لدوام الأحكام العُرفيَّة ومراقبة الصحف والمطبوعات، ننتظر بفارغ الصبر زَوالَ هذه المراقبة التي أصابتنا بالضيق.

وِنجِت: صحيحٌ، أنا ميَّالٌ لإلغاء المراقبة المذكورة، ورَفَعتُ الأمر إلى القائد العام للجيوش، وآمل الوصولَ إلى ما يُرضي بعد التفاهُم مع الحكومة، المهم أن يَطمَئِنَّ المصريون ويصبروا حتى تفرغ بريطانيا من مؤتمر الصُّلح.

سعد: لقد عُقِدَت هُدنَة، ولنا الحَقُّ -كمصريين- أن نقلق على مستقبلنا، ونريد أن نعرف الخير الذي تريده لنا بريطانيا.

وِنجِت: لا تتعجَّلوا، وتَبصَّروا في سلوككم، المصريون لا ينظرون للعواقب البعيدة.

سعد: ماذا تقصد؟ تلك العبارة مُبهَمَة المعنى!

وِنجِت: ليس للمصريين رأيٌ بعيد النظر.

سعد: لا أوافقك الرأي؛ بصفتي مُنتَخَبًا كوكيلٍ للجمعية التشريعية، وكان انتخابي بمحض إرادة الرأي العام، مع معارضة الحكومة واللورد كتشنر.

وِنجِت: قبل الحرب كانت حركات وكتابات محمد فريد وأمثاله من الحزب الوطني بلا تَعقُّلٍ ولا رؤية؛ فأضرَّت مصر ولم تنفعها، والآن لا أفهم ما هي أغراض المصريين؟

علي شعراوي: نريد صَداقَة الإنجليز، ولكن صداقَةَ الحُرِّ للحُرِّ، لا العبد للحُر.

وِنجِت: إذًا أنتم تطلبون الاستقلال؟

سعد: ونحن له أهلٌ، ماذا ينقصنا ليكون لنا استقلالٌ كباقي الأُمَم المُستقلَّة؟!

وِنجِت: ولكنَّ الطِّفلَ إذا أُعطِيَ من الغذاء أَزيَدَ من حاجته تَخِمَ!

هل تَظنُّون أن بلاد العرب -وقد أخَذَت استقلالَها- ستعرف كيف تُسَيِّر بنفسها؟

كانت مصر عبدًا لتركيا، أفتَكونُ أحط منها لو كانت عبدًا لانجلترا؟

علي شعراوي: قد أكون عبدًا للتُّرك أو للإنجليز، ومع ذلك لا تَسرُّني كلتا الحالتين، لأن العبودية لا أرضاها ولا تحبُّ نفسي أن تبقى تحت ذُلِّها!

أرسل السير وِنجِت رسالةً تَستَفزُّ الوفد المصري الرفيع بقوله إنه مندهش بأيِّ صِفَةٍ يتحدَّث هؤلاء باسم الأمَّة المصريَّة؟

مع تألُّف حزب الوفد، باتت التوقيعات تُجمَع من جديد على أرض مصر!

تلك المرَّة ليست من أجل ڤينيزيلوس، ولا حتى بأيدٍ يونانية، إنما من أجل توكيل سعد زغلول ورفاقه للتحدُّث باسم الأمة المصرية. تَذَرَّع الوطنيون بإعلان مبادئ ويلسون، واتِّفاق المتحاربين على أن يجعلوا مبادئ الحرية والعدل أساسًا للصُّلح، وأعلنوا أن الشعوب التي غَيَّرَت الحرب مركزها يُؤخَذ رأيها في حُكم نفسها.

وتلك المرة لم تبارك بريطانيا العُظمى أسماء مَن وقَّعوا ووكَّلوا مثلما حدث مع اليونانيين، ولكن على العكس، أنذرت أعضاء الوفد وتَوعَّدَتهم بأشدِّ العقاب لو أنهم لم يَكُفُّوا عن أعمالهم المُحرِّضة على مقاومة بريطانيا العظمى! ثم نَفَت سعد ورفاقه إلى جزيرة مالطة...

ربما كان اليونانيون أنفسهم أصحابَ فِكرةِ التوقيعات هذه، والأرجح أنها كانت فكرةً إنجليزيَّة خالِصَةً أَسَرَّ بها البريطانيون لتكتمل مَصالِحُهم بانقلاب ڤينيزيلوس، المهم أن المصريين استخدموا الفكرةَ مُجدَّدًا ضدَّ مَن صنعوها! وأنهم حلموا بأحقيَّتهم في تقرير مصيرهم مثل سائر الأمم.

قامت مصر ولم تقعد، كان ذلك النَّفيُ بمثابة القَشَّة التي قَصَمَت ظَهرَ البعير، مجرَّد بخار ينبعث من بركانٍ يفور تحت أقدام الإنجليز، فقدوا السيطرة عليه تمامًا...

بدأت المظاهرات يوم الأحد 9 مارس، بإضراب طَلَبةِ مدرسة الحقوق عن الدراسة، قالوا: "لن ندرس القانون في بلدٍ يُداس فيه القانون". انضمَّ إليهم طلَبَةُ المُهَندسخانة، ومن بعدهم طُلَّابُ مدرسة التجارة، ثم الطب، والقضاة الشرعيُّون، واتجهوا جميعًا إلى السيدة زينب، كأنهم يشكون إلى حفيدة النبي ما آل إليه حالُهم، يتحسَّسون من أثرها المَدَدَ والبَرَكَة، عندما وصلوا إلى أم العواجز رئيسة الديوان أحاط بهم البوليس، ألقى رجالُه القبضَ على المئات منهم، لم تُدحَض التَّظاهُرَة، واتَّجَهَت إلى باب الخلق، مرورًا بشارع الخليج، اختلط الجمهور بالطلبة، وازداد الهتاف، واشتعلت الحماسة برغم حصار البوليس من كل جانب.

استمرَّت المظاهرات، وتوالت الخُطَب ولقاءات رجال الثورة في الأزهر الشريف، والحسين، وبيت الأُمَّة، و"جروبي" بشارع المناخ، و"صولت" بشارع فؤاد، وقهوة "ريش" وبار "اللواء" وقهوة "الجِنْدي" و"السلام". انضمَّ الأصدقاء الأربعة إلى الشارع، قرَّر أنطون الانضمامَ إلى الشرطة الوطنية، والتي تَشكَّلَت بغرض حماية المتظاهرين، ومَيَّزوا أنفسهم بشاراتٍ حُمرٍ تحيط بالذراع الأيسر، مكتوبٌ عليها باللون الأبيض "بوليس وطني"، حملوا العِصيَّ، وقِرَب المياه والقُلَل لسقاية الظَّمأى من الوطنيين، كان مصطفى يهتف بملء قلبه، يسمعه عبد العليم وسمعان فيبتسمان في

استغراب، أهذا هو مصطفى فعلًا الذي بَدَا دومًا كأنّ لا شيءَ يهمُّه في هذا العالم سوى نفسه؟ وهل هذا هو أنطون؟ المازح طوال الوقت، تبدو عليه كلُّ هذه الجدِّيَّة المفرطة في خدمة الخَلق؟

تعطَّل كل شيء: التِّرام، والقطار، ولم يَبقَ سوى الكارو وعربات سوارس، بينما آثر السَّوادُ الأعظم السَّيرَ على الأقدام؛ قُربانًا للثورة العظيمة، طال الغضب الكثير من المصالح الأجنبية، إلى الحد الذي جعل الثُّوَّارَ يصدرون بيانًا جاء فيه:

"إلى حضرات إخواننا ومواطنينا الأجانب،

قد تأسَّفنا نحن معشر الطلبة المصريين ممَّا وقع من الغوغاء عند قيامنا بمظاهراتنا السِّلميَّة التي ما قصدنا بها إلا إظهارَ عواطفنا وشعورنا، مع مَحبَّتِنا لمواطنينا الأجانب الأَعِزَّاء. فلنَكُن أحِبَّاء كما عِشنا على مدى الأزمان".

ما الذي بوسع خواجة يوناني أن يفعله في ظلِّ ظروفٍ كهذه؟

- أن يغلق عليه بيتَه وعَمَلَه...

قالها تيوخاري لكيكي، والتي رَدَّت في اضطرابٍ بالغ:

- ويُصلِّي!

شرعت كيكي في الصلاة، بينما يَرِنُّ جَرَسُ الهاتف، الخادم البربري يردُّ، ناقلًا إيَّاه لتيوخاري الغارق في هواجسه، الاتصال زاده قلقًا، كانت أخبارًا آتِيَةً من القاهرة، حيث كانت الأسرة تقضي بعض الوقت في الإسكندرية، والتي سرعان ما انضمَّ سُكَّانها إلى المظاهرات كذلك، عرف من بولي أن الكثير من اليونانيين اتجهوا إلى مبنى القنصلية، طالبين الحِمايَةَ من أعمال القتل والنهب والتخريب التي أصابت جماعةً منهم بأيدي الثُّوَّار المصريين...

ولكن ما حدث صبيحة هذا اليوم في القاهرة كان استثنائيًّا بكل المقاييس، أخبر بولي أخاه بأن وفدًا مصريًّا يتألَّف من رَجُلِ دينٍ وقاضٍ ومُحامٍ وطبيب وضابط بالجيش المصري، تَبِعَه حشدٌ كبير من المصريين، توجَّهوا جميعًا إلى مبنى القنصلية اليونانية، شَقُّوا طريقهم وسط حشود الخائفين، المرابطة خارجها وداخلها، هامسين لبعضهم البعض أن المسلمين المصريين سيقتلونهم مُجدَّدًا كما فعل العثمانيون من قبل، استعادوا ذكريات آبائهم عن الترويع والقتل والإبادة... أين المفَرُّ؟ وأين المَلاذُ هذه المرة؟ تَوَسُّلات وصلوات إلى المسيح وأمِّه بالحماية والرعاية... ماذا يفعل الغُرَباءُ في هذه الهوجة؟

بَرَزَ رئيس القنصلية "ساختوريس" بين الحشود، واستقبل أعضاء الوفد المصري الذين قَدَّموا عميقَ أسفهم لما أصاب إخوانهم اليونانيين من سوء، وحزنهم الشديد على الضحايا الذين سقطوا أثناء ثورتهم، تأثَّر "ساختوريس" بكلماتهم، وقال أمام الحشود الكبيرة:

- إن اليونان لم تكسب حُرِّيَّتَها بعد حرب الاستقلال إلَّا بالثورة، أنا مُوقِنٌ تمامًا أن سقوط إخواني اليونانيين لم يكن سوى حادثٍ غير مقصود، لا يُعبِّرُ عن إرادةٍ مصريَّة...

ولو أن الدّمَ اليوناني المُراقَ على أرض مصر سيروي شجرَةَ الحرية فنحن -معشرَ اليونانيِّين- نؤمن عميقًا أنها تستحق التضحية والفِداء!

هتف المصريُّون داخل القنصلية وخارجها بحماسٍ وتأثُّر: يحيا اليونان... يحيا اليونان!

في خطابٍ يُغالِبُه الدُّموعُ رَدَّ أعضاء الوفد المصري على ساختوريس بأنهم يدينون بالفضل لإخوانهم اليونانيين في العديد من الأشياء؛ فقد علَّموهم الكثير من أمور التجارة والصناعة، حتى إن الفلاح المصري لا يستغنى الآن عن بقالة يونانيَّةٍ صغيرة يتناثر الكثيرُ منها بطول السكة الحديد، أو مقهى يونانيٍّ بسيط على ناصية الحارة أو الزقاق، يُرَوِّح عن الحَزانى. كيف ينسى المصريون الجيرةَ الطَّيِّبَة والمَحَبَّة الخالصة التي لم تنجح في إفسادها أي وشاية حقيرة؟

طارت الأخبار إلى الإسكندرية، بين مُؤيِّدٍ ومعارض، وقف تيوخاري حائرًا بين الصَّفَّيْن، هل أصبحت مصر فعلًا أرضًا آمِنَةً له ولعائلته، أم عليه أن يعيد التفكير في أمر البقاء؟

وقبل أن يتَّخِذَ أي قرار كان بولي في الطريق إليه ليُفاجِئَه بأخبارٍ سارَّة، تحت تأثير الثورة وعدم الاستقرار، طرح أغلب المساهمين الفرنسيين الأسهُمَ في شركة السُّكَّر للبيع... وقد اشتراها مسيو تيوخاري كوزيكا...

- لا أُصدِّق يا بولي!

- قُلتُ لك، الثورات مفيدة لنا!

- بولي، أريد أن نحصل على أرباحنا بالفرنكات الذهبية، أخبرهم بذلك!

- سأخبرهم يا مسيو كوزيكا!

لم تَضعَف عزيمةُ المصريين يومًا واحدًا عن الخروج، برغم الإرهاب والرصاص والمحاكمات العسكرية التي كانت تَعتَبِرُ حَملَ العلم المصري تُهمَةً تستوجب السجن مع الشغل! حتى النساء خرجن ولم يبالين بالبنادق المصوَّبة إلى نحورهن، لم يتخلَّف الأصدقاء الأربعة عن الخروج ولا ليوم واحد منذ بدء الثورة، حتى سمعان الذي كثيرًا ما كان يشعر باغتراب قبل الثورة، شعر بأن وجع الأمَّة وحَّد الجميع تحت لواء واحد: استقلال مصر. ترحَّم على مصطفى كامل، وردَّد في قلبه ما كان يقوله:

"هل يستطيع مصريٌّ أن يتهوَّر في حب مصر؟".

فتحت القوَّاتُ البريطانيَّةُ النارَ على المتظاهرين، الجميع يهتف، لا أحد يبالي بالموت حاصدًا الأرواح الطاهرة التي لم تفرح يومًا بمذاق الحُرِّيَّة، سقط أحد الشباب بين يَدَيْ عبد العليم، نظروا إليه فعرفوا ما أصابه، إنه عيارٌ ناريٌّ نافذ إلى الصدر، جذبه مصطفى بمساعدة عبد العليم إلى مدخل أحد البيوت القريبة من سبيل أم عباس، تنزف دماؤه بغزارة، يلهث طالبًا الماء، كانت جماعة من الفتيات يَحمِلن قُلَلَ الماء ويمشين بها بين جموع المتظاهرين ليعينوهم على الظمأ، هرَعَت إحدى الفتيات إلى الشاب عندما لمَحَته وسَقَته الماء، ابتسم من الرِّيِّ، وقال:

- الله... دي مَيَّه بسُكَّر يا ست السِّتَّات.

- احنا محليِّين المَيَّه بالسُّكر لاجلكم يا سي...

حاول الشابُّ النُّطقَ باسمه وهو ينظر إلى وجه الفتاة الجميلة صاحبة الماء المُحلَّى بالسُّكَّر فلم يقدر، حاول أن يصرخ فلم يخرج صوته، كان الألم أَبلَغَ من الكلمات، ونظراته تُغني عن لسانه، أمرهم بالصمت فامتثلوا له، كمن يسمع صوتًا ويريد التَّحقُّقَ منه، يُشِعُّ نورٌ من بين يديه ومن خلفه، حَملَقَت العيون في الضوء المبهر، وقطرات الماء المحلَّى بالسُّكَّر تتلألأ فوق شفتيه وذقنه الدقيق، جلبابه الأزرق الواسع الذي يتَّسِع لجسد آخر معه من شِدَّة نحوله يطير بفعل نسماتٍ هبَّت فجأة، بحركة بطيئة خفيفة يحلُّ الشابُّ بِيَدِه عصابة الرأس البيضاء التي غَطَّت معظم رأسه، أغمض عينيه فاختفت فجأةً عن وجهه كل أمارات الغضب والألم والجَزَع، كأنه أسلمها جميعًا للموت يدًا بيد، صَفَا أديمه، وعاد لِلَونِه الأول قبل أن يكحله حَرُّ الشمس والغبار وطين الأرض وقهر الأعداء. مات الشاب وسط ذهول رفاقٍ لا يعرفونه، صَرَفهم القَدَرُ ليحضروا وفاته، استرجعوا وحَوْقَلوا، ولم يعرفوا اسم هذا الولد الذي أضاءت روحه جوانب السبيل.

في جنازته المشهودة، مع رفاقه من شهداء مصر، حاملًا تصريح الدفن المستَصدَر باسم: مجهول الاسم، وقبل أن يُنزلوه إلى القبر، شعروا أن أخاهم هو الذي وارى سوءتهم، هو الذي دفن عارهم وعجزهم وصَمتَهم طوال السنين الماضية، بكوا، صرخوا، ثم عاودوا الهتاف باسم مصر...

يَئِسَ الأعداء، واستسلموا، وأعادوا سعدًا ورفاقه، إلَّا أن الثورة لم تَخمَد، ولم تهدأ.

كانت البلاد تتعافى من أثر الحرب، وازدادت العائلات الكبرى غِنًى، والإنجليز غرورًا وطغيانًا، والمصريون الفقراء حنقًا وثورةً... أمَّا كوزيكا -كفردٍ بارز من أفراد العائلات المحظوظة- استعاد تدريجيًّا خسائِرَه، واستأنف العمل بمصنع طُرَة، حتى كاد أن ينسى مَخاوِفَه وهواجسه منذ قيام الثورة...

قالت ملكة حكيمة من قبل: "أَعطِهم الكثير من الجِعَة الجيِّدَة زهيدة الثمن، ولن ترى ثورةً في صفوفهم أبدًا!

غير أن قُبحَ الإنجليز وظُلمَهم يوقظ أكثر المصريين سُكْرًا وأَغرَقَهم سُباتًا في النوم العميق عالي الشخير! فلا أفلَحَت معهم خمرٌ جيِّدة، ولا حتى منقوع براطيش... وقامت ثورة لن تهدأ...

فكأنَّهم يشربون الآن انتشاءً وفرحًا بما حققوه، ولما استيقظوا من رقادهم لم يجدوا ما يفرحون به حقًّا؛ لأن الغُزاة لا يزالون يرتعون في البلاد وينهبونها كما يحدث دائمًا.

فعَلامَ الصَّحوُ واليقظة؟

- حَدِّثني عن الثورة!

قالها تيوخاري هامِسًا لنفسه ساخرًا...

تجدَّدَت المخاوف بعد حادث صغير وقع في زقاقٍ من أَزِقَّة "الهماميل" الفقيرة، عَشيَّة يوم الأحد، في ليلة هادئة من ليالي الربيع، عندما اقتحم مجموعةٌ من أَبناء الحي الفقير حانوتًا صغيرًا على ناصية الزقاق، ونهبوه، ولكنَّ الخواجة مالِكَه طاردهم وفتح عليهم نيران سلاحه فأرداهم قَتلَى...

عندما انتشرت الشائعة على نحوٍ مُغايرٍ لحقيقتها في بقيَّة الأحياء الفقيرة بالإسكندرية، على النحو التالي: "عِدَّة مصريين لقوا مصرعهم بعد إطلاق النار عليهم، والمتَّهم خواجة يوناني"، دارت الحرب بين الأجانب من مُلَّاك البقالات والمقاهي، وبين المصريين المُتحمِّسين، وآخرين انتهزوا فُرَصَ النَّهبِ والسَّلب في تلك الفوضى الدائرة في العطَّارين وصلاح الدين وراغب باشا والمحمودية ومنية الباسل، سقط عشرات القتلى والجرحى من جميع الجنسيات، أكثرهم من المصريين، وخُرِّب أكثر من مائة حانوت، أكثرهم مملوكٌ ليونانيِّين، بخسارَةٍ تزيد عن مائة ألف جنيه مصري.

كانت الحربُ الدائرة دمويَّةً، حكت نساء يونانيات عن أزواجهن الذين سُحِلوا ورُجِموا في شوارع الإسكندرية، منهم مَن مات، ومنهم مَن نجا، بعد ترديده: يحيا سعد... يحيا سعد!

أيقن تيوخاري بعد تلك الأحداث المؤسِفة أن الثورة سوف تلفظ كل دَم أجنبي خارج البلاد، وأن الهجرة قادِمَةٌ قادِمَة لا محالة، وحتى يحدث ذلك لن تعود مصرُ آمِنَةً كما كانت، لا بُدَّ من تعزيز أعماله خارج حدودها، ولا بُدَّ لتلك الثروة الكبيرة أن تنمو وتتجذَّر، العالم يضيق تدريجيًّا، ويخنق الأحلام، والفقر وحده سيلتهم كل شيء قريبًا جدًّا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(27)
وعودُ الآنِسَة

أصبح عبد العليم مُكرَّس الفكر والوجدان لثومة، يواظب كتلميذٍ نجيب بالمدرسة الإلزامي على حضور حفلاتها، يتألَّم أشدَّ الألم عندما يعرف أنها سافرت خارج البلاد لإحياء حفلٍ في حلب أو القدس أو بيروت، كيف سيُفوِّت حفلًا لأم كلثوم؟ وكيف السبيل للحضور والعين بصيرة واليد قصيرة؟ لو يملك الأمر لذهب في رِيحها أو رَحْلِها أينما وَلَّت وجهها، من أين له بتكاليف سفرةٍ وراء سفرَةٍ؟ لو يملك الأمر لم يُفلت آهَةً خرجت من قلب ثومة، ولا همسة تلاغي بها فرقتها لم يسمعها سواهم، لو يملك الأمر لم يُهدِر الدقائق التي تعيد فيها الآنسة المقطعَ وراء المقطع فيولد في كل مرَّةً ثوبًا جديدًا يخرج من بين حبال صوتها الذهبيَّة تارَةً مَلَكيًّا مُزَخرفًا مُقصَّبًا، وتارة فلَّاحي بسُفرة واسعة ليحتوي صدور الأمهات الرحيمات، تارة في نعومَةِ وتلاعُبِ المُلاءة اللَّف، وتارة خَشِنًا قديمًا مُرقَّعًا كثوب درويش، حتى تلك البُحَّة التي تطلقها بين الحين والآخر فيبدو للسامع كأن اللحن هزمها ما هي إلا صهيل الخيل الأصيلة عندما توشك على الوصول إلى غايتها من الركض، تلك الجلجلة الصافية التي تُخبِرَكَ بأنها خارج نطاق سيطرتك، لا سلطان لك عليها، بل هي وحدها -ثومة- من يملك الزمام.

مَلذَّات الحياة لا تطيب بدونها، ثومة هي الحليَّات التي تُؤطِّر المنديل أبو أوية، الشواشي المعلَّقة في الأقراط المتدلِّية، للغلبان هي مائدة من السَّماء أدرَكَته: أكلة الكباب والكُفتَة مع زجاجة من البيرة الطازجة، البيرة التي لا تُذهِب العقل، بل تُؤجِّج حواسَّه ليتذوَّق نعمة ربنا، ويقع في غرامها.

ستظلُّ منيرة المهدية لدى عبد العليم السُّلطانَةَ التي آنست وحشة لياليهم بشَدوِها، افترشت أسِرَّتَهم، وتَدلَّلَت على شفاه نسائهم حتى الوصول، ضحكة القلب التي لا تموت، النبيذ الأحمر المعتَّق الذي يطيل العمر، اللذة التي لا يصاحبها نَدمٌ ولا وجيعة، إن كانت هي سُلطانةً فإن ثومة سَلطَنة، لا سُلطَةَ لأحد عليها إلا هذا الصوت الخارق للعادة. لن يستطيع عِلوة أن يفسِّر الحالة التي تنتابه عندما يأتي على ذِكرِها، ولكن في أعماقه هو مؤمِنٌ بأن أم كلثوم هي العالَم الجديد، الواعد بعد اليأس، البَعثُ بعد طول الرَقاد... قُدرَتُها على أداء أصعب الألحان والكلمات وتطويعها، يُعطي للحالمين أملًا أنه مهما عَسُرَت حياتهم وتكاثرت همومهم سوف يتمكَّنون من الفوز في النهاية...

الجمال هو خير وسيلة لمحاربة القبح والظلم والتفاهة.

أضفى عشق أم كلثوم حيويَّةً وصفاءً وجَمالًا على حياة الصَّانِع الماهر، لن يكتشف أحدٌ أن زجاجات البيرة التي تخرج من تحت يدَيْ عبد العليم مشبعة بصوت أم كلثوم، وكانت حصيلة بيرة كل يوم تُسمَّى بإحدى أغنياتها، فهذه: "إن كنت أسامح"، وهذه: "إنتي فاكراني"، وتلك: "يا عِشرة الماضي"... بَلَغَ بالعاشق أن يتمنَّى خلقِ ماركة للبيرة باسم "ثومة"، يكون عبد العليم هو صاحبها وصانِعُها، اكتشف علوة مع الوقت أن الطَّرَب هو الذي يجعل المرء خفيفَ الروح، هو الذي يرفع عنه أوزارَ الحياة، ولَكم صعَّبَت الآنسة الأمر على غيرها، في أن يطرب عبد العليم لمن سواها. حتى مُواقَعَة النساء لم يَعُد لها ذات التأثير بعد معرفة الآنسة...

"يا ابو دقيق يا ابو النخّال

اركب يا عم.. انزل يا خال!"([22])

- إيه جرالك يا عِلوة؟

- باحِبَّها يا مصطفى!

- بتحب مين يا جدع؟

- الآنسة!

- يا خسارتك في العبَّاسيَّة يا عِلوَة!

ضحك عبد العليم، على نفسه ومن نفسه، ضحك وكله رضاء حتى ولو أصبح مادَّةً غنيَّةً للتَّهكُّم، سوف يحبها على هذا النحو، ويعلنها صريحةً في الحفل القادم بأعلى الصوت:

- باحِبِّك يا ثومة!

هي الوحيدة التي يمكنك أن تعترف بحبها على رؤوس الأشهاد بكل حرية، ربما لو اعترف أحدهم بحب مصر على النحو ذاته لم يَسلَم من السِّجن.

سوف لن تلتفت الآنسة، حتى ولو أوهمت عبد العليم بأنها سمعته ورأته...

- ليه كل العشق ده لثومة يا عِلوة؟

- كل غنوة من أغانيها وَعد... نوعد بيه روحنا ما نحِبِّش إلَّا كده...

- هو فيه حب كده يا علوة؟ قِلّ مِ النَّدْر ووَفِّي!

- أهي وعود الآنسة تصبيرة لحد ما وعود بريطانيا العظمى تتحقَّق يا درش.

- قصدك معاهدة 36 ؟ وهو معقول هيسيبونا نعيش؟

- و"هو ده يخلَّص من الله"([23])؟

في العام نفسه، وبعد وفاة فؤاد الأول ملك مصر وسيد النوبة وكردفان ودارفور، وارتقاء ولي العهد الملك فاروق الأول، مع الوصاية عليه حتى بلوغه ثمانية عشر عامًا، عُرض فيلم أم كلثوم الأول: "وداد"، شعر عبد العليم أن ثومة تردُّ على حُبِّه برسائل نافذة، أولها اسم الفيلم الذي يشير إلى اسم ابنته الكبرى، المسكينة، ووجع قلبه: وداد، عندما جلس لمشاهدة الفيلم في صالة العرض، ذهب بمفرده لأنه ذاهِبٌ لملاقتها، صُحبَتُها تُغْني عن كل صُحبَة، كان إحساسٌ عجيب يعرف طريقه إلى عبد العليم للمرة الأولى: أن يشاهد ثومة عبر شاشة السينما الفضِّيَّة، في أحضان رجل يداعبها ويلاغيها (ويا لحظَّه بالطبع)، تغني له، وتبتسم في وجهه، تبكي من أجله، وعلى فراقه، أن يراها تُمثِّل دور العاشقة، تتدلَّل وتتمايل وتشرب الخمر مع النُّدمان...

كان عيدًا في قلب الصَّانِع، صحيح أنه وجميع مَن حضر فيلمها الأول كان دافِعُهم الأكبر هو سماع أغانيها الجديدة، لكن لا شَكَّ تاقوا إلى مشاهدة الجوانب الخَفِيَّة من حياة الآنسة. هو يسمعها ويراها الآن وهي تتحدَّث بصوتها العادي مثل معشر بني آدم، تنهيدها وآهاتها وبكاؤها، يا لرقَّتها وحُسنها وأنوثتها! ثومة في منتصف الثلاثينات من عمرها، في أوج اكتمالها كامرأة، وفي أحسن ما يكون من نشاطها الفني، وهي ذاتها نجمة الإذاعة التي حوَّلَت لياليهم الحزينة إلى أفراح وأعياد...

كان عيدًا في قلب علوة، منذ بدء شريط السينما المتَحرِّك، وقبل حتى أن تشدو أم كلثوم قائلةً:

"يا بهجة العيد السعيد"...

ابتسمت وداد في خجَلٍ عندما نظر إليها عبد العليم عائدًا إلى الأرض بعد طيرانه فوق السحاب:

- أم كلثوم عاملة فيلم على اسمك يا وداد! هاخدك نشوفه سوا.

ذهبت "ست أبوها" لتحتضن وداد وتُقبِّلها، أصبحت الآن فتاةً جميلة، على وشك الحصول على شهادة الثقافة العامَّة بعد 5 سنوات من الدراسة، تخوض بعدها عامًا أخيرًا لتُتِمَّ مرحلة التوجيه:

- وأنا كمان يا بابا لازم تاخدني معاك انت ووداد.

قالت "ست" بحماس. ربما خرجت وداد من عزلتها واستفاقت من ذكرياتها. كان "ست" هو الاسم الذي يناديها به الجميع، إلَّا فوقية، تناديها: "ستوتة"، وهي تعرف أنها تكره هذا الاسم أشدَّ الكراهية.

همست "ست" في أذن وداد:

- ما وَحشِتكيش السيدة؟

سقطت دموع وداد على وجنتيها، لَكَم اشتاقت لزيارة السيدة النفيسة، كانت فقط تُؤجِّل الأمر، لأنها تعي جيِّدًا عاقبته، أنها لن تبرح السيدة نفيسة، ستمكث هناك ولن تعود مجدَّدًا إلى هذا البيت، هي فقط تنتظر الوقت المناسب، ولا أحد يعلم ما يدور في عقل الأرملة التي فتح الله عليها وأزال الحُجُبَ بينه تعالى وبينها، ليعطيها من عِلمِه ما يُلهيها عن بؤس حالها.

أمَّا صابرة فكانت ترقب حديثهم صامتة، تبحث في عينَيْ زوجها عن امرأة جديدة تَبثُّ فيه تلك الحيوية وهذا الفرح، لن تنطلي عليها مسألة أم كلثوم تلك، لا بُدَّ وأن ظهرت في الأفق "مَرَه" أخرى مثل امتثال طَوَت عبد العليم تحت جناحها، صارحت شوقة بمخاوفها، والتي بدورها صارحتها بأنها انشغلت عن عبد العليم بطلعت طوال هذه السنوات الفائتة، ونسيت أنها في كنف رجُلٍ يحتاجها مثل ابنها وأكثر، سألتها في استغراب عن سبب مطاردتها للوَلَدِ أينما ذهب، وإن كانت تربيتها قد نجحت بالفعل، ها هو الولد يخفق عامًا وراء عام، بينما تنجح أخته "ست أبوها" بتفوُّقٍ ولم ترسب قَطُّ.

صمتت صبر الجميل طويلًا، حاولت أن تفهم سِرَّ تَعلُّقها بطلعت إلى هذه الدرجة، هل هو الخوف عليه من مكائد الحُسَّاد كما زعمت طوال هذه السنوات، أم هو الخوف من العودة إلى زوج تحتقره وتستصغره؟ أم تراه الخوف من لعنة المال الحرام؟ سيظل شغل عبد العليم المحرَّم حائلًا بينهما. مهما حاوَلَت صابرة أن تضحك في وجهه، أو ترسم ملامح الرضاء على وجهها فقط اتِّقاءً للخناق

والمشكلات، سيبقى هذا الاشمئزاز القابع في روحها منذ عَلِمَت أنه يخونها. ثم تتحسَّر على الحال المقلوب، كيف تفلح البنت ويخيب الولد؟ وما حاجة "ست" بالفَلَاح أصلًا؟ مصيرها لبيتها ولزوجها مثل الجميع، هي لم تفهم رغبة عبد العليم في إلحاقها بالمدرسة ولم تعترض لأنها لم تتخيَّل أن ست أبوها ستنجح وتكمل العام وراء العام، لدرجة أنها تَسبَّبَت لأخيها في عقدة، مؤكَّدٌ هي السبب وراء فشله.

"مِنِّك لله يا "ست""!

أمَّا عدلية، وبعد أن كانت حبيسة غرفتها ليل نهار، تتضرَّع إلى الله كي يُزوِّجَها مثل أختَيْها، تبكي ممرورةً، بحُرقَة المحرومين، حتى فقدت شهيَّتَها للطعام، وللحياة، وبعد أن تعبت من الانتظار، ولم تعد تتوقَّع أي جديد، أخيرًا أتاها العريس وأخذها من بيت عبد العليم إلى بيت أبيه.

جلال... الرجل المقتَدِر، صاحب الفرن، لم يكن بقدر ما تمنَّت عدلية لنفسها، لم يكن وسيمًا ولا أفنديًّا ولا شابًّا، بل يكبرها بعشرين عامًا، طلَّق اثنتين من قبلها، ولديه أورطة عيال، ولكن ماذا تفعل مع تصاريف القدر؟ ما دام "العدَل" قد أتاها على هذه الشاكلة فلا سبيل إلَّا التسليم والرضاء بالقضاء والقدر!

سرعان ما تكشَّف جلال لعدلية بمرور الوقت، كان مُتسلِّطًا أشدَّ التَّسلُّط، يده تسبق لسانه، يستمتع بضربها بمجرَّد رؤية شيء لا يوافق رغبته، شعرت بالغُبن والحنق، وشَكَته إلى والده في البداية، فما كان منه إلا أن نهرها أمام أهل البيت جميعًا، وكيف أنها قليلة الرباية لا تحفظ أسرار زوجها وبيتها، وأنه سيعيدها بنفسه إلى بيت أبيها الخمورجي! وانتهى الموضوع بعَلقَةٍ أخرى ساخنة، وستات البيت يضحكن من العروس اللي جات تفرح ما لقتلهاش مَطرَح.

أنقذها حملها من بطش يده، اكتفى فقط ببضعة أقلام على وجهها من وقت لآخر لإفاقتها في حال -لا قدَّر الله- نسيت أنها أَسيرتُه المُستباحَة.

كانت زوجة أحد إخوته المقيمين في نفس البيت هي الوحيدة التي تشعر بحال عدلية وترثي لها، أسدت إليها بعض النُّصح قائلةً:

- اطَّبَّعي بطبع جوزك يا أختي، وحاجي على بيتك، ما تخربيش على نفسك زي اللي قبلك، استحملي واصبري، يمكن يتغيَّر!

قدَّمت صابرة النصيحة ذاتها لعدلية، أمَّا شوقة فاستنكرت ما قالته صابرة لابنتها، وكيف تقبل لها حياة كهذه؟ لماذا يجب أن تعيش البنات ما قاسته أمَّهاتُهنَّ من قبل؟ لماذا يجب أن تتكرَّر الحكايات المهينة بحذافيرها بحجَّةِ القدر وتصاريفه وهو منها براء؟

غير أن فوقية لم يشغلها ما تحكيه أُمُّها عن عدلية، كل ما يشغلها: لماذا لم تَصِر حُبلَى مثل أُختَيْها؟ لماذا تأخَّرَت هكذا؟ لقد أتمَّت عامًا مع حسنين، ذاقت فيه حلاوة الزواج، حتى كادت تنسى أمر اللعنات، وظنَّت أنها أفلتت ونَجَت، إلا أنها لم تَعُد مُتأكِّدَةً من النجاة فعلًا. ربما كانت تغرق ولا تعرف! لكن، ألم تَحظَ الأختان بنصيبهما من الأحزان؟ ألم تُترَك نعيمة ليلَةَ زفافها قبل زواجها من حامد؟

أليست عدلية تعيش تحت إمرة زوج نَكِدٍ سيِّئ الطباع، يضربها ويُهينها؟ لا، لا سبيل إلى المقارنة، أن تُحرَمَ فوقية من الإنجاب هو الجحيم ذاته، لن تفسح فوقية مجالًا لِلّعنَةِ تُفسِد حياتها وتقضي عليها.

ستكون هي ذاتها اللعنة لكل من حولها، إذا لم يتحقَّق لها ما أرادت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(28)

شَريطٌ سينمائيٌّ مُتحرِّك صامت

أصبح تيودور الثاني ابن بوليخروني ضليعًا بأمور الفابريكة في طرة، يُعزَى ذلك إلى قوة ملاحظته وحُسن استماعه، وقدرته الفائقة على المراقبة والتَّعلُّم، أصبح تيودور يعرف كيف يدار المصنعان بشكل دقيق، أحبَّه عَمُّه، تمنَّى من أعماقه لو كان لتيودور ابنه نفس الشخصية الحاضرة والنَّفَس الطويل والذكاء الاجتماعي الذي يسري في دماء أخيه وابنه. ولكنْ لتيودور الثالث ميولٌ مختلفة بالكلية عن ميول عائلته التجارية. يقضي ساعاتٍ في مختبر صغير، حيث يقوم بتجارب متكرِّرة على الفئران، درس تيودور الطِّبَّ في مصر، كان ذلك غريبًا بالنسبة لواحدٍ من العائلات الكبرى، كيف لا يسافر إلى أوروبا مثل أقرانه؟ ولكن ظروف الحرب وارتباط كيكي الشديد بتيودور جعلت من دراسته في مصر أمرًا حتميًّا، وسفره إلى خارجها مستحيلًا في تلك الفترة.

بات تيوخاري حزينًا في قرارة نفسه كُلَّما شاهد ابن أخيه بكل هذا النبوغ في هذه السِّنِّ الصغيرة، قال لبولي ذات يوم:

- حمدًا لله، هذا الولد لم يَرِث شيئًا عن أُمِّه!

- أنتَ مُخطِئٌ يا كوزيكا!

- على الأقل ليس فرنسيًّا ثرثارًا مثلها! كيف حال سيبيل بالمناسبة؟

- لا أراها تبتسم إلَّا عندما يظهر "تيودور" أمام عينيها، تعرف أنها تريد الذهاب إلى فرنسا منذ زمن ولم يوقفها سوى الحرب.

- اتركها لترحل.

- لم تُحِبَّ سيبيل قَطُّ!

- لكي أكون صادقًا، لم أُحبِبها قَطُّ.

- لماذا؟

صمت تيوخاري، لم يتكلم، لم يكشف عن حقيقة ما شعر به طوال الوقت تجاه سيبيل، هذا السؤال فاجأه، لماذا يكرهها هكذا؟

كان الأمر في البداية كراهِيَةً لامرأة غريبة استحوذت على أخيه وذراعه الأيمن، ثيمة حَظِّه، خِلِّه الوَفيِّ، حبيبه ورائحة أبيه، هل من الممكن أن يتصوَّر تيوخاري حياته بدون بولي؟ مستحيل. الكاثوليكية الفرنسية قوية الشخصية الجذَّابة جدًّا، أوقعت زِير النساء في شركها، عرفت كيف تتزوَّجه هو وثروته، وأنجبت له الابن، الابن الذي يبدو كأنه سيَرِثُ كِلَيهِما، بولي وتيوخاري.

غير أن الشاب الطموح كان مشغولًا بتطوير الفابريكة، دائم السفر ليطلِعَ على كل جديد، ويعود محمَّلًا بالأفكار التي عادةً ما تعجب الأب والعم. بالتدريج حلَّ تيودور محلَّ أبيه، وتفرَّغ بولي لفضاءاتٍ أكثرَ لَذَّةً ومُتعَة، لطالما حالت سيبيل بينه وبين حريته التي ينشدها طوال الوقت، حرية الشُّرب، وقنص الفتيات، الجلوس على البحر مع رفاق هيلادا حتى الصباح يدخِّنون الحشيش ويشربون ويُغنُّون ويرقصون بآلاتهم الوترية بأصواتٍ مذبوحة بين الضحك والبكاء.

يضحك بولي، حتى السُّعال، يضحك بعُنفٍ من قلبِ قَلبِه، يقول صاحبه: كأننا نسمع ضحكة زيوس من السماء! يا أنتَ... كُفَّ عن الضحك، هذا الضحك يخيفنا، يصيب قلوبنا بالفزع.

في واحدةٍ من تلك الضحكات المُفزِعات فاضت روح بولي إلى بارئها، رحل عن الإسكندرية وعن مصر وعن اليونان في يومٍ واحد، ترك ابنه وزوجته وثروته وطابورًا طويلًا من الأصدقاء والمُعجَبات.

كيف مات بولي؟

مات ضاحكًا!

أهكذا يكون الموت؟!

- حتى الموت تأبى إلَّا أن تضيع هيبته أيها الملعون بولي؟! كأنَّك دُستَ على إزاره فتعَرَّى مثلما فعل الدَّبَّاغ مع بركليس! ولكنك اليوم بموتك تُعرِّيني، تكشف هشاشتي وضعفي وعجزي من دونك!

قالها تيوخاري لروحه دامعًا، لا يُصدِّق أن يرحل الصغير قبل الكبير، هذا الزمان خارقٌ لكُلِّ القوانين، قوانين الأحياء والأموات، خرق البشر نواميسهم بأنفسهم، مثلما دفعوا بفَلَذات أكبادهم إلى الحروب، وحنثوا بعهودهم وأخلفوا أماناتهم فغدرتهم الآلهة. لم يَعُد العالم مُتوَقَّعًا، نوستراداموس نفسه كان سيخفق في استشراف ما سوف يحدث.

الصَّمتُ هو الملاذ الآمِنُ لتَوقُّعات البَشَر.

أَلِهذا أحببنا السينما الصامتة؟

بعد دفن بولي في مقابر العائلة بكاريستو، عادت سيبيل إلى باريس، لم يتركها ابنُها هذه المرَّة، كانت صدمته شديدةً في رحيل أبيه، ولكن لا فرصة لديه للانهيار، مأمور بالصمود، ولا سبيل له سواه، كان يختلس ساعاتٍ بمفرده، يقضيها في منطقة باسي بباريس، هناك حيث الجمال المفعَم بالحياة، الجبال الخُضر والماء المنساب وزُرقَة السماء، والجو الرائق البديع، وعندما يحلُّ الليل يذهب إلى الشانزليزيه، حيث جوُّ المرح الذي غاص فيه أبوه حتى الموت، وهناك في الكازينو رآها، ظلَّ يتأمَّلها في ذهول، في قرارة نفسه متأكِّد أنها هي... نعم هي: بيرل وايت!

بشعرها الأشقر وعينيها البرَّاقَتيْن، وضحكة لا تشبه ضحكات النساء، ضحكة طفلة صغيرة ماكرة لاهية تحب اللعب وتعشق الخُدَع الضاحكة، هي نفسها نجمة السينما المتحركة الصامتة، المنافس الفعلي والوحيد لشارلي شابلن. Fearless peerless Pearl White!

الجريئة الفريدة بيرل وايت!

كانت تجلس على طاولة البوكر الخضراء، يبدو عليها الحماس للمَكسَب، تشرب ثم تخسر ثم تضحك ثم تشرب وهكذا، حتى ربحت بعد أربع ساعات ألف فرنك، أي عشر ما خَسِرته في ليلة واحدة!

في اليوم التَّالي، ذهب تيودور إلى الكازينو مجدَّدًا، وجدها على نفس الطاولة، لم يكن مُغرَمًا بلعب الورق، ولكنه اضطرَّ إلى ذلك لكي يظفر بصُحبَتِها والاقتراب منها، ابتسم لها وعبَّر عن إعجابه الشديد بأفلامها، انفرَجَت أساريرها، نظرت إليه بامتنانٍ وفضول، تعارَفَا وتحادثا طويلًا، بما يكفي لوقوع خسارات وتحقيق مكاسب صغيرة لها طعمُ الرِّبح الوفير لمجرَّد أنهما معًا.

سارا طويلًا بصُحبَة بعضهما البعض، واحتفلا بالخسارات المُضنِيَة تحت قوس النصر، احتضنهما نهرُ السِّين، كان هو من مصر، على حَدِّ قوله: مصري يوناني فرنسي، وكانت هي من أمريكا، نصفها إيطالي والنصف الآخر أيرلندي، جاءت من قرية صغيرة في ميسوري، اسمها جرين ريدج، أضحى تيودور بين عَشيَّةٍ وضُحاها مأخوذًا بقصة بيرل، يستمع إليها في خشوع، كأنه أمام أحد أفلامها المسلسلة، في شوقٍ وتَوقٍ للمتابعة ولمعرفة ما سيحدث، كان لديه عشرات الأسئلة لها، تتوه كلها بمجرَّد رؤية ابتسامتها الماكرة من خلف قُبَّعتها الأنيقة، لم يَعُد الليل كافيًا، ولا النهار يتَّسِع لحكايات بيرل.

- هل تدري يا "تيودور" لماذا أحببنا السينما الصامتة؟ لأننا نحبُّ أن نخلق، ونُبدِعَ، ونُملي على الكون ما نتصوَّر ونتخيل، المسرح بكل قُوَّته وجبروته وحضوره لا يجعلك بالضرورة تحبُّ ما يُقال، قد تجده لطيفًا، ولكن في كثير من الأحيان قد تجده مُمِلًّا ومُتكرِّرًا، أمَّا هناك في السينما، عندما تجلس صامتًا مُحدِّقًا إلى الصور، تكتب في ذهنك وبنفسك الحوار الذي أرَدتَ سَماعَه، وقتها فقط وعندما تخرج من صالة العرض تشعر بأنك قد أنجزت شيئًا، أخرجته إلى حَيِّز الوجود والإمكان.

- وهل تدرين لماذا أحببتُ أفلامك؟ لأنها مُفعَمَةٌ بالصِّدق، كنتُ في مرَّاتٍ كثيرة أُراجِعُ نفسي أمام الشاشة الكبيرة، أوه يا إلهي: هل هي فعلًا مَن قفزت من البالون؟ المنطاد الطائر في السماء، وبحبلٍ يتدلَّى إلى أسفل وأنتِ تتسلقينه نحو اليابسة... كان رائعًا جدًّا ما تفعلين، ألم يكن ذلك خطرًا على حياتِكِ؟

- خطر؟ قبل أسبوع من تصوير هذا المشهد، ولكن في فلوريدا وليس چيرسي،كنتُ أقفز من يختٍ قُبَيلَ انفجاره بدقيقة، وجدتُ نفسي أسبح في المحيط المليء بأسماك القرش، حتى وَصَلتُ إلى الشاطئ. ولكن على أي حال، سأعترف لك، لقد استَعرتُ قلم رصاص من المُصوِّر وكتبتُ وصيَّتي قبيل صعودي إلى المنطاد، ووَزَّعتُ مجوهراتي على طاقم العمل بالكامل، وقلتُ لهم إن عُدتُ مرَّةً أخرى فلتكن هدايا لكم لِتَذكروني بها. تعرف يا "تيو" لطالما تخيَّلتُ نفسي فتاةَ سيرك، تقفز من أعلى لتهبط فوق ظهر الفَرَس برشاقَةٍ وخِفَّة، فعلتُ ذلك وأنا صغيرة، ولكني كنتُ دومًا أقع قبل أن أصل إلى ظهر الحصان! حياتي مجموعة من العثرات، مُقسَّمة بين ربوع جرين ريدج وحلبة السيرك وخشبة المسرح، في نيويورك ونيو چيرسي وكوبا وريو دي چانيرو، حتى هنا في باسي على طاولة البوكر لا أكفُّ عن الوقوع!

- لا أتصوَّر أن تخفق بيرل وايت ولو لمرَّةٍ واحدة!

- إذًا أنت لا تعرف شيئًا عن النجاح بعد يا "تيو".

- ما زلتِ شابَّةً على كل هذه الحكمة.

- شابَّة؟ ربما... ولكن أعتبر نفسي عجوزًا بجانِبِكَ. أنا في السابعة والثلاثين! أمَّا أنتَ فلا تزيد عن الخامسة والعشرين!

- أنا في السابعة والعشرين!

احمرَّ وجه تيودور، وشعرت بيرل بغضبه الواضح على وجهه، اعتذَرَت له بلُطفٍ، ودَعَته إلى بيتها في باسي، فوافق على الفور. أدخَلَته بيرل جَنَّتَها الخاصَّة، صعد إلى السُّلَّم، وجلس في صالة الاستقبال بجانبها على أريكتها المفَضَّلَة، أدرك تيودور في تلك اللحظة أن بيرل تستحوذ عليه بالكامل، لم يَعُد يفكر في الفابريكة ولا الأعمال التي تنتظره في مصر، ولا حتى سيبيل أمه.

أخذ ينظر إليها، يتأمَّل وجهها من خلف البودرة والألوان، شعرها القصير الذي تركته ينسدل فوق كتفيها، "تلك هي بطلتي"، همس لها بصوتٍ يخرج من أعماق قلبه:

- أنتِ جميلةٌ جدًّا يا بيرل!

- لو رأيتَني وأنا طفلة لن تقول ذلك على الإطلاق! رأسي أكبر من جسدي، عينان مُخيفان خضراوان مائلان للصُّفرَة، مُتحرِّقَة من الشمس، بشَعرٍ أشقر، يزداد حُمرَةً تحت وهجها، بات الأطفال في جرين ريدج يُسمُّونني: حمراء الرأس وعين القِطِّ، يبدو أن تلك الصورة ظلَّت في ذهني أيضًا، لسنواتٍ واظَبتُ على صبغ شعري باللون الأسود، أرتدي التَّنانير القصيرة التي أصنعها بنفسي، من أجل عروضي في السيرك والمسرح، كانت أفضلهن تَتُّورة على شكل العَلَم الأمريكي، فإن كانت الفتاة التي ترقص وتغني سخيفةً وثقيلة الظِّلِّ فعلى الأقل ستحظى بتصفيقٍ من أجل العَلَمِ الذي تَتَشِح به!

- وما الصور الأخرى التي تتذكَّرينها من طفولتك؟

- أتذكَّر أني كنت مُتَّسِخَة على الدوام، وأني كنتُ أوضع في حوض الاستحمام مع أخويَّ فريد وجريس مرَّةً أسبوعيًّا، وامرأة زنجية مُتعرِّقَة تفرك أجسادنا الصغيرة بصابون الغسيل.

- لديكِ إخوة! لم أكن أعرف...

- إليزابيث كاسا، أمي، أنجَبَت في خمسة عشر عامًا تسعة أطفال، أعطت حياتها بالكامل لآخرهم: أنا. شَهِدتُ موتَ خمسة منهم، أتذكَّر أن أحدهم مات غرقًا، وآخر فَجَّر رأسه بواسطة مُسدَّس يملكه أبي، وتبقَّى أربعة، بعد وفاتها أخَذَت جَدَّتي لأمي أخانا چورچ بعد خلافات كبيرة بين العائلتين، تَصوَّرْ، كُنَّا نقذفه بالطوب والحجارة؛ غيرةً منه، أضحى يغيظنا بطعامه وحلواه وألعابه، وكنت أَعبُر للجهة الأخرى مع فِريد حيث بيت جدَّتي لنسرقه دون أدنى إحساسٍ بالذَّنب... چورچ مات في العشرين وهو يلعب البيسبول. أمَّا فريد... أوه... أخي المسكين... له معي قصَّة عجيبة.

- ماذا حدث له؟

- عندما تركنا جرين ريدج وانتقلنا إلى سبرنج فيلد مع أبي وزوجته، كنّا نعمل بجدِّيَّة، حتى أبي الذي تربَّى على أنه أفضل بكثير من أن يبذل الجهد، عمل مُزارِعًا، باع فريد الصُّحُف وبِتُّ أجمع الفراولة والتُّوت في المَزارع القريبة، كنتُ أقطع لهم الخشب أيضًا، في لحظة ما يبدو أن فريد ملَّ كل شيء، تركنا والتحق بالجيش، تصوَّر يا تيو، بعدما أصبَحتُ مُمثِّلَةً مشهورةً، وقبل سنواتٍ، راسَلَني بَحَّارٌ من متن سفينة حربية، يطلب صورتي، باثًّا إليَّ غرامه على مدار عام كامل، يُحدِّثني عن مدى ارتياحه لي، وعن الشبه الكبير بيني وبين أُمِّه، وربما أحد من عائلته لا يتذكَّره، تَشكَّكتُ في هويَّته، ونظرت لإمضائه فإذا به f.w... يا إلهي، أيكون هذا أخي فريد وايت؟

أرسلتُ إليه برسالة أكشف له عن هُويَّتي، يبدو أنه خَجِلَ من نفسه، انقطعت أخباره عني لفترةٍ، حتى فوجِئتُ برسالة من ضابطٍ بَحريٍّ يخبرني بأن فريد قتل نفسه بالخطأ!

- أوه يا ربَّتي! أنا آسف جدًّا عزيزتي بيرل.

- لا تتأسَّف عزيزي "تيو"، عائلتي غريبة بكل المقاييس، حتى أمي، يبدو أنها كانت مُصابَةً بمرضٍ عَصبيٍّ يُؤثِّر على مزاجها باستمرار، قرأتُ في مذكِّراتها سطورًا مُحيِّرَةً، تارة تكتب: "أحبُّ زوجي جدًّا، إنه في غاية الوسامة، أنا سعيدة معه"، وتارة تكتب: "أنا امرأة في منتهى التَّعاسة، لقد بكيتُ لتوِّي"... الكتب التي باتت تقرأ فيها مصبوغَةٌ بالدَّمع، حتى عندما ظهر لي شَبَحُها أكثرَ من مرَّة خلف أشجار القيقب، ومن وراء نافذة حجرة نومي، في جرين ريدج- كانت تبدو تعيسَةً. لكلٍّ حكاية مأسوية، فيما عدا جريس؛ فلقد ظفرت بحياةٍ عادية طبيعية مثل أقرانها: تزوَّجَت، وأنجبت أطفالًا، وها هي تعيش سعيدةً... على ما يبدو!

- وأنتِ يا بيرل؟ ألستِ سعيدة؟

- لا أدري يا صديقي، في البداية كلَّما أردتُ شيئًا وحاوَلتُ الوصول إليه أخذني القَدَرُ بعيدًا عنه، طموحاتي تَجَدَّدَت بانهيارها واحدًا تلوَ آخر، من فتاة سيرك، لكاتبة، لممثِّلة مسرح، حتى وجدتُ نفسي على شريط سينمائيٍّ متحرِّك صامت، كأن القدر يقول لي: "انظري، كفاكِ ثرثرة، اصمتي... ذلك أفضل جدًّا"... كنتُ سعيدةً عندما أرى صورتي على الأفيش، وعندما يخبرونني بأن التذاكر تَنفَدُ باستمرار، وعندما أجد الصُّحُفَ تتحدَّث عن الجريئة الشجاعة بيرل، وعندما سافَرتُ إلى أوروبا لأوَّلِ مَرَّة، وفي كل مرَّةٍ أشتري فيها ملابِسَ وحُليًّا وأحذية وقُبَّعاتٍ جديدة.

وأنتَ يا تيو؟ هل تتمتَّع بالسعادة؟

- كنتُ أحسب أنني سعيدٌ فعلًا، حتى وجَدتُكِ. حتى تذوَّقتُ طعم السعادة الحقيقيِّ الذي لم أعرفه يومًا.

- أنتَ تُبالِغُ، كل ما في الأمر أنني أُضحِكُكَ، أليس كذلك؟

- لا يا بيرل، الأمر مُختَلِف.

هنا، تأهَّبَت بيرل لإنهاء الحديث مع تيودور، استأذن منها في لُطفٍ ليرحل، على أمل أن يراها في اليوم التالي كالمعتاد. ولكنه في المساء، وفي الكازينو المفضَّل لها، لم تظهر بيرل، انتظر تيودور طوال الليل، طاف ببيتها، ثم انتهى به الأمر أن نام في سيَّارته حتى الصباح. تعلَّم تيودور القَلَقَ، وذاق

اللوعَة والاشتياق في تلك الليلة، الشابُّ الثريُّ صاحب المستقبل الباهر، حامِل لواء عائلة كوزيكا، سِرُّ عَمِّه، وذكرى أبيه- يبكي ويشعر بالضياع في شوارع باريس!

غابت بيرل لأيَّام، وتيو لا يَمَلُّ من الانتظار، ظلَّ يراجع نفسه، يستحضر حوارهما مُجدَّدًا؛ خشية أن يكون قد أغضبهَا دون أن يدري، كانت بيرل متوقِّفَةً عن العمل في السينما، أيكون ذلك هو السَّبب؟ ولكنها اعتزلت بإرادتها، وقبل أن يفقد الجمهورُ شَغَفَه بما تُقدِّم من أدوار، تحوَّلَت بيرل من بطلة إلى مُشاهِدة، تكتب بنفسها الحوارَ الذي تريد سماعه، ولكم استهوتها تلك اللعبة. فوجئ تيودور أن الكازينو حيث التقيا كلاهما فيه للمرة الأول كان مملوكًا لبيرل، وأخذ يتأمَّله مُجدَّدًا بنظرةٍ أخرى، التُّحفة الفنية المُغريَة التي تتوسَّط باحة الاستقبال، وقبل الولوج إلى الداخل، حيث عالم الحَظِّ الأخضر فوق طاولَات البوكر: دافني، الحوريَّة التي توشك أن تصير شجرةَ غارٍ هربًا من أبوللو العاشق. هل تنفر بيرل من تيو مثلما تنفر دافني من أبوللو؟

ما أتعس المُحِبِّين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(29)
موسم الذَّبح

اجتازت "ست" امتحان التوجيهية بنجاح باهر، شعرت للمرَّةِ الأولى أنها هدَمَت حاجزًا يحول بينها وبين حريتها، قُدرَتها على التحليق والخروج إلى عالَمٍ أرحَبَ، ثم الوصول إلى أقصى درجات التفوُّق. للنجاح في فمها طَعمٌ يفوق لَذَّةَ الفاكهة الطيبة الطَّازجة، والحلوى التي نادرًا ما تصنعها أمُّها بمزاجٍ إذا راق بالها وخَلَا من الهموم، له مذاقُ الطمأنينة، ولسعة نظرات الرجال لها في الرايحة والجايَّة، أجمل من رؤية نفسها في المرآة بعينٍ ممتلئة بالرِّضا. عادت إلى البيت وقلبها يكاد يطير فرحًا، تستعدُّ لتلقِّي نظرات الإعجاب وعبارات التهاني، إلَّا أنها لم تجد سوى وجه صابرة العبوس، لقد رسب أخوها طلعت مُجدَّدًا، وأصبح ذِكرُ أيِّ كلمة لها علاقة بالنجاح بمثابة المُحرَّمات والكبائر، ما أن تلاقت عيونهما وقرأت صابرة فَرحَةَ البنت في وجهها الفَضَّاح حتى أمسَكَت رأسها ودعت دعاءً مُرًّا:

- الله ينَكِّد عليكي يا ست!

حبست "سِتّ" دَمعَتَها، وتحجَّرَت في مُقلَتِها العسلية، جمدت نظرتها لأُمِّها التي ما فهمتها قَطُّ، شعرت بالظلم وكسر الخاطر، حتى أنها تمنَّت لو انشقَّت الأرض وابتلعتها لتتخلَّص من نظرات اللَّوم على جُرم لا تعرفه، إلا إذا كان نجاح البنات في شرع صابرة جُرمًا. نادتها وداد بصوتٍ من نُدرَةِ ما يُسمَع انخلَع قلبُ البنت، هرعت إلى حِضن أختها المتكوِّمة في ركنٍ أمام المشرفيَّة ذاتها، سوَّت خُصلات شعرها البُنِّيِّ الممَوَّج الطويل، سرَّحَته بأصابعها، ونظرت في وجهها الصبوح دامعةً، قالت بصوتها الذي يخلع القلب من نُدرَتِه:

- مبروك يا ست!

حاوَلَت أن تزغرد، حاوَلَت مرارًا كي تُخرِج زغرودةً واحِدةً من فمها، الذي من طول إطباقه على الكلمات تَجمَّد على حاله، انهمرت دموعها كُلَّما ازدادت يقينًا أنها لن تستطيع، إلَّا أن "سِتّ" انفرجت أساريرُها باسِمَةً، أخذت وداد إلى صدرها في ضَمَّةٍ طويلة شَرَحَت كلَّ شيء، كانت في غاية الامتنان لها؛ فقد بذلت فوق ما تحتمل لتُدخِلَ السرور إلى قلبها، لم تَعُد "سِت" تنتظر المزيدَ من التهاني:

- إنتي كفاية عَلَيَّا يا وداد!

مَرَّ الوقت والأختان تتهامسان، تُسِرُّ وداد لِسِت بحديثٍ أجَّلَته لهذا اليوم، حديث يخصُّ مستقبلها: طالعها المعَلَّق بين السماء والأرض، المحفور فوق جبينها، ابتلعت الدَّهشَةُ كُلَّ ما حملت "ست" قبل دقائق من وَجَعٍ وحزن وكسر نفس، وتهلَّلَت أساريرها ببشائر وداد، وتأهَّبَت لسعادةٍ كبرى تفوق تلك بكثير...

"ياما انت كريم يا رب!"...

استقبل عبد العليم خبرَ نجاح ست أبوها بتوزيع الشربات على الجيران، ونذر ذبحًا عظيمًا لأهل الله، تجاهل رسوب طلعت تمامًا، بل تجاهَلَ طلعت نفسه، ولم يَعُد يتحدث إليه، الولد يَظنُّ أنه بعيدٌ عن عينَيْ أبيه، إلَّا أنه كان يعلم خطواته أينما ذهب، الولد كبر وأصبح يُسرِّي عن نفسه في الأزبكية، يُجالِس العاهرات اللاتي يَعرِضن أنفسهن على مرأى ومسمعٍ من الجميع، يشرب الخمر، ويُدخِّن الحشيش، ولقبه المعروف به من كثرة إدمانه عليه: طلعت ابن شَدَّاد.

العَوَض على الله...

ذُهِلت صبر الجميل عندما فجَّر عبد العليم في وجهها المفاجأة التي أخفاها عنها طوال الوقت، إلَّا أنه يجب أن يضع لجنونها بطلعت حَدًّا...

- آخرِة تَربيتِك الوِسخَة!

- آخرِة شُغلَك الوِسِخ!

إلَّا أن عبد العليم لن يُستَدرَج ليخوض هذا العراك الآن، سيَفرَح بالبنت، ويأخذها في نزهة، سيشتري لها ذهبًا، وكسوة جديدة، ويُدخِلها فيلم أم كلثوم الجديد "نشيد الأمل".

"افرَحْ يا قلبي لك نصيب تبلُغ مُناك"...

- عاوزة أدخل الجامعة يا بابا.

- وماله يا ست أبوها، وماله يا ست الستات.

انتزَعَت "سِتّ" من أبيها في لحظة صَفوٍ مُوافقَتَه على التحاقها بالجامعة، في الوقت الذي عارضت فيه صابرة الأمرَ بِشدَّة، جلست شوقة بجوار وداد، تشاهد صديقتها كما لم ترها من قبل، تهمس لروحها:

"هل هذه صبر الجميل فعلًا؟ أختي وعِشرِة العُمر؟ متى وكيف أصبحت بكل هذه القسوة؟".

شَدَّت وداد على يَدِ شوقة، نظَرَت إليها، وحَرَّكَت شفتيها:

- فوقيَّة...

وفهمت شوقة أن فوقية قد ساعَدَت على إشعال الحريق، وحاوَلَت تهدئة الموقف المحتَدِّ بين أَحَبِّ الناس إلى قلبها، عازمةً في قرارة نفسها أن تُوقِفَ الأُختَ الغيور عند حَدِّها في أقرب فرصة...

انتهَزَت فرصة يوم الذبح، وفرحة البيت وفقراء الحارة بتفريق أرغفة الخبز المحشوَّة بلحم الضأن والأرز، والتي قامت على إعدادها شوقة بنفسها:

- مالك ومال "ست" يا فوقية؟ مِغيّرة أمِّك عليها ليه؟

- إنتي اللي مالك ومالنا؟ إيش حَشَرِك وسطنا؟

قفزَت فجأة صورة ابنها السابح في الحوض الزجاجي، وشعرت بثِقَلٍ جاثِم فوق صدرها، دقات قلبها صارت أبطأ، طعنة نافذة استقرَّت بالداخل، أجَّجَت أحزان الماضي، أعادتْ ما فقدته دفعةً واحدة أمام عينيها، كل محاولات النسيان والتعافي والتعامل مع الأمر الواقع ليست سوى هباءٍ منثور، ابن عِرس ينهش رَحِمَها مجدَّدًا، يخبرونها بموت الابن الوحيد والأوحد، بلا أمل في تعويضه، أيقَنَت أنها ماتت معه، وأن كل ما حدث من بعد تلك الحادثة وَهمٌ يَتصبَّر به الموتى في قبورهم حتى ملاقاة أحبابهم...

حاوَلَت شوقة النهوضَ فلم تقدر، أسرعت صابرة إليها، لتساعدها على الوقوف، سقط جسدها كجُثَّةٍ ثقيلة لا روحَ فيها، انخلع قلب صابرة على أختها، صرخت تطلب المساعدة:

- غيتونا يا ناس!

أمَّا فوقية التي أخذ الجميع في توجيه التُّهَم إليها، يسألها عمَّا قالته لهذه المسكينة وتَسبَّب في شَلَلِها المفاجئ، لم تشعر بالذنب مُطلَقًا، على العكس، شعرت براحةٍ كُبرى، وتَشَفٍّ، وإشباع بعد بلوغ الغاية...

عرفت فوقية منذ تلك اللحظة موهبتها الفائقة، قدرتها الخفية على تحقيق ما تريد، منذ تلك اللحظة قرَّرَت أن تترك حسنين يفعل ما يشاء، ويتزوج عليها كما يريد، فليفعل ذلك، لا بأس...

هي فعليًّا لا يهمها إن التحقت ست أبوها بالجامعة أم لا؛ لأنها تعلم ما من أحَدٍ سيترك لها هذا الحُلمَ لتعيشه حقيقةً، ما يهمُّها هو تكدير فرحتها، هو إفساد كُلِّ محاولاتها للإفلات من اللعنة إيَّاها، لن تصبح فوقية بمُفرَدِها في هذا الجحيم.

أصبحت شوقة طريحة الفراش، أخبرهم الطبيب أنها تعرَّضَت لارتفاع في ضغط الدم أدَّى إلى حدوث جلطة بالمخ؛ ممَّا تَسبَّب في شلٍّ حرَكَتِها... جلَسَت صابرة ليلَ نهارَ عند قَدَمَيْها لا تتركها ولا تسلمها حتى للنوم، عندما مرضت شوقة، أدركت صابرة أنها هي التي أصابها الشَّلَل، بَتَرَ أحدُهم ساقيها ويديها، شوقة هي التي ربَّت البنات، كانت هي الأساس وليست مجرَّدَ بديل ينشط بغيابها، بينما ضاع عمر صبر الجميل في انتظار الذكور، ثم حمايتهم، ولكن ما نهاية الصبر والحب والتكريس؟

خيبة أمل... بَصقَة على الوجه... إخفاقٌ مُدَوٍّ...

ثم تلك الطامَّة الكبرى: عجز شوقة...

إلَّا شوقة...

ذهبت البنات ليزُرن أُمَّهنَّ شوقة، حتى وداد، استجمعت قواها الواهِنَةَ، واستندت إلى "ست" لترى حبيبتها، جاءت عدلية تحمل رضيعتها، ونعيمة بحملها الجديد بصحبة زوجها وابنها حسين، وفوقية بحِقدٍ وحَسَدٍ وغضبٍ في القلب، وهي مُجبَرَةٌ على رؤية أختيها تَرفُلان في النعمة، أتى طلعت كشَبَحٍ وقف عند بابها وسَلَّم سلامًا قصيرًا، وسرعان ما اختفى... أمَّا مصطفى فكان أشبهَ بالطفل التائه عن أُمِّه في السوق، يجلس عبد العليم بقربه مُحاوِلًا التَّسريَة عنه وتشتيت ذهنه عن الاستغراق في الحزن والحسرة، تنظر شوقة إليه وكأنها تراه لأول مرة، هل هذا هو مصطفى الذي لم يُبالِ قطُّ؟ والذي ربما

نسي شكل البيت من كثرة ما هجره؟ ما زال الصندوق الزجاجي في مكانه، تتأمَّل وجه ابنها وتحسُّ بأن التجاعيد قد بدأت تعرف طريقها لملامحه.

تُشعِلُ صابرة البخور، وتُجهِّز مستلزمات قتل العيون الحاسدة التي رمقت مَحبَّتَهم لبعضهم البعض، تُقسِم على أن تخسف بالشيطان الأرض، المؤذي الذي نزغ بين الأخوة والصُّحبَة وانتقم من شوقة لأنها أشدُّهنَّ طِيبَةً، والمؤمن مصاب...

بالإبرة الغشيمة أخذت في نقر العروس المصنوعة من الورق وذِكر أسماء المشتبه بهن، المسؤولات عن ذلك الأذى الأسود، وأتمَّت الطقوس على أحسن ما يكون، ثم دَسَّت الإبرة في الحجاب ووضعته تحت وسادة شوقة. وفكَّرَت في إقامة زارٍ لطَردِ نفوس الجِنِّ الشرير من جسد رفيقة عمرها.

في الوقت نفسه، كان حسنين يستعدُّ للزواج من منيرة ابنة أعزِّ أصدقائه، والذي وافته المنِيَّة تاركًا خلفه أورطة يتامى، عرض الصديق "المخلص" على الأم أن يأخذ منيرة زوجةً له، محاولًا التخفيفَ عنها من حِمل أُسرَتِها الثقيل مقابل مبلغ من المال يدفعه إليها كإعانة شهريًّا، وافَقَت على مَضَضٍ وهي تدفع بابنتها ذات الخمسة عشر عامًا إلى كنف حسنين.

وافقت فوقية على زواجه، الأمر الذي استغربه حسنين كثيرًا، وتوجَّس منها خيفةً، إلَّا أنها اشترطت أن يقسم حجرة النوم بين الاثنتين، نظر إليها ذاهلًا:

- انتوا الاتنين في أوضة واحدة؟

- ده شرطي!

لم يفهم حسنين نوايا فوقية، هو زوجها، وأدرى الناس بقدرتها الفائقة على الأذى، ولكن ماذا تنوي أن تفعل بِجَعل ضُرَّتها معها في نفس الحجرة، بل ونفس السرير؟ إلا إذا كانت تعتزم على كسب منيرة والتحالُف معها ضدَّه، وعلى رأي المثل "إن اصطلحت الضرايِر خرب البيت"؟!

لن يُنكِرَ حسنين أنه طمع في البنت منذ مات أبوها، طابت في عينيه واشتهاها، تَطيبُ البنت "مِن دول" في عين الرجال إن لم يكن خلفها ضابِطٌ ولا رابط، ولكن ربما كانت تلك إرادة الله لكي تجلب له منيرة الوَلَدَ الذي اشتاق إليه، وتحرمه منه فوقية العاقر، إلَّا أنه لم يتوقَّع سَيرَ الأحداث بتلك الطريقة، وترحيب زوجته على هذا النهج المريب، ولكن على أي حال هو الرَّجُل، والكلمة كلمته، ولن يَدَعَها تُفسِدُ حياته.

قسمت فوقية الحجرة والمخدع بستارٍ لا يحجب الرؤية تمامًا، واستقبَلَت العروسَ اليتيمةَ بزغرودَةٍ كأنَّما خرجت من فَكِّ لَبُؤَة تَكيد لفريستَها، والتفتت إلى حسنين وقالت بتَهكُّم:

- مبروك يا سِيد الرِّجَّالة!

وقالت في روحها: "وماله... نبارك له، ما اللي تشوفه راكِب على عصا قل له مبارك الحصان"!

تَرَكَت زوجها يَفضُّ بكارة البنت ويفعل بها ما يشبه الاغتصاب برُخصَةِ الزواج الذي يبرأ منه الله ورسوله، اطمأنَّت أن الفتاة ساذجة ولا تتقن شيئًا من مكائد النسوان ولا أساليبهن في السيطرة على

بعولتهن، أثناء مراقبتها لجميع ما يحدث من خلف الستار، كان الزوج مُنزَعِجًا، ولكنه لم يُبالِ، وتصوَّر أنه يُلهِبُ قَلبَ فوقية القوية بالغيرة لتتمسَّك به أكثر، وتتفنَّن في إشباعه أكثر!

أمَّا الذبيحة التي باتت تصرخ تحت جسده وتبكي بجنون، أخذت في المناداة بين الحين والآخر على الأموات الذين لا يعودون:

- يابا الحقني... يابا انجِدني...

وبعدما فرغ منها، شدَّت فوقية ذراعه، وبدأت تمارس معه ما تُتقِنُه، على مرأى ومسمع من الذبيحة، شعرت منيرة بأنها دخلت عشًّا مليئًا بالحَيَّات والثعابين، ولا يزال ينتظرها ما هو أسوأ بكثير...

وصدَقَت تَوقُّعاتها، تَفَنَّنَت فوقية في تجريدها من كل أمارات الحياة، أنهَكَتها بالعمل في البيت طوال النهار، تنهال عليها بالضرب وتكوي جسدها الغَضَّ بالنار، يراها حسنين فيثيره ما يَجِدُه منها من ضعف وهزال، ويُؤجِّج رغبته فيها أكثر، تلتقطه فوقية ليُواقِعَها هي أوَّلًا، وليس لليتيمة إلا فضلة خيرها وما سمحت لها بأخذه، تمامًا كالطعام الذي لا تُطعِمُها منه إلا الفتات، مُستَمتِعَةً برؤيتها تمضع ما بصقته آنفًا...

حاوَلَت منيرة الهرب مرارًا، حاولت القفز من بئر السلم، قطعت شرايينها بالسكين، كل ذلك لم يفلح في تحريرها من قبضة الاثنين، حتى نجح عقلها في الفرار من ذلك الجحيم، وأصبحت منيرة اليتيمة مجنونة، تُمزِّقُ خُصلات شعرها، تضرب وجهها في الحائط حتى تغيب عن الوعي، تخلع ملابسها بالكامل في الحارة، ثم تنام على الأرض، وفوقية تراقب ما يحدث من أعلى، في تَشَفٍّ واكتفاء...

انتهى الحال بمنيرة إلى الطرد من البيت لتجوب الحارات والشوارع، وتنام مع الكلاب والقطط الضالَّة أسفل عربات الكارو وعلى الأرصفة، لم تَعُد تستطيع التَّعرُّفَ إلى أحد، لا أمها ولا إخوتها، هم أصلًا لم يحاولوا ذلك، ولكنها لن تنسى أبدًا فوقية وحسنين، ستبصق في الهواء بصقة طويلة كالطفل الذي لا يعجبه مذاق الطعام الجديد عليه، وتصيح صياحًا أشبه بنباح جروٍ، ثم تغيب في نومة عميقة.

في الوقت الذي تفنَّنَت فيه فوقية لتقضي على مستقبل طفلة يتيمة، كانت أختها "ست" تشقُّ طريقها كطالبة في كلية الطب، يستغربها النساء قبل الرجال، تستمدُّ طاقتها من الأمل في تحقيق طالعها المقروء بعين وروح وداد، والأهم من ذلك أنها مدفوعةٌ بإيمانها بنفسها وقدراتها على تغيير حاضرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(30)

رُسومُ الرَّبِّ

حَثَّت سيبيل تيودور على العودة إلى مصر في أقرب فرصة، لن يُنسيها الفَقدُ أحلامها ولا طموحها الخالد لابنها وحيدها تيودور.

"أصبح تحقيق الأحلام الآن ضرورة مُلِحَّة تريح الميِّت في قبره، والحي في مضجعه، لا يهمُّ ما نريد، المهم هو ما يجب أن نصبح عليه، المُتَوقَّع منَّا، بحسب إمكاناتنا وقدراتنا، اختَبِرْ نفسكَ، وانظر لأي مدى بإمكانك أن تَصِل".

كانت تلك كلمات سيبيل لتيودور الحزين الشاحب، شعرت أن الأمر لا يتعلَّق بوفاة بولي فحسب، هناك شيء آخر، قلبها يأكلها على ابنها، غير أنها لا تريد أن تسأله الآن، ربما أنكر وأغلق المناقشة للأبد في غمار هذا البؤس البادي على وجهه، خاصَّةً أنه استجاب لمطلبها وقرَّر العودة إلى مصر.

استجمع تيودور قواه وقرَّر أن يذهب إلى بيرل في بيتها، أخبره الخادم أنها سافرت إلى بريطانيا منذ عدَّة أيام. لو أن أحدهم يَطَّلِع على فؤاد تيودور لوجده مفطورًا، هطلت دموعه بغزارَةٍ، مُستَحضِرًا صورتها في فيلم البرق الخاطف، وهي تبتسم في مكر بعد أن نجحت في سرقة المتحف، بيرل البارعة في سرقة القلوب، خُيِّل إليه للحظة أنها تناديه كعادتها كما لم يُنادِه أحد من قبل: تيو، كان على وشك أن يترك لها خطابًا، ولكنه تراجع، وآثر أن يرحل في صَمتٍ دون أن يزعجها مرَّةً أخرى.

استقبل تيوخاري تيودور استقبالًا حارًّا، وأقام له مأدبة عشاء ليقدِّمَه للجميع بصفته الوريث والشريك الجديد القديم، في اليوم التالي عندما ذهب تيودور إلى طُرَة وجد اللافتة التي تحمل اسم أبيه:

P. Cozzika & Co, Fabrique d'Alcool, Tourah, Le Caire, Egypte.

تذكَّر على الفور ما قالته سيبيل: "لا يهم ما نريد، المهم هو ما يجب أن نصبح عليه"؛ بالطبع لأن ما أراده تيودور بكل كيانه هو ليلة أخرى مع بيرل وايت، ليلة يستطيع أن يشرح لها فيها كل شيء، لو أنها فقط تكفي!

أَمَرَ تيوخاري الحَمَّالين أن يضعوا لافتة جديدة، تحمل اسم تيودور قبل اسم بوليخروني، هرع الابن إليهم يمنعهم من رفع الاسم القديم، يأمرهم بالإبقاء عليه، ونسيان أمر اللافتة الجديدة، ازداد تيوخاري إعجابًا بالشاب الكريم، واحتضنه دامِعًا، صفَّق جميع العاملين بحرارة، وعلى رأسهم ستافانوس الذي خلع قُبَّعته وحَيَّا تيودور بأفضل تحيَّة، وكل ما يتردَّد في أعماق الوريث وصيَّةُ أمِّه: "لا يهم ما نريد، المهم هو ما يجب أن نصبح عليه".

ولكن في غضون أسابيع حدثت لتيودور مفاجأةٌ كُبرَى، أدخلته عالم الأمنيات مرَّةً أخرى، كان خطابًا من بيرل وايت!

دقات قلب تيو تتَسارَعُ، سيتوقف قلبه قبل أن ينجح في فتح الظرف، ابتلع ريقه وانتظر بُرهَة وهو يُصلِّي باسم الآب والابن والروح القدس، بدأ يقرأ في خشوع:

"عزيزي تيو،

أعرف أنك منزعج من اختفائي في باريس دون سابق إنذار، أعتذر لك، ولكن أشترط أن يكون ذلك وجهًا لوجه لأشرح لك التفاصيل، أنا هنا في شيبرد، القاهرة. أتمنَّى أن تأتي لمقابلتي...

"P.W

لا يمكن أن يتحوَّل امرؤ بهذه السرعة من شِدَّة الإحباط والحزن إلى التَّرقُّب والخوف، ثم إلى سعادة غامرة تكاد تطير بقلب صاحبها...

كم أريد الاحتفال على الطريقة اليونانية: أن أكسر مئات الأطباق فرحًا وحبًّا!

ماذا تفعلين بي يا بيرل؟

أدار تيو اسطوانةً جديدة لآل جولسون، وأغلق باب مكتبه بإحكام، وانطلق ليرقص على أنغام الأغنية المبهجة:

Baby Face, you've got the cutest little baby face

There's not another one could take your place, Baby face

My poor heart is jumpin', you sure have started somethin'

Baby face, I'm up in heaven when I'm in your fond embrace

I didn't need a shove, 'cause I just fell in love

With your pretty baby face

أنا قادِمٌ يا بيرل، قادِمٌ إليكِ يا حبيبتي!

نسي تيودور العالَمَ كُلَّه في لحظات، بما في ذلك غضبه من بيرل نفسها، لأول مرة يختبر تيودور هذا الشعور الغامر بالحب، نعم إنه يحب للمرة الأولى، وربما أتاه الحب على قدر ما يحمل من حساسية وروعة في قلبه الغَضِّ، الحب مرآة الإنسان، سوف يزورك بقدر ما تستطيع أن تحب، سيداهمك كالقَدَر بنفس القوة التي تتمتَّع بها، وبمقدار عطائك وسخائك، سيصير ظِلُّك الطائر يتبعك أينما حَلَلتَ، ثم يَصرَعُكَ على الطريقة التي تُفضِّلها أنتَ لا أحَدَ سواكَ.

ثم رآها، ظهَرَت أمامه في ثوبٍ أبيض أنيق، وبعِطرٍ فرنسيٍّ فَوَّاح لا يقاوم، وبالابتسامة ذاتها، نعم، الابتسامة الماكرة التي سلَبَته عقله وقلبه معًا، كانَ تيودور مُحِقًّا، ترافق بيرل هذه الابتسامة منذ الطفولة، منذ كانت تضطرُّ إلى الكذب على أبيها لتغطِّي على جرائمها الصغيرة، لم تتغيَّر بيرل قَطُّ، جَثَا على ركبته مُقَبِّلًا يدها، وهمس:

- مارجريتاريا!

رفعت بيرل حاجبيها مُتعجِّبَةً من الاسم الغريب الذي ناداها به، ولم تفهم:

- ومن تكون مارجريتاريا تلك؟

- وهل هناك أحدٌ في هذا العالم سواكِ؟

- ولكن أنا بيرل يا تيو، هل نسيتَ اسمي أم أنَّكَ مخمور؟

- مارجريتاريا هي بيرل باليونانية، أنتِ فعلًا لؤلؤة ليس لها أختٌ!

احمرَّت وجنتا بيرل، في خجلٍ واضح، لقد عكفت طوال حياتها على إخفاء حُمرَة خدَّيْها بالمساحيق، لم تَكُن تتأثَّر بشحوبها من شِدَّة الجوع وسوء التغذية وهي فتاة في ريعان الصبا، لكَم كانت بيرل فقيرة، ولَكَم باتت تحارب فقرَها بلا يأس، كم من فِرَقٍ تمثيلٍ انضمَّت إليها قبل أن تصير الجريئة الفريدة بيرل، كم من المدن والقرى جابت بقدمين ضعيفتين لتشقَّ طريقًا وعرًا!

كل ذلك فكَّرَت فيه قبل أن تَردَّ على "تيو"، الشاب الذي يبدو أنه أعجبها بالفعل، للدرجة التي جعلتها تركض خلفه إلى هذا البلد البعيد مصر، لا تُصدِّق حتى تلك اللحظة أنها فعلتها، ورغم انغماسها في الشَّرب أغلب الوقت، وأنها على مدار الأيام الفائتة باتت ثَمِلَةً تمامًا، لكنها واثقة أنها عندما اتَّخَذَت هذا القرار كانت في كامل وعيها ويقظتها!

فكَّرَت أيضًا في إخفاقاتها العاطفية المتكرِّرة، ولكن تظل هي الجريئة بيرل التي لا تخشى من خوض تجارب جديدة مهما بَدَا الأمر خَطِرًا.

قبل أن تتفوَّه بكلمة واحدة كان تيودور تقريبًا يحملها، رفعها في ضَمَّةٍ طويلة اختزلت كلَّ الوحشة وانفطار القلب والحب، فوجئت بيرل ولم يترك لها تيو أدنى مجال للمقاومة أو إبداء الاعتراض. صارا على تلك الحال أيامًا وأسابيعَ، حتى بلغت إقامة بيرل شهرًا كاملًا في مصر، وهي بعيدة عن العالم الذي عرفته، أصرَّت بيرل على إبقاء علاقتهما سرًّا، في الوقت الذي كان يتمنَّى فيه تيودور إعلانَ حُبِّه للجميع، وعلى رأسهم أمه وعمه، أصرَّت بيرل أيضًا أن تشتري بيتًا بالقرب من "تيو"، الذي دفع نصف ثمنه، قائلًا لها:

- أريد مُشارَكَتَكِ!

- ولكنَّكَ لا تُحِبُّ الشَّراكة، أعرف ذلك!

- فضلًا ميس وايت، لا تُقارني نفسَكِ بأحدٍ مَرَّةً أخرى!

- ممم... ميس وايت؟!

- وإن شِئتِ: مسز كوزيكا!

- أوه يا ربي! كم مَرَّةً يجب أن نتحدَّث في هذا الأمر يا تيو؟ أَلَا تَملُّ من عَرضِكَ؟

- أمَل حياتي وروحي ولا أمَل هذا العرض يا بيرل! لا أعرف كيف أقنِعُكِ!

- ما زلتَ لا تفهم! أنت صـغـ...

- أرجوكِ لا تجرحيني ثانيةً، في كل مرَّةٍ تقولين هذا الكلام تسلبيني جزءًا من رجولتي أمامَكِ!

احتضَنَته بشدَّة، قَبَّلَته في فمه قُبلَةً لها طعمِ الحرية في شوارع باريس، وممرَّات جرين ريدج الخضراء بأشباحها، لها طعمُ اليُتم في كوبا، ولَذَّة الوقوع من فوق حبل رفيع في سيرك وسط التصفيقِ مهما كانت العواقب، لها طعم الحب الحقيقي المُستَتِر خلف شريط السينما الصامت... كانت بيرل كُلّ ذلك، واختارت تيو لكي تُودِّعه إياه في فمه وأنفاسه...

- ألا تفهم؟ أنا أُحِبُّكَ يا تيو!

- أحبُّكِ بيرل، أُحبُّكِ، وأريد أن يعرف الجميع كم أحبك!

- لا يهم أن يعرف الجميع، الأمر لا يهمُّ أحدًا سوانا يا حبيبي، الناس تُفسِدُ الحُبَّ، تجعله يضيع من بين أيدي المُحبِّين، في البدء يغبطونك، ثم يحقدون عليك، ثم يرمقونك بنظرات الغيرة والحسد، وفي النهاية يمدُّون أيديهم بكل الطرق لإفساد مُتعَتِكَ الوحيدة، للتفريق بينك وبين حب حياتك.

انهمَرَت دموع بيرل، كانت تمسك بظهرها وتبكي، انتفض تيودور يسألها عمَّا يوجعها:

- لا يوجعني سوى قلبي، قلبي مُنهَكٌ يا تيو، افهَمْ ذلك، لقد أحبَبتَ امرأةً مفطورةَ القلب، لا يسعها أن تضحك على الدوام، لا تقدر على حمل طفل لك، صَرَعَتها العيون، وأحرقتها الأضواء، وأكَلَ شريط السينما صوتها! ماذا ستفعل بي أيُّها المسكين؟

- دعيني أحبكِ، فقط دعيني أحبك...

لَطالَما أخفت بيرل أوجاعَها عن تيو، لم تخبره قطُّ أنها تعاني من إصاباتٍ مُتعدِّدَةٍ في جسدها إثر وقوعها مرَّاتٍ ومرات منذ طفولتها، وبسبب قيامها بكل أدوارها بنفسها دون اللجوء إلى بديل أو دوبلير، وعندما حدث ذلك مرَّةً واحدة أدَّت إصابة البديلة إلى وفاتها. أدوارها كأقدارها، لم يحتملها أحدٌ غيرها. حتى فمها لم ينجُ من إصابةٍ بالسَّيف على المسرح في بداية مشوارها؛ لأنها تبارز بفم مفتوح، أدخل زميلها الممثِّل السيف -دون قصدٍ- في فمها، فظلَّت تنزف، حاوَلَت الصمود لنهايةَ المبارزة الجادَّة، ولكن انتهى بها الأمر إلى سَبِّ الممثِّل ومغادرة المسرح، ليضحك الجمهور!

قبل ظهور تيو في حياتها كان الخمر هو رفيقها المثالي، يُخدِّر آلامها الجسدية التي لا تهدأ إلا به، ويُدخِلها عالَمَ الغياب الذي تشتاق إليه دومًا، تتمنَّى بيرل أن تختفي عن العيون بعد أن صارت أمنيتها الوحيدة هي أن تمتلئ بها ذات العيون، لإحَظَت في آخر أفلامها أن الكاميرا لا ترحم، لن تخفي آثار السنوات ولن تطمس جمالَ وشباب الأخرَيات اليافعات وأجسامهن الممشوقة، النابضة بالحيوية والإثارة، عالَمٌ قاسٍ عرفته جيِّدًا، حاولت نسيانه بمُعاقَرَة الخمر ليلَ نهارَ، حتى أدمنته.

حاول تيودور مرارًا إثناءها عن الشُّرب بكثرة، بذل نفسه ليُسرِّي عنها، أخذها في رحلاتٍ جابَا خلالها العالَمَ بأسرِه، لم يتأثَّر يومًا بما قالته عنه عائلته، لم يستجب لتوسُّلات أُمِّه لكي يترك بيرل،

التي ستقضي على مستقبله وتَضيِّع أمواله، وأموالهم، ولا ضعف أمام تهديدات عمِّه تيوخاري بإقصائه من كل شيء، ثم استسلم الجميعُ أمام إرادة تيودور الصلبة في الإبقاء على بيرل، كان مثل أبيه: حادَّ الذَّكاء، قويَّ الشخصية، ومؤثِّرًا للغاية، ينجز الأعمال كافَّةً، يعقد أكثر الصفقات ربحًا، مع مُضيِّ الوقت، وبمرض تيوخاري أصبح هو الآمِر النَّاهي في الفابريكة، وجده ستافانوس أكثرَ مرونةً في التعامُل وتناغم العمل فيما بينهما، حتى العمال أحبُّوا تيودور أكثر! بات هو المُفضَّل لديهم بحكايته الشيِّقة مع الممثِّلة الأمريكية التي يرافقها.

لسنواتٍ ظَلَّ الثنائي بصحبة بعضهما البعض، لا يكفُّ الناس عن السؤال: متى يتزوجان؟ ولكن ظل الاثنان على موقفهما من العالم في تجاهُلٍ تام، لم يُعِر أيٌّ منهما للغير اهتمامًا، الحب، والحب فقط، تزورهما نوبات من الجنون الخالص، يطوحان الأطباق في الهواء ويكسرونها باستمتاع ولَذَّة، أحبَّت بيرل اللعبة اليونانية كثيرًا، وعرفت من تيودور أن كسر طبق بين حبيبين على وشك الافتراق سيجمعهما للأبد إذا احتفظ كلٌّ منهما بنصفه. في كل مرَّةٍ تحاول بيرل أن تُفلِتَ من الإحساس بالذنب تجاه تيودور، فتستعد للسفر وتكتب له خطاب وداع، يرنُّ جرس الهاتف، تلتقط المكالمة:

- أفتَقِدُكِ يا لؤلؤتي الصغيرة.

ثم يُمطِرُها بالقبلات عبر سمَّاعة الهاتف، تسقط دموعها بدون صوتٍ كما تَعوَّدَت، تُمزِّق الخطاب، وتنسى أمر السفر والوداع، وتتذكَّر فقط أنها تحبه وتريد البقاء معه حتى آخر لحظة من حياتها.

"كيف أتركه؟ لا أستطيع!".

حتى عندما كانت تضطرُّ إلى السفر لباريس، بالقرب من الشانزليزيه، حيث الكازينو الذي تملكه -مكان اللقاء الأول- والملهى الليلي المُلحَق به؛ لمتابعة سير العمل- كان تيودور يسافر معها، يحضران سباقات الخيل المملوكة لبيرل، يُلبِّيان الدعوات الرسمية، ويذهبان معًا إلى الحفلات، يُسمُّونه رفيق بيرل في وطنها وفي أوروبا، ويُسمُّونها رفيقة كوزيكا في مصر، لم يَعُد الثنائي يبالي بهَمهَمات الناس حولهما، حتى بيرل نفسها تجاوَزَت الأمر تدريجيًّا، ولم تَعُد تخشى الحديثَ عنها وعن تيودور، وليذهب العالم إلى الجحيم...

قلَّد الثنائي المُحبِّين، حَرصَا على تَرْكِ اسمَيْهما فوق جذوع الشجر، وعلى الرمال المُبلَّلة بماء البحر، لمسا الزهور وأجنحة الطير، وطارَدَا الفراشات بلمسة الحب السحرية التي تطيل العمر. بالطَّبع ذَلَّلَت الثروةُ لهما الكثيرَ من الصعاب، وأدخلتهما في عوالم من البهجة والمتعة والنشوة لا يظفر بها المُحبُّون الفقراء! ولكن سرعان ما كانت بيرل تدخل في كهفٍ مُظلِم من الكآبة من حينٍ لآخر، يتحلَّى خلالها تيودور بكل ما يملك من صبر وحُبٍّ حتى يُخرِجَها من ظُلمَتِها، إدمانها على الكحول أخذ في الازدياد يومًا بعد يوم، وعامًا وراء عام، إلى أن صارَحَت بيرل تيودور بحقيقة مرضها، وبإصابات ظهرها التي لا علاج لها سوى بتسكين الألم وتخديره، خاصَّةً بعد أن صار غيرَ مُحتَمَلٍ، صارت الجريئة بيرل عاجِزَةً تمامًا.

في الوقت الذي تزدهر فيه صناعة الكحول في فابريكة طرة، وتزداد الأرباح، وتتضاعف ثروة العائلة، وحيث كان الكحول يفتك بكبد بيرل، اشتدَّ المرض على تيوخاري، بعد شهور من وضع حَجَرِ

الأساس للمستشفى اليوناني بالإسكندرية، الذي يحمل اسمه، وقرَّر بناءه على نفقته، دفع تيوخاري أكثر من مائتي وخمسين ألف جنيه مصري، ولكنه لم يُسلِّم المستشفى لرئاسة الجالية التي تكرهه وتستبعده، تيوخاري صاحب المنتج سيِّئ السُّمعَة آثر أن يكون مستشفاه تحت أيدي دولة اليونان مباشرةً... ومع ذلك لم يظفر المسيو برعاية طبِّيَّةٍ فيها؛ لأنها لم تكن قد جُهِّزَت بعدُ!

يومًا ما نظر في المرآة، دمعت عيناه والتفت إلى كيكي، قال لها مُسائِلًا في حيرة طفل:

- لماذا نَشيخ يا كيكي؟

- نشيخ لأن الحزانى يحتاجون إلى تَرهُّلات فضفاضة تحتضن قلوبهم الخُضرَ، وإلى تجاعيدَ مَرِنَةٍ لديها المقدِرَةُ على مغادرة الوجوه والأيدي إلى أسفل، تتدلَّى لتربت على الأكتاف المثقلة، وترسم خرائط جديدة أمام العيون اليائسة لتدهشها، نحن أمل الصغار في حياة قد تمتدُّ طويلًا تتَّسِع لتحقيق أحلامهم، أصواتنا الواهنة طيَّات وثنيَّات من المحبة، كل حشرجة طيَّة حُبٍّ. الشيوخ لديهم فائض من الأعمار والحيوات تتمدَّد أشرِعَةً وقتَ الحاجة لتنقذ الغرقى، أو لترتدَّ إلى عوالم فرِحَة لا حُزنَ فيها!

ومع ذلك حاول الأطبَّاءُ بَذْلَ كُلِّ جهدٍ مُمكِن لإنقاذ حياة كوزيكا، ملك السبرتو، صاحب الأربعة ملايين جنيه، أُحيطَ بِثَمَرِه: إيكاترينا وابنها نيكوس وتيودور الثالث وابن عمهما الذي وقف معهما بنصف قلب ونصف عقل، تربت سيبيل على كتف كيكي، تحاول أن تواسيها، تخبرها عن طريق لغة الجسد أنها سرعان ما ستصير أرملةً مثلها، يتحدَّث الطبيب المعالج مع الابن بجدِّيَّةٍ، وتبدو على ملامحهما آياتُ الخيبة وانقطاع الأمل، أمَّا تيوخاري فكان يهذي بكلمات قضى شبابه وشيخوخته في العمل من أجلها، مثل: فابريكة، طرة، النيل، كحول، إيكا، تيودور، وكيكي... ثم أخذ في مناداة أبَوَيه وعَمِّه، ثم نيكوس، الكثير من المناداة على نيكوس، الإسكندرية، كاريستو، هيلاس، جلطة كبيرة أصابت شريانًا تاجِيًّا يُغذِّي القلب؛ ممَّا تَسبَّب في موت جزء كبير من العضلة والمضخَّة التي تعتمد عليها حياة المرء.

كان الوضع مأسويًّا للغاية، خرج تيودور غارقًا في قلقه وحزنه الذي تضاعف بمرض عَمِّه، يفكر في الاحتمالات كافَّة، يخشى من مجرَّد تَخيُّل الفكرة المُخيفة: أن يموت تيوخاري ويترك له إدارة كل شيء!

سمع صرخة كيكي فهرع إلى الداخل لِيَجِدَ عمه قد ترك كل شيء، ترك الفابركية والمال والولد والحبيبة، ترك أطباقه الطائرة كما هي تتأرجح فوق العيدان، ورحل هو في غمرة التصفيق والتشجيع والإنبهار. تذكَّر الوريث كلمات بيرل كلَّما عرض عليها أن تشرب البيرة بدلًا من الجِن أو الويسكي أو الكونياك حِرصًا على صحتها، فباتت تضحك ساخِرَةً، وتقول له في كل مرَّة:

- البيرة لا تنفع ولا تَضرُّ أيُّها المسكين.

مثلها كمثل ملايين المسيو، لم تنفعه ولم تضرَّه.

أُقيمَت جنازة المسيو كوزيكا في البطرياركية الأرثوذوكسية بمعشوقته الإسكندرية، وسط عُمَّاله الحزانى: سمعان وأنطون وعبد العليم ومصطفى، وغيرهم من مئات المصريين واليونانيين الذين وفَّر لهم فُرَصَ عَمَلٍ أنقذتهم وأُسَرَهم من الفقر، المئات من اليتامى الذين تبنَّاهم المسيو وأنفق عليهم،

المئات من إخوته أبناء هيلادا، الذين طالما افتخروا به وبمشروعه الكوزيكي الذي كرَّس له حياته، وفرض نفسه على أرضٍ يَتنافَسُ فوقها كبار التُّجَّار والصُّنَّاع. أمَّا ستافانوس فلم يهدأ إلا عندما تَبِعَ العائلة إلى كاريستو، حيث مثوى كوزيكا الأخير كما أوصى، لِيُدفَن بجوار والِدَيْه وأخيه، حمله البحر مجدَّدًا، البحر الواسع الغامضِ الذي يمتلئ عن آخره كل يوم بفضل دموع الراحلين. طالما كان البحر هو العَقَبة التي يجب أن يتخطَّاها تيوخاري قبل أن يَصِلَ إلى ما يريد، يطاوعه البحر هذه المرة أيضًا حتى يمتلئ بالدموع ليحيا، كما طاوَعَ الراحلين من قبله ومن بعده، وكما هادَنَه في رحلته الأولى خارج اليونان، هو ذَلِكمُ الشابُّ القديم الذي دخل الإسكندرية مُحمَّلًا بالأحلام الكبرى يخرج منها الآن...

يا كُلَّ السنوات البائسة

والأزمنة التي مَضَت

الشباب لن يعود

لا الشباب ولا الجمال

ولا كبرياؤنا الدفين!

عاد تيودور بعد فترة وجيزة إلى بيرل في باسي، رغم توسُّلات سيبيل بألَّا يترك المصنع الآن، خاصَّةً بعد رحيل عَمِّه، يجب أن يظل في الصورة، لا، بل يجب أن يكون هو الصورة ذاتها، لم يستجب الابنُ للأم، احتلَّت صورة عَمِّه مُخيِّلَتَه عندما رحل بلا شيء، ما فائدة كل ذلك الآن؟ طار إلى حبيبته ليطمَئِنَّ عليها فوجدها هزيلةً للغاية، لا جهد فيها حتى لتمشيط شعرها، تجرُّ رِجلَيْها جرًّا كأنَّ ما يجري بهما رمالٌ لا دماء، تغيب عن الوعي ثم تستعيده وهي في قِمَّة الثورة والغَضب، تضرب الخَدَم، وتَسبُّهم، تحوَّل جزءٌ كبير من جسدها لِلَّون الأحمر المائل إلى الزُّرقَة، تنظر إلى تيو دامعةً، تسأله عمَّا يحدث لها:

- تيو، هل رأيتَ هذه الكدمات الغريبة؟ يبدو أن الله أراد رَسمَ شيء ما على جسدي، ولكن انسَكَبَت منه الألوان في اللحظة الأخيرة!

تنهمر دموعه، يأخذها في أحضانه، ويقنعها بضرورة رؤية طبيب، والذي أمر بنقلها إلى المستشفى في أسرع وقت!

لقد دمَّر الكحول صحَّةَ بيرل، أفسد عقلها، وعَطَّل كبدها عن العمل، عندما أخبرها تيو بضرورة البقاء في المستشفى بباريس لبعض الوقت، رفَضَت، أرادت أن تخرج إلى الشارع، طلَبَت منه أن يُحضِرَ لها فِراءَها المفضَّل من البيت، قالت له:

- التمثيل جعلني أعتاد على ارتداء المعاطف الفرو في عِزِّ الصيف، وملابس الصيف في قلب الشتاء.

لأوَّل مرَّة يشعر تيودور بمسؤولية كبيرة تجاه بيرل، تفَنَّنَت طوال السنوات الفائتة في خداعه، مثَّلَت أفضل أدوارها على الإطلاق عندما أخفت عنه كل هذه الآلام، دسَّتها في قلبها وجسدها وأخرجت له وجهًا باسمًا يرسم السعادة بإتقان، على طريقة الحواة ومُهَرِّجي السيرك!

عانى تيودور طويلًا كي يُبقي عليها في المستشفى، كلما أفاقت من غيبوبتها طلبت منه الخروج إلى الشارع، حاوَلَت الهروب أكثر من مرة، لتعود محمولةً بين يدَيْ "تيو".

لم يعد تيودور يحتمل ما تعانيه بيرل، كان كثيرًا جدًّا على المرء أن يشاهد محبوبته تموت أمامه وهو عاجز تمامًا عن مساعدتها، أحيانًا يؤنِّبه عَقلُه:

"أَلَا يوجد في الكون سواها؟ لماذا بيرل وايت من الأساس؟ ومتى تهرب من هذا الجحيم لتنعم بشيء من الهدوء والطمأنينة؟ مرضها مُزمِن، وقلقك مزمن، ماذا تنتظر؟"...

ينظر إليها مُتأمِّلًا إيَّاها في صمت وهي نائمة، كطفلٍ مُنهَكٍ من اللعب لساعاتٍ، لتصحو فجأة من نومها مبتسمةً له في رضا، قائلةً:

- لَيتَكَ لم تأتِ قَطُّ يا حبيبي.

- اكتُبي لي أي سيناريو آخر يُمكنني من رؤيتك دون أن أقع في حُبِّكِ، تخلَّصي من التفاصيل المؤدِّية إلى عينيكِ، واحذفي المشاهد التي لا جدوى منها وأنتِ تغلقين بابك في وجهي دون أن تَرقِّي لقلب مريضٍ بِكِ، امحي كل هذا الحشو الغنيِّ بابتسامِكِ ولَهوِكِ، غيرِّي أسباب اللقاء إذًا، رتِّبي لَقاءً جامِدًا بدلًا من لقاء شاعريٍّ لا يُنسَى، عودي بنا لنقطة ما قبل القضاء والقدر لننسف كل ما حدث وننثر رماده على الشطآن التي أشبعناها حُبًّا وقُبلات.

- "تيو"... أنا أموت... أشعر بذلك، لا تتركني وحدي! لا أحدَ لي يا تيو... لا أَحَدَ...

- حتى وإن بدا أن لديَّ عائِلَة يا بيرل، فأنتِ كلُّ عائلتي، أنتِ حُبِّي الذي عِشتُ له. عِشتُ له فقط... يجب أن تستعيدي صِحَّتَكِ يا حبيبتي، سنتزوَّج!

- ماذا تقول أيها المجنون؟

- العالم يتغيَّر يا بيرل، ألم تسمعي بآخر الأخبار؟ لقد تنازَلَ الملك إدوارد الثامن عن عرش انجلترا لأنَّه أَحَبَّ سيِّدَةً مُطلَّقَة ويريد الزواج منها!

- أوه، يا ربَّتي، غير معقول! ومَن تكون؟

- اسمها بيسي والاس، من بلو ريدج، بنسلفانيا! أليست تلك مُصادَفَةً عجيبة؟ هي من بلو ريدج، وأنتِ من جرين ريدج! كلاكما أمريكيَّتان!

تضحك عاليًا بصَوتٍ واهِن:

- أمريكا تغزو العالم!

كان قد مضى أكثر من عشر سنوات على اللقاء الأول بين بيرل وتيودور، مضت كقَبضِ ريحٍ، إلَّا من عامَيْن أخيرين مشى الزمن خلالهما بطيئًا، بيرل تتخبَّط بين الصحة والمرض، واليقظة والغياب، يسمح لها الطبيب بالتَّنزُّه فتذهب مع تيودور مرَّةً إلى السيرك ومرَّة لمزرعتها لتتفقَّد خيولها، ومرَّاتٍ

إلى السينما لمشاهدة أفلام هوليوود، تخرج غيرَ راضية، الحوار الصوتي يُفسِد خيالها، تتنهَّد وتسند رأسها إلى كتف حبيبها:

- لم أَعُد صالِحَةً لهذا الزمان يا تيو!

وكأنَّ يَدَ القدر ترتعش عند كتابة السطور الأخيرة في حياة كلِّ امرئ، فيختلُّ توازُنُه ويعطب جسده، ينفَدُ الحبر فيتوقَّف القلب، وتنسكب الألوان في مسرى الروح لتُكوِّن لوحة أخيرة غامضة اسمها الموت.

هذا ما حدث مع بيرل وايت في آخر وأصدق أدوارها، وكعادتها لم تَحتَجْ إلى بديل، فَعَلَتها بنفسها وقفَزَت داخل منطادٍ طائرٍ بمُفرَدِها، أخذها إلى الشاطئ الآخر من الدنيا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(31)
حَلْبُ النُّجوم

ليس مؤلمًا أن تموت، المؤلم حقًّا أن تموت هدرًا...

هكذا فكَّر عبد العليم عندما وصله خبر وفاة شوقة، المرأة المسكينة التي ماتت بلا ذكرى وبلا وَلَدٍ يحملها إلى القبر، حتى مصطفى لم يستطع أن يفعل ذلك، لكنه التقط رفات ابنه من الحوض الزُّجاجي وكفَّنَه ليُدفَنَ مع أُمِّه كما أرادت وأوصت، حملها عيال الحارة، أولاد الجيران الذين أشبعتهم شوقة حلوى وشربات، نزلت إلى أسفل حيث الغرفة المسكونة بنساء العائلة الموتى بجوار الأم وجَدَّة الرضيع، يستظللن بالتراب ويأتَنِسن بالعَدَم، في هدأة وسكون صاخِبَيْن. أخيرًا ظفر كلاهما بنومَةٍ مُريحة وهانئة في حضن بعضهما البعض.

فقدت صبر الجميل وعيَها بمجرَّد أن أسلمت أختها الروح، كأنما الجدار الذي باتت تستند إليه قد انقضَّ فوقعت معه، ماتت بين يديها وفي حِجرها، بنظرات مُشبَعة بالعرفان والمحبة والرضاء، بابتسامة عذبة تملأ وجهها، وبإصبعها الشاهد مرفوع إلى أعلى، قابضة باليد الأخرى على يد صابرة، بكل ما تحمل من تجاعيد وندوب ووشوم، ثم استفاقت على حزنٍ هائل، ها هي تقف على غُسلِها، لا تتوقَّف دموعها لحظة، حتى الصراخ لا يجدي ولا يريح، تُودِّع حبيبتها، شريكتها الحقيقية في الحياة، تفهم الآن أن الشراكة لم تكن بينها وبين عبد العليم، بل اقتسمت تلك الحياة وهمومها وأفراحها معها هي فقط، شوقة: هي الوحيدة التي لم تخذلها قَطُّ، هي التي ظلَّت تحمي ظهرها حتى الرَّمَق الأخير.

أمَّا وداد فكانت تعلم من أمر النهاية، وشعرت بلحظة القضاء الرهيبة، اقشعرَّ بدنها كُلُّه، وأمسكت بقلبها الواقع في رجليها، أخَذَت في التنفُّس بصعوبة شديدة، كأنما تجذبه من قاع بحر، ونزلت من البيت تجري حافِيَةَ القَدَمَيْن حتى الوصول إلى بيت شوقة، مرَّت بين صفوف النساء المُتَّشِحات بالسواد، حتى سريرها، احتضَنَت وجهها وغرقت في تمتَمَةٍ وهَدهَدَةٍ، تُقبِّلها ثم تعود لحديثٍ بينهما لا يفهمه فَردٌ من بني الإنسان، توافَدَت البنات واحِدةً تلو أخرى، نعيمة وعدلية وسِت، بقلوبٍ مكلومة، وعيون منتفخة من كثرة البكاء، بينما بالَغَت فوقية في العويل والصراخ، تنظر إليها النساء في عجب، وأخواتها يَرمُقنَها بنظراتٍ تُشير إلى قاتِلٍ مُحتَرِف باتت تطفو ضحاياه على صفحة حياتهن من حين لآخر...

ولكن فوقية كانت حزينةً فعلًا على شوقة، لا شَكَّ أنها ستظلُّ في منزلة الأُمِّ وأكثر حتى من الخالة والعَمَّة، وكلمات اللوم الأخيرة لم تكن سوى "وَزِّة شيطان" لا تُفسِدُ ما بينهما من ودٍّ ومحَبَّة، اختلطت كل تلك المشاعر بأخرى لا يمكن وصفها بكلمات، لأن فوقية باتت ترى نفسها طوال فترة العزاء تذبح شوقة ثم تخطو من فوق جُثَّتها المُراق دماؤها، وما أن ترى تلك الصورة البشعة حتى تصرخ منادية على الحبيبة التي فقدتها، ولكنها تعود فتقول في نفسها:

"لو بس كنت لِحِقتها بسكين زي الذبيحة قبل ما تموت فطيس! ما هو لازم قتيل أخطي من فوقه عشان السِّحر يتفَكّ وأحبل"!

استقرَّ في عقل فوقية أن شوقة ماتت هدرًا، قبل أن تُحقِّق مُرادها من الدنيا، وأن فرصةً عظيمة ضاعت، وربما لن تتأتَّى لها مُجدَّدًا، حتى "المزغودة" منيرة اختفت ولم تَعُد تعرف لها طريقًا، بالتأكيد لو أنها ماتت أو قُتِلَت لن يفتقدها أحدٌ، ولن يُستشعر غيابها أصلًا...

ولكن ماذا تفعل في الحظ العَسِر؟

يخرج عبد العليم من جَوِّ الحزن القاهر للنفس، إلى شوارع المحروسة الواسعة، يتنفَّس بعُمقٍ، مُتذوِّقًا لَذَّة الحياة، الروعة في سهولة دخول النَّفَس وخروجه...

"يا سلام... الحمد لله".

يتأمَّل المصريِّين الغارقين في السخرية والضحك والسَّلطَنة في المسارح والتياتروهات والبارات، كأنهم -كما قال فيهم ابن خلدون- فرغوا من الحساب، وأبناء الليالي الذين ينشدون في الموالد والتَّكايا وعلى الأرصفة، انغماس الكثير منهم في المعارك الحزبية، واكتساب ثقافة المشاركة بالرأي، هؤلاء يهتفون للوفد، وهؤلاء يسبُّونه، شيوعيُّون وسَعديُّون وإخوان مسلمون، وزارة تقوم وأخرى تسقط، صراعات ومظاهرات ولا أحدَ مُستفيدٌ سوى الإنجليز.

توهة وغَرقَة!

ومع كل الفقر والعوَز المتوطِّن في البيوت المصرية، إلا أنهم يستقبلون ذلك بالقبول، وبالرِّضا، يملؤون منازلهم ببَرَكَةِ الصلاة على النبي والقرآن المُرتَّل، وبشموع تُنذَر للعذراء ولأم هاشم عند قضاء حاجاتهم، لا ينسون موتاهم أبدًا، وفي عِزِّ احتفالهم بالعيد لا بُدَّ من الزيارة وتفريق الرحمة الواجبة. يتزوَّدون بالمَغنَى والطَّرَب، كيف أصبحوا يُقدِّسون مواعيد حفلات ثومة ويحفظون أغنياتها عن ظهر قلب، طقوس انتظارها ويقينهم في كل مرَّة أنها ستَجبُر بخاطرهم وتُسعِدهم وتزرع لهم أجنحةً يطيرون بها:

"صوتها خزين البيت"([24])...

غير أن ثومة أصبحت "السِّتّ"، ولم تَعُد تُلَقَّب بالآنسة، يطيب صوتها، يَنِزُّ حَلاوةً، يرسل سنابل ذهبية، صوت كالشَّمس، كُلَّما تَقدَّم به العمر ازداد وهجًا وألقًا وعطاءً، تفاريد ثومة ستُلهِمُكَ طُرُقًا عديدة للإفلات من الكرب والشقاء وجفاف الروح، تفاريد ثومة تُشبِه تصاريف القدر، طريقة جديدة وابتداع مختلف مع كل إعادة، الخروج عن السياق المتَّفَق عليه، ارتجالات وليدة اللحظة، كل لحظة وأي لحظة أرادتها السِّت، حُرَّة من كلِّ قَيد، حتى قيد اللحن والكلمة، وتأبى في كل مرة إلَّا أن تأخذ السَّمِّيعَة معها في رحلة الحرية التي تتمتَّع بها كُلَّما شَدَت وتفرَّدَت.

كريمة يا ست!

"الأَوِّلَة في الغرام والحب شَبَكوني

والتانِيَة بالامتثال والصَّبر أمَروني...".

يصرخ عِلوَة المُبتَلَى بحُبِّ الاثنتين: امتثال وصابرة، الحب لا يَبلَى أيُّها المُغفَّلون قُساة القلوب، الحب باقٍ، تَرى أين امتثال الآن؟ هل وجَدَت طريقًا يضمن لها سعادة المُحبِّين؟ وكيف لم يزل يُحبُّ صابرة، بل وازداد حبًّا لها بعد رحيل شوقة، عندما نظر إلى يُتم مصطفى من دونها؟ يصرخ علوة كالمطعون في قلبه على غرة بخنجر، هو الجالس -لأوَّل مرَّة- مع رَفاق الفابريكة: مصطفى وأنطون وسمعان في مسرح الأزبكية، في حفل السِّت، فعل ذلك من أجل أخيه مصطفى، وتنازَلَ في أمرٍ لا تَنازُلات فيه، وهو أن يحضر حفل أم كلثوم في صُحبة، حضور حفل الست لدى عِلوَة كالولادة والموت والبعث: كلُّها حوادِثُ جِسامٌ في حياة المرء، يواجهها بمفرده.

نَظرَة يا سِتّ!

يتذكَّر كيف كان مصطفى السببَ في حضور أول حفل لها، كيف فتح له باب الجنَّة التاسِع، هنا الحِجامَة الروحية حيث تُفصَدُ العروق ليخرج منها الدَّمُ الذي أفسده الحزنُ والخيبة وطول الانتظار، وتُدهَنُ الجِراحات ببَلسَم شافٍ مُداوٍ، أم كلثوم الفلّاحة تحلب لهم النجوم، تُقطِّر ضياءها في القلوب، مع هَلّة الخريف والبرد الخفيف، وبعد أن نالت الست لقب صاحبة العِصمَة في حفل النادي الأهلي، وهي اليوم في أحسن حالات الطرب والسَّلطَنة وانعدال المزاج، وبعيدًا عن التشويش الملكيِّ بصَخَبِه وحاشيته والهتاف المزيَّف الذي اخترق حفلها، تغنِّي على نغمة الفقد مِن نَظْم بيرم ولحن زكريا، مفطور القلب على ابنِه، وحيدِه، تُغنِّي لمصطفى، ولعبد العليم، ولأنطون، وسمعان، سيجد كُلٌّ منهم فقيدَه في شدوها وتجلِّياتها.

سيجد كلٌّ منهم سلواه، يناولون بعضهم الصَّمت والتنهيد وكلمات المطيِّباتيَّة، يحسدون أنفسهم على هذا الحظ العظيم برؤية ثومة وسماعها، في هذا الرُّكن من العالم، حثَّ صوتُ السِّتّ سمعان على الإمعان في التَّذكُّر، وفي نفس الوقت الانشغال بمستقبل أسرته في مناخٍ طارِدٍ لمن مثله، هل تتَّسِعُ مصر له ولأولاده الآن بعد هذا الشعور القوميِّ المتنامي تجاه دولة صهيون، بعد معسكرات الجنود اليهود وانضمامهم لهاشومير هاتسعير([25]) والهاجاناه وغيرهما، ولكن سمعان لم يؤمن في حياته بوطنٍ سوى هذا البلد، الحارة، الفابريكة، جيرانه، حتى ولو نَعَتَه البعضُ بالكافر أو الجاسوس أيَّامَ الثورة، مُشيرين إلى الأذن: "خذوا حذركم من سمعان". كان يبتسم ممرورًا. كيف يتجاوز المعابد والأعياد، وطقوسها المرتبطة بأماكن بعينها في مصر، مصر هي التوراة وموسى وجبل الطور وكرم الله مع عباده بأن نجَّاهم فيها وعند الخروج منها، كيف يُجبر على هجرها؟ لطالما آمن سمعان بأن شعب الله المختار إن اتَّحَدَ هَلَك، وصار من السهل التَّخلُّص منه، وأن قوته في قدرته على الانصهار وسط الناس، والتكيف مع عاداتهم وطبائعهم، والتواصل معهم بشتَّى الطُّرق واللُّغات، اليهودي المصري الذي اشتغل طويلًا بالترجمة لقوافل التُّجَّار، وللأجانب الحريصين على زيارة مصر والمكوث بها لَهُو خَيرُ دليلٍ على ذلك، كَمُنَت قوَّتُه في قدرته على السماع، الحل إذًا في الصعود البطيء الواثق، مثل أكلَةِ الدَّفينة التي تنضج على مدار يوم كامل على النار الهادئة...

"والتَّانِيَة بالامتثال والصَّبر أمروني

واجيبُه منين... احتار طبيبي".

اتكأت الست على الوجيعة، نعم، آفة بني قومه الجَزَع، يتلخّص مشوارهم الطويل في كلمة واحدة: لن نصبر... لن تقتصر حربهم تلك المرة على هتلر وغيره من طُغاة العالَم، إنما ستجلب الكتلة الصهيونية الدَّمارَ والفَناءَ على شعب الله عندما يصطدمون بالمسلمين ويُصدِّرون لهم مشاعر الكراهية، ويُغيرون على أراضيهم، عندما يأخذ اليهوديُّ بيتَ الفلسطيني لن يقدر أبدًا على النَّوم بعُمقٍ ، ستطارده اللعنات وكوابيس القتل وأخذ الثأر مدى الحياة.

أمَّا أنطون فكان يحمل من قُدرَةٍ على الصفح والنسيان ما يجعله في حالة تَلَذُّذٍ مُكتَمِلَة بثومة. أنطون نِتاجُ سُلالة عريقة، أكثر ما تَميَّزَت به هو قُدرَتها الفائقة على التجاوُز والاستمرار، ليس فقط منذ إيمانها بيسوع، وتَعرُّضها لشتَّى ألوان العذاب والاضطهاد، بل أيضًا منذ توالى على أجداده القِبْطِ مُعتَدون ومُغيرون وفاتحون ومُجدِّدون ومُفسِدون- دون المساس برغبتهم وحرصهم على البقاء مهما طالهم من محاولات لإبادتهم والتَّخلُّص منهم. خرجت هذي السلالة من غرين النيل، وتشبَّعَت بأخلاق النهر المعطاء، وبحَثَت عن الإله بجدِّيَّة، وحقَّقَت ما أرادت من حضارة. لأنطون أصول تعود إلى فلَّاحة مصريَّة، مَطبَخُها مثله كمثل جميع مطابخ المصريات في زمنها، حيث يُعجن الخُبزُ وتُصنع الجِعَة على طاولة واحدة، لأنطون خلايا مُشبَعة ببيرة مصر القديمة، ربما كان ذلك السَّببَ في اتِّساع صدره ونسيانه المُزمِن لخطايا الجميع في حَقِّه وحَقِّ سُلالَته.

"والتَّالِتَة... أنا اللِّي جرى لي عمره ما بِجرَى"!

عشق أنطون للست هو جزءٌ من طقوس أصيلة تُمارس على مدار سنوات، منها الصحو على قرآن الشيخ محمد رفعت المُنبَعث من راديو القهوة التي يسكن بالقرب منها، تصاعُد رائحة الفول والطعمية ووصولها بسرعة فائقة إلى أنفه وهو لا يزال في فراشه الدافئ، النهوض مُسرِعًا ليفطر مع ماري والعيال على الطبلية، يكتشف أن اليوم إجازته فيعود مُجدَّدًا إلى الفراش، ولا يصحو إلا على صوت ثومة وزوجته تناديه لينفض عنه الكسل وهي تقلي البذنجان قبل تتبيله بالثوم والكمون والليمون.

صوتها بالنسبة له زينة رمضان، البهجة والوَنَس والجيرة والعِشرَة...

لكم تَخيَّلها وهي لا تزال حامِلَةً لِلَقب "الآنسة" ابنةً طاهِرَةً للعذراء البتول، قدِّيسة خُلِقَت من تفانين الرَّبِّ، عندما أراد أن يُسعِد عباده مثلما ترك لهم العنب ليَخمُر ويصير نبيذًا! هي ذاتها الست، بصوتها المُعجِز، البرهان الكامل على وجود الرب وحيويته وديمومته.

سرح أنطون في الصُّحبَة التي فتحت له أبواب السعادة، والاطمئنان، جلوسهم مُتقاربين أمام أم كلثوم ملأ قلبه بمشاعر قويَّة، أوَّلها أنهم مُتساوون، كأنهم أبناء لها، تضع الحلوى في أفواههم جميعًا بالتَّساوي، ودون تَفرِقَة.

إحنا عيال السِّتّ!

انقضى الحلم، ومع تحية ثومة للجمهور العظيم، وتحيَّتهم لها، عاد الأصحاب الأربعة من حيث أتوا، ليجتمعوا مُجدَّدًا في فابريكة طرة، حيث أكل عيشهم وصنعتهم التي لا يُتقِنون غيرها، يُردِّدون ما تيَسَّر لهم من تفاريد وتفانين الست، يعيشون على ذكرى الغنوة بعد الغنوة، من لقاءٍ إلى آخر، بشَوقٍ لا

وجود له، ولا حتى في شريعة العاشقين المتيَّمين، شوقَ واقِرٌ في القلب، وصَدّقه العمل على إبقائه وإذكائه.

في الوقت نفسه، اجتهدت الطالبة النجيبة "ست" في دراستها للطب، مُحاطَةً بنبوءة وداد ودعوات شوقة، لاحَظَت تَغيُّرَ أُمِّها ورعايتها لها بشكلٍ غير مسبوق، أصبحت صابرة حانِيَةً بين عشيَّةٍ وضحاها، أرسلت لها نظرات النَّدَم على ما بدر منها في حق ابنتها الفائقة، وبدأت الفرحة تعرف طريقًا إلى قلبها مع نجاح "ست" عامًا وراء عام، لم تَعُد تناديها باسمها، ولا تسمح لأيٍّ من أفراد العائلة بمُناداتها سوى بالدكتورة. تجاهَلَت نظرات طلعت اللائمة لها، بعتاب المُحبِّين الصامت، يبتزُّ مشاعرها لتعطيه ما يطلبه من مال، تُوافِقُ مَرَّةً وترفض مرَّاتٍ، تنظر إليه بحسرة وهو مندفِعٌ عبر الباب يريد الإفلاتَ بعد حصوله على ما أراد، لم تَعُد تبكي، جَفَّت الدموع التي تُبذَلُ من أجل طلعت، حتى عينها لا تطاوعها في ذلك؟

ضاع الولد وشقى العمر يا شوقة!

تتذكَّر الجرو شحاتة الذي أرضعته من صدرها، والعهود السليمانية، وحامل الصُّرَّة، تتذكَّر ما تكبَّدَته في تربيته وتقصيرها مع بناتها من أجله...

العَوَض على الله...

لكن طلعت ومهما تحصَّل على مال من أمه أو أبيه، فلم يكن يشعر باكتفاء، تطوَّرَت احتياجاته باستمرار، من إدمانه على الحريم إلى إدمانه على الكوكايين، حتى حدث ما لم يكن في الحسبان، يومَ رفضت صابرة إعطائه المال، والجن الأزرق لا يقدر على إيجاد ما أرادت صابرة إخفاءه، حتى مصاغها لم تَعُد ترتديه، جُنَّ جُنونُه، خرج من الباب وأخذت وداد تنظر إليه من أعلى وهو يبتعد، تصغر رؤيته في عينها كأنه شيطانٌ رجيم أحرقته المعوِّذتان. من أين يأتي بالمال؟ نعيمة تسكن في آخر الدنيا، عدلية في بيت عائلة زوجها مغلوبة على أمرها، مُؤكَّدٌ أنها لا تتحصَّل على مال في يدها، انطلق إلى بيت أخته فوقية، هي الوحيدة التي تتحكَّم في كل شئ، يعرف أن زوجها ليس بالبيت ولا يسكن معها أحدٌ، فاجترأ على الطلب منها، سبَّته وعَيَّرته:

- ده بدال ما تِدِّيني جاي تاخد مني يا موكوس؟

فارت الدماء في جسده، الآلام المبرحة تنهش جَسَدَه النحيل، يمسك بتلابيبها بعنف يطلب منها إنقاذه:

- هاموت، عاوز شَمَّة!

صفَعَته على وجهه، وانهالت عليه ضربًا وسبابًا، قاوَمَها وهرع إلى مطبخها ملتقطًا السكين، طعن أخته عشرات الطعنات، سالت دماؤها، وسَكَت صراخها للأبد، وانكبَّ الأخ على جسدها يُفتِّش عن مالها، سيجد ذهبها البُندقيَّ الذي تُودِعُه لدى السَّحَرة ليحلبوا لها النجوم ويحلُّوا تعزيمة عُقمِها، خلع عنها مَصاغها قطعةً قِطعَةً، سرق كلَّ ما طالته يَدُه وقدر على حمله، ثم هرب قبل أن يُداهِمَه أحد!

لا يعلم أن فوقية وإن كانت من الإنس إلَّا أنها شديدة الفتك مثل سلطانات الجِنِّ حلَّابات النجوم، ستلاحقه لعناتها أينما ذهب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(32)

Long live America

لم تَكُن ظروف وفاة بيرل وايت وما اكتُشِف من بعد رحيلها إلَّا امتدادًا دراميًّا لقصة حياتها، وحكاية حبها الفارقة مع تيودور كوزيكا، الرفيق والحبيب الذي لازمها لاثني عشر عامًا، قضى نصفهم في المصحَّات والمستشفيات، لم يستسلم لضغوط العائلة الكبرى، ولا نداءات آلهة الأولمب الجُدُد ليتركها ويتزوَّج ويُنجِب لتتجذَّر الشجرة الهيلينية أكثر، ويكبر الحلم الكوزيكي الذي تجاوَزَ كلَّ التوقُّعات. ولكن بيرل أَبَت إلَّا أن تصفع العائِلَة وهي مرتاحة في قبرها صَفعَةً اقشعَرَّت لها الأبدان من الصدمة والذهول!

تركت الحبيبة لحبيبها المُخلِص كل ما تملك تقريبًا: البيت والكازينو والملهى الليلي، سيارتين رولز رويس، مزرعة خيول تضمُّ مجموعة من أغلى وأفضل أنواع الخيول، ومنها حصانها الرابح "تيو"، بيتها في القاهرة، وحوالي مئة ألف دولار! كما تَرَكَت الجُزءَ الأصغر من ثروتها لعائلتها، وتبرَّعَت بالبقية لليتامى والفقراء وأعمال الخير. ترَكَت أيضًا مظروفًا بداخله قلادتان ذهبيَّتان، في كلٍّ منهما دَلَّاية على شكل نصف طبق، كَتَبَت بيرل:

ارتدِ واحِدَةً وألبِسني واحدة، سيساعدنا الطبق المكسور إلى نصفين على إيجاد بعضنا البعض...

مَشهَدٌ إضافيٌّ بعد تِتْر النهاية!

لا تَكُفُّ وايت عن إذهالنا!

ثم خطاب أخير لتيودور:

حبيبي وابني تيو،

لا تستَغرِب أني أناديك بابني، ولا تغضب أرجوكَ، مؤكَّدٌ لقد أغضَبتُكَ بما فيه الكفاية وأنا حيَّة، تيو، حبيبي هَل تُصدِّق أني متُّ فعلًا؟ لا أعرف شكل الموت بالطبع، ولا كيف سيأخذ المرء إلى الله، يا لها من مَهَمَّةٍ شاقَّة جدًّا، أصعب من كل الأعمال التي قمتُ بها، أشفق علينا مُقدَّمًا، أنا والموت... تعرف يا تيو أني لم أظفر بأُمٍّ تُحدِّثني عن المسيح، لم يُرَبِّني أحدٌ، تُرِكتُ للعالم ولنفسي، ويا لشرِّهما... أوه يا إلهي، أنا بلا نفع! حتى أنني لا أجيد كتابة وَصيَّة أخيرة لحبيبي! ولكني عرفتُ الحياة، عشتُها حتى آخر قطرة دَمٍ نَزَفتُها بالأمس، أمسِي اليوم وأنا أكتب خطابي الأخير، وأمسِي غدًا وأنت تقرؤه عندما أرحل.

عندما أخبرني الطبيب منذ سنوات أن الكحول أصاب كَبِدي ودَمَّرَه، ضحكتُ، تَخيَّلتُ كبدي ثَمِلًا مُمسِكًا بكأس ممتلِئٍ بالجِن ومُنتَشٍ، فكَّرتُ في دفنه بمفرده عندك في طرة، سيعجبه شَمُّ رائحة الكحول المخلوط بماء النيل وشعير مصر، رجاءً يا تيو ضعني في تابوتٍ وادفِنْه في باريس، حيث التقينا للمرة الأولى، سيساعدني ذلك على التذكُّر وأنا في حوزة الموت، كم كُنَّا رائِعَيْن! أتخيَّل وجه

أمِّك سيبيل الآن عندما تعرف أنني تركتَ لك كل ما أملك تقريبًا، وأن اثني عشر عامًا من عمرك لم يذهبوا جميعًا هباءً في حضن امرأةٍ مريضة وعاقِرٍ مثلي، ولكنها لا تعلم أن كل ما أملك لم يُساوِ لحظةً مَعكَ. هذه الثروة ستكبر بفَضلِكَ، أنتَ مُمتازٌ في التَعامُلات المالية بشكلٍ مذهل.

وأخيرًا يا حبيبي، أرجو أن تُحقِّقَ لي أمنيتي الخاصة، الخاصة جدًّا، تزوَّجْ يا تيو، وأنجِبْ ابنًا وبنتًا، وإيَّاكَ أن تنسى زيارتي من وقتٍ لآخر، واجلب معك زجاجةً فاخِرَةً من الجِن، سأشرَبُ معك يا تيو، وفي صِحَّتِكَ نخب حُبِّنا المجنون...

p.w

يجب أن ينتهي الفيلم بصورة لبيرل في تنُّورتها القصيرة المُوَشَّاة بالعَلَم الأمريكي، ذي التقليمات الواسعة والنجوم الساطعة ترقص وتغنِّي.

Long live America!

أصبح الوجع لا يُحتَمَلُ في قلب تيودور، شعر باليُتم من دون بيرل، يحسب أنه يسمعها تناديه: تيو، تخرج له من حُجرَةِ النَّوم مرتديةً حُلَّتَها الجديدة ومعطف الفرو الأسود، تتطلَّع إليه بالنظرة الماكرة إيَّاها، تبتسم وتختبئ، وتعود، وهكذا... يَستَرجِعُ نوبات سُكرها الحاد، وكيف كانت رائِقَةً وسعيدة، ترقص وتغنِّي كأنها خُلِقَت من نغمات وخطوات، تُطلِق النِّكات، تُقلِّد زُعَماء العالم، وتمشي مثل شارلي شابلن، تُضحِكه حتى يحمرَّ وجهه وتضيق أنفاسه، ثم تبكي، وتَتَلألأ قطرات الدمع على خَدَّيها الحمراوَيْن كالماسات... لطالما آمن بكلمات ستافانوس التي بات يُردِّدها باستمرار بأن لكلِّ امرئ حالَةَ سُكرٍ مختلفة عن الآخر، يأتي السُّكرُ على شاكلة الروح، وكيفما خُلِقتَ سَكِرتَ! لَو أنَّكَ لم تَسكَر فأنت لم تُختَبَر بعد، ولم تدخل في التجربة... لَكَم كانت بيرل جميلةً وطيِّبَةَ القلب، في اليقظة والثُّمالة، وحتى آخر فصل من فصول الغياب!

ولكنه في غمار اليأس من عودتها لعالم الأحياء، وفي ذروة الغضب يَلعَنُ السبب وراء كل ما حدث لبيرل، يلعن الكحول الذي قتلها فيفكِّر في هدم الفابركية، يصرخ باكيًا: أنا قتلتُها، ثم تهديه نفسه لما كان وراء إدمان الكحول من الأساس: وقوعها عشرات المرَّات وإصاباتها منذ كانت طفلةً مُجبَرَةً على العمل لتأكل، لتعيش، اللعنة على الفقر إذًا، ثم الخوف من الفقر وتراجُع الشُّهرة الذي أجبرها على خوض المخاطر فيما بعدُ والاستهانة بألعاب الجسد المؤذية. الخوف... الخوف قَتَلَ بيرل! قتلها المنتجون والمخرجون الذين آمنوا فقط بما تُحقِّقه من إيراداتٍ، وليس بموهبة بيرل الفارقة، جَلَدوها بالسياط كفَرَسٍ مُجبَرة على الجري في السباق حتى النهاية.

ولِمَ لا يكون السبب هو عَجزُ العِلمِ عن إيجاد علاج لبيرل؟

ما الفائدة الآن؟

راحت وتركته بحبٍّ لا يبرح قلبه، ووصايا لا يعرف كيف يُحقِّقها.

كان الجميع ينتظر بشغف، يتابع ظهور العاشق المكلوم بعد أن طَفَت جُثَّتُه على صفحة الحياة مُجدَّدًا، ماذا سيفعل؟ وكيف يشعر بعدما ورث امرأةً ليست من دمه ولا عِرقِه؟ ولكن -على طريقة حبيبته-

يقرِّر تيودور -الذي بات يُنادَى بالمسيو كوزيكا، عِوَضًا عن العم والأب- أن يفاجئ الجميع، لم يسمح لرحيل بيرل أن يُفسِدَ الحلم الكوزيكي؛ لأن بقاءه وصموده ليس إلَّا امتدادًا لحبيبته التي لم تكن تتمنَّى، أن يَدُقَّ الحزنُ عظامه ويشيب رأسه قبل الأوان، لطالما كان تيودور مُقبِلًا على الحياة ومُحِبًّا لها، بصيرة وقوة وخِفَّة روح تَشبَّع بها المسيو الجديد، إلى الحَدِّ الذي جعله يعقد اجتماعًا شهريًّا يسمتع فيه إلى عُمَّال المصنع، مطلبًا وشكايةً، بصبر بالغ، ورغبة في حَلِّ المشكلات، وفي إحدى تلك الاجتماعات، رفع إليه ستافانوس رجاءَ العُمَّال المسلمين في إقامة زاوية بالقرب من الفابريكة لإقامة الصَّلوات فيها؛ لأنهم لا يستطيعون الصلاة داخل مكان تُصنَع فيه المادة المُحرَّمة؛ ممَّا كان يدفعهم إلى الصلاة في الخلاء، ولَكَم تعرَّضوا لِلَدغ الثَّعابين والعقارب. لم يقدروا على نسيان ما حدث لزميلهم عبد النبي، والذي لدغته حيَّةٌ وهو ساجدٌ؛ فلفظ أنفاسه قبل أن يَصِلَ إلى المستشفى، أصبح الأمر مُؤرِّقًا لعُمَّال الفابريكة، وباتوا يتناقشون بجدِّيَّة في أمر أخيهم الذي أسلم الروح وهو ساجد:

- الله يرحمه، في الجنة يا عبد النبي.

- وما الذي يُدريكَ أنه في الجنة؟ أليس عَملُنا هذا حرامًا؟ كيف سيُدخِلُنا الله الجنَّة؟

- وإذا كان عبد النبي رجلًا سَيِّئًا، فلماذا حرص على الصلاة لدرجة الموت؟ ألن يكون لهذا اعتبار عند الله؟

- أنت مجنون، هناك أفعال شريرة تَجُبُّ ما فعله المرءُ من خير...

- أنت مسكين؛ لأنك تَحسِبها مع الحسيب.

وفي نهاية النقاش -الذي لم يَخلُ من تبادُل السِّباب وقذف التُّهَم- اتَّفقوا على هذا المطلب: أن يبني الخواجةُ زاويةً ليصلِّي بداخلها الناس.

وافق تيودور بسعادة، وبنى مسجدًا لعُمَّال فابريكة الكحول والبيرة من نفقته الخاصَّة. ظَلَّ هذا الفِعلُ الفريد مَثارَ حديثهم لشهور، يدعو له الواحد منهم بعدما ختم صلاته في ارتياحٍ واطمئنان، دون أن يرتاب ويضطرَّ إلى النظر خلفه بين الحين والآخر؛ خشيةَ أن يهاجمه ثعبان أو عقرب، فتفسَد صلاته وتضيع في الهواجس والمخاوف...

أصبحت قراراتُه ثوريَّةً، أدخل خطًّا جديدًا لصناعة المياه الغازية، المشروب الأمريكي الذي أدخله سباتس لمصر، لم يعجب ستافانوس هذا الأمر بالطبع:

- من البيرة الصافية الرائقة الشَّفَّافة، إلى ذلك المشروب الداكن الذي لا تعرف أصله ولا المخبوء بداخله...

يردُّ سمعان ساخرًا:

- كله من أجل ذكرى حبيبة القلب الأمريكية.

- قاتل الأخوان لعقود من أجل زيادة نقاء الكحول، بات سِرُّ تَفوُّقنا وريادتنا في حفاظنا على مستوًى لا يُضاهى من النقاء، أمَّا الآن يبدو أن العالم يحتاج إلى تخبئة جرائمه السوداء، إخفاء بواطن الشَّراسة

والوضاعة بداخل مشروب داكنٍ باردٍ، يبدو أن المسيو يعرف شكل الأيام القادمة ومستعدّ لها!

ثم سار كل شيء كما أرادت بيرل، رشَّحَت سيبيل لتيودور "ديسبينا" ابنة المسيو بيناكي، كزوجة له، فاتَحَته في الأمر كثيرًا، لم يكن يُعِرها انتباهًا، حتى ألحَّت عليه في يومٍ وبكت بكاءً مُرًّا. قالت:

- لا تُضاعِفْ حُزني ووحدتي، لا تُرهِقني أكثر من ذلك!

- سأتزوَّج ديسبينا يا أُمَّاه، استريحي.

كان بارعًا في رسم الابتسام على وجهه، حاول بكل طاقته المُستَهلَكَة أن يُظهِرَ الحُبَّ، أو على الأقل الاهتمام، كانت ديسبينا هادِئَةً وصبورة، وتعرف القصة وتفاصيلها، تابعتها بشوقٍ وَقتَ حدوثها، وتمنَّت رؤية الحبيبين ولو مصادفةً. لم تكن تتصوَّر أنها ستصبح زوجةً لتيودور عشيق بيرل وايت، الذي أفقدها عقلها. وفي النهاية كلاهما يعرف دوره بالضبط، كفَردٍ في عائِلَةٍ كُبرَى تفرض عليه الالتزام بقانونها مدى الحياة.

ولكن سرعان ما تحوَّلَت أنظار العالم عن المُحبِّين وحكاياتهم، لتذهب نحو المحاربين، الذين لم تَكفِهم حربٌ عالمية واحدة لتثنيهم عن الفكر الاستعماري وأحلام الهيمنة، تفشَّى جنونٌ ما أصاب عقول المتحكِّمين في مصائر الشعوب، أكثر إفسادًا ممَّا يفعله الكحول بالمُدمِنين عليه، واندلعت حربٌ أبشَعُ من سابقتها بكثير. كأنَّ الإنسان يبدع فقط في تكرار خطاياه القاتلة، بلا أدنى مَقدِرَة على التمييز...

أمَّا عن تيودور الثالث، ابن تيوخاري وقُرَّة عين كيكي، لم يُعِده فَقدُ أبيه من عُزلَته، ظلَّ حبيسَ معمله لا يخرج إلَّا لكي يشتري الكتب، لم يفهم أحدٌ هذا الابن، ولم يفهم هو نفسه، ولكنه بات يُبحِر في تعلُّم النظريات الحديثة والمُكتَشَفات والاختراعات منذ الحرب الأولى، هذا ضابط بحري يفقد جفنيه بفعل قذيفة، يستطيع الجرَّاحُ أن يصنع له جفنين آخرين، يقرأ عن تفاصيل العملية التجميلية التي رَمَّمَت وجه المحارب، الطائرات التي استطاعت حمل القنابل والصواريخ بإمكانها أن تَحمِلَ رُكَّابًا، الحرب هي التي دفعت العالِمَ لنقل الدم لإنقاذ جنديٍّ سوف ينزف حتى الموت، كان تيودور مذهولًا بما حقَّقه العِلمُ في سنوات الحرب، وتحمَّس لإضافة المزيد، ولكنه لم يبرح مقعدَ المشاهدة، برغم إصراره على السفر لانجلترا لاستكمال مسيرته الطِّبِّيَّة، إلَّا أنه ظلَّ مأخوذًا بالمراقبة دون مشارَكَةِ شيء مع أحد، طويل الصَّمت، جادَّ المظهر، عنيفًا فيما يتعلَّق بخصوصيته أو أدنى محاولة لاختراقها، بات تيودور يزداد صرامةً فيما يخصُّ مُعتَقَداته ورغباته ودائرته، والجميع ينتظر نِتاجَ هذه الجدِّيَّة عامًا وراء عام، بلا جدوى. أمَّا هو فكانت لَذَّتُه فيما يتوصَّل إليه من معرفة دون أن يُمسِكَ بهدف أو نتيجة، كانت لذَّتُه في تَبَدُّد الجهل بشيء وراء شيء، والاستغراق في دراسة العلوم، والاستنتاجات التي لا تشفي صدرَ أحَدٍ غيره، لَشَدَّ ما يشبه تيودور فلاسفة أهل بلاده الذين أفنوا حيواتهم وراء اختبارات الكلمة وما تصنعه بالعقل والقلب.

لذلك بدا مُتحمِّسًا للحرب الثانية قبل أن تأخذ في طريقها وَطنَ العائلة هيلاس، اليونان الذي على مدار عقود، لم يَهدَأ قَطُّ!

كانت مفاجأة كبيرة ليونانيِّي مصر أن يَرَوا مليكهم چورچ الثاني مَنفيًّا إلى البلد الذي اختاروا الإقامة به منذ زمنٍ طويل، احتلَّت إيطاليا اليونانَ، وحاول الجيش اليوناني رَدعَ المُحتَلِّ بكلِّ ما أوتي من قوة،

إلا أنه لم يصمد أمام استيلاء ألمانيا على بلغاريا، عندما وصل الملك چورچ إلى مصر مُتمَنِّيًا أن تكون المحطةَ الأخيرة له، أخذ يستعيد ذكرياته التي هي ذاتها ذكريات بلاده:

"المسيح يعلم أني لم أتواطأ مع القرد الذي عَضَّ أخي ألكسندر فقتله. ربما كان قردًا شيوعيًّا، أمَّا أنا فلم أرغب في تولِّي عرش أبي ولا أخي، أن تتولَّى عرش اليونان معناه أن تكون حقيبةُ ملابسِكَ مُعَدَّة وجاهزة للسفر معك في أي وقت. آه... بالمناسبة، أُفضِّل تسميته سَفَرًا لا منفًى؛ لأسباب تتعلَّق بكرامتي كملك. لكن في الحقيقة أنت تعلم يا چورچ أنه منفى وراء منفى، قد عِشتَ حياةً مُشابِهَةً لحياة أبيك الملك قسطنطين، الأوغاد عرفوا كيف يُشَتِّتون شمل العائلة الملكية منذ أيام ڤينيزيلوس، منذ أُجبِر أبي على التنازل عن عرشه ونصَّبوا أخي ألكسندر مكانه، ثم عَضَّةُ قِردٍ تودي بحياته ويخسر ڤينيزيلوس الانتخابات، ويعود أبي لعرشه، ثم هزيمته أمام تركيا تطيح به مرَّةً أخرى، ولكن للأبد، لتأتي بي أنا، يا لحظِّي التَّعِس!

بحكم ما شاهَدتُ وعايَنتُ من تبَدُّل أحوال السُّلطة كنتُ مُستعدًّا -بكل صراحة- دومًا لما هو أسوأ، لم أصدِّق الهتاف الزائف، ولا الرقاب المحنيَّةَ، عندما نجح الانقلاب بعد عام واحد فقط من تولِّي مَنصبي، لم آخذ الأمرَ على محملٍ شخصيٍّ، قالوا سنجعلها جمهورية، هادَنتُهم، وتَرَكتُ البلاد -كما أرادوا- ولكني لم أتنازل عن عرشي، خلعوني وسحبوا مني جنسيَّتي، ثم ماذا حدث؟ 23 حكومة و13 انقلابًا واستفتاء شعبيًّا على وضع نهاية للجمهورية، ثم ماذا؟ ثم يعود الملك چورچ الثاني لمكانه الطبيعي مُجدَّدًا!

ولكني عندما عدتُ تلك المرَّةَ، لم أهادن أحدًا، كان يبدو من سير الأحداث وتصاعدها المستمر أن تلك البلاد الممزَّقة تحتاج لقبضةٍ من حديد لتلمَّ الشمل، حتى لو حدث ذلك في السجون والمعتقلات، حتى لو حرمناهم من كُتُب أفلاطون وزينوفون... لقد جَرَّبتُ معهم كلَّ الحلول، لم أجد أمضى من هذا السِّلاح... أمَّا الآن فالوضع مختلف، فعندما يُقصيكَ أعداؤك تصير بطلًا، أمَّا إذا أقصاك أهلُ بلادك فإنك تصير خائنًا"...

هزَّت تلك الأحداث يونانيِّي مصر، شعروا بالحنق والحزن العميق، توتَّرَت العلاقات بينهم وبين الطليان جيرانهم ورفقاء رحلة الغُربَة على أرض الفراعنة، مسألة أن التاريخ يعيد نفسه أصبحت مُبتَذَلَةً من شِدَّة صِحَّتها ومن كثرة حدوثها، الرومان يُغيرون من جديد على هيلاس، المفكَّكَة، الضعيفة سياسيًّا واقتصاديًّا، استبدل الجيش الوطني بالجنود المرتزقة، أُهمِلَت الزراعة، وأُتلِفَت التُّربة، وفسدت القلوب وضعفت الأجساد في زمن غابر.

ثَقُلَت نَفسُ العالِم تيودور، وهو يطالع الأخبار السيئة كل صباح الآتية من هيلاس، صار مُحبَطًا لأقصى حَدٍّ، تحاول أنچليكي التَّسريَةَ عنه بلا فائدة، بدأ يستسلم لمشاعر اليأس وعدم الجدوى:

ماذا أفعل هنا؟ وما الذي سيتغيَّر في هذا العالم عندما أظلُّ هنا؟ لا فائدة من كل ذلك، لا ينتبه هذا الشَّعبُ إلَّا عندما يقمعه حاكِمٌ أو غازٍ، هي ذات السلالة التي كانت تتمدَّد أجسادًا مريضةً مُنبَطِحَة على بطونها ليشفيها الملك بِيروس، بوضع قَدَمِه اليُمنى فوق ظهورهم! هل يُجدي مع هؤلاء أيُّ عِلم؟

أحكم النازيُّون قبضَتَهم على هيلاس، وكوَّن اليسارُ جَبهَة للدفاع الوطني، أمَّا في مصر، المحكوم عليها بالوقوف غصبًا في صَفِّ الإنجليز، فكان الوضع عجيبًا، في ظل تأييد الملك فاروق لألمانيا وإيطاليا، الأمر الذي جعله يرفض بقاء الملك چورچ الثاني في مصر؛ فنُفِيَ مرَّةً أخرى، مصطحبًا حقيبة ملابسه إلى بريطانيا. ولكنه تلك المرَّة لم يَعُد إلى هيلاس، ودسَّ حقيبة ملابسه في أحضان عشيقته.

عمَّت الفوضى العالَمَ، مات ملايين البشر، أكثر من عشرة ملايين شخص من دول المحور المنهزمين، وأكثر من 60 مليون شخص من جانب الحُلَفاء المنُتَصِرين!

أي انتصار؟

هتاف صاخِبٌ، لا يأتي من الحناجر، بل من الدُّود الذي بات يرعى في جُثَث القتلى، الولائم البشرية التي ظفر بها ما تبقَّى من طيور جارحة، وجحافل الكائنات الدقيقة بنفس إصرار ودأب الجيوش المقاتلة من أجل البقاء.

أمَّا أمريكا فكانت أقلَّ شعوب العالم تَضرُّرًا، لم تُمثِّل الحرب أيَّ معاناة أو حرمان، بل مَثَّلَت رخاءً يصل إلى حَدِّ الوفرة. اقتصاد عالي الإنتاجية، وقضاء تام على البطالة للمواطنين الذين اعتادوا الحرمان الذي فرضه عَقدُ الكساد المنقضي. ارتفعت الأجور الحقيقية بسرعة وعلى نحو مباغِتٍ خلال سنوات الحرب، ووجد الأمريكيون على الجبهة الداخلية أنفسهم وسط فَيْضٍ من السلع الاستهلاكية التي باتوا قادرين الآن على شرائها. قال مسؤولٌ عسكريٌّ أمريكي ذات يوم: "الشعب الأمريكي واقِعٌ في مُعضِلَة طيِّبَة، تتمثَّل في ضرورة تَعلُّمه كيف يعيش بمستوى أعلى بخمسين بالمائة ممَّا اعتاد العَيشَ عليه من قبل".

أخرَسَت أمريكا العالَمَ كُلَّه، بإطلاق زرٍّ صغير، أسقط كُتلَتَيْن في الفضاء: "الولد الصغير" و"الرجل البدين"؛ فانتهى كلُّ شيء بسرعة فائقَة، على إيقاع النشيد الوطني:

قُل أَيمِكُنَك أن ترى مع أوَّل ضوء للفجر

ما نفخر به بشدَّة مع آخر بريق للشَّفَق،

ذي التقليمات الواسعة والنجوم الساطعة،

خلال المعركة المحفوفة بالمخاطر

وفوق الأسوار شاهدناه يُرَفرِفُ ببسالةٍ

ووَهَجُ الصواريخ الأحمر، وانفجارُ القنابل في الهواء

دَلَّ خلال الليل أن عَلَمنا كان لا يزال موجودًا!

جاء بعد الخرس الصَّمتُ، ثم الصَّمَمُ إلَّا من كلمة واحدة تخرق جميع الآذان:

Long live America.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(33)

جَناحُ الرَّحمَة

انقضاء الحروب لا يعني بالضرورة حتميَّةَ السلام للشعوب، إنما هو فقط بداية لحروب أخرى، قد تكون أشدَّ ضراوَةً من سابقتها، وما أثبتته التجربة الإنسانية هو أن سَفْكَ الدماء لم يَعُد مشهدًا مخيفًا في القاموس البشري، هو مجرَّد حادثٌ عابِرٌ يُلتَفَت إليه بحسب أهمية الضحية، وحجم سُلطَة القاتل.

ولكي تُخمد نيران معركة، فلا بُدَّ من إذكاء شرارة معركة أخرى، خمدت الحرب العالمية ظاهريًّا، لتدور تروس متعدِّدَة لتفعيل حروبٍ في الخفاء أشدَّ وَطأةً من حروب العلن، وأعمق أثرًا.

كان تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب، نتاج مباشر وسريع للحرب العالمية الثانية...

قامت حربٍ عربية، حماسية، حنجرية، بينها وبين الميلشيات والعصابات الصهيونية، بلا أثرٍ، لم تسحب الأُمَمُ المتحدة قرار التقسيم، لم يتغيَّر شيء، لم تنتهِ دولة إسرائيل، بل بدأت، وتَجذَّرَت، وجارت، وهزمت الجيوش العربية.

وعلى حِسّ حرب فلسطين، أُسِّس جهازٌ سرِّيٌّ داخل جماعة الإخوان المسلمين في مصر، شباب مدرَّب على حمل السلاح وتنفيذ ما يلزم من عمليات لخدمة الإسلام والمسلمين! بدأ ذلك الجهاز الخاص في نسف وتفجير متاجر وشركات وبيوت اليهود والأجانب في مصر، تحت غطاء إسلاميٍّ قوميٍّ بالطَّبع.

ثم تَغيَّر كلُّ شيء بالتدريج، الغضب والحنق من الاحتلال وصل إلى منتهاه، إلى حدِّ تدميرٍ ذاتيٍّ يعصف بالناس وبحيواتهم وبأحلامهم البسيطة، أصبحت السياسة كلمة تعبِّر ضِمنيًّا عن وَضاعة النفوس والطمع في النفوذ.

عندما اختفى سمعان وأسرته فجأة، مع المئات ثم الآلاف من يهود مصر، لم يكن أحد يعرف أين ذهب، هل قُتِل في حادث تفجير حارة اليهود؟ هل هاجر سرًّا إلى إسرائيل؟ أم ما زال موجودًا بمصر ولكن متنكِّر كي لا يُعرف ولا يُؤذى؟

تلاشى سمعان واتَّحد مع العدم، بحث عنه أصحابه طويلًا، فتَّشوا حتى في مدافن اليهود، ثم استسلموا لحقيقة غيابه، حاولوا أن يجدوا سببًا واحدًا يدفعهم إلى كراهيته فلم يجدوا.

خَلَا مكانه في الفابريكة، ليضع صاحبه ورفيقه ستافانوس أمام تساؤل صعب غير قابل للإجابة عليه:

- كيف يُستبدل سمعان بآخر؟

يسأل أنطون عبد العليم في فضول:

- وحشَك يا عِلوَة؟

يردُّ بكلمتين:

- سَلوا قلبي!

وفكَّر أن الأسوأ من التَّقدُّم في العمر هو أن العالم الذي بِتَّ تعرفه أصبح يُحتضر.

حتى معالم طُرَة التي أَلِفَها لعقودٍ تَغيَّرَت تدريجيًّا، ودونما يشعر، لَكَم صار مُقبِضًا أن يقف سجن طُرَة هذا على رأس الطريق، وعلى بُعد أمتار من الفابريكة، لأي مدى سوف يوحَى للمرء بمشاهدته بأنه خارج أو داخل سجن ما؟ بأنه حُرٌّ؟ أو حبيس جدران زمن غابر أو مهنة منبوذة أو وطن مُحتَلٍّ؟

عبد العليم الآن شَبَحٌ نحيل من شِدَّة الحزن على ما أصاب عائلته، وجاء خبر سمعان ليُحكِم حوله دائرةَ الأسى والوجع، يذهب إلى حفلات الست ليتزوَّد بنفحةٍ من الحياة تُعينه على الصمود حتى الحفل التالي، وفيما بينهما، لا يترك مسبَحَتَه من يده، اعتاد الذِّكر، وواظب على الصلاة في مواقيتها، أصبحت "سلوا قلبي" سلواه بعد ما عانى من فقدٍ ووجع، كلمات شوقي هي الحكمة التي تتسرَّب إلى النفس فتضيء الجوانح بنور يصل إلى العقل عبر القلب، ثم مديح النبي الحبيب بصوت الست يريح قلبه ويُطَمئِن نَفسَه ويعيده إلى سيرته الأولى النقيَّة قبل الشقاء وقبل أن يصير ارتكاب الذنوب حِرفَة وغيَّة، "سلوا قلبي" بمثابة صمام أغلَقَ بوَّابة جحيم ما بعد الصدمة لدى عبد العليم، رحمة نزلت على قلبه وشرارة أيقَظَت حنينه البِكرَ إلى الله وحبيبه... فعلت "سلوا قلبي" في دقائق ما لا يقدر دُعاةُ الدين على فِعلِه في عقود، دون غصبٍ ولا إكراه.

يَطمَئِنُّ على الدكتورة "ست" في حجرتها، وهي تستذكر دروسها، يرسم ابتسامةً عريضة على وجهه إكرامًا لطموحها وللأمل الراقص في قلبها، ثم يجلس بالقرب من وداد، يربت على ظهرها، ويتأمَّل الحكمة من المنع والمنح... ثم تأتي صبر الجميل لتأخذ بيده كي يرتاح في مضجعه، تضمُّ رأسه إلى صدرها، يجهش بالبكاء حتى يروح في النوم مثل الطفل الرضيع.

داست صابرة قلبها، وكفَّت عن البحث أو السؤال عن طلعت، تعامَلَت مع هروبه بجَفاءٍ وثَبات غريبَيْن على روحها المُعَلَّقة في روح "الحيلة"، سيقف دم ابنتها المراق بينها وبينه ليوم الدين، شغلت نفسها بالدكتورة "ست" وببناتها وأحفادها، تستمتع بالوقوف لساعات كي تطبخ لهم ما يحبُّون، شعرت مع الوقت بتبدُّل الأحوال، واطمأنَّت بشكلٍ ما على عدلية بالرغم من مرض جلال زوجها وقعوده عن العمل، إلَّا أن ذلك المرض العضال جعله أقلَّ قَسوَةً وأكثرَ لينًا، انكسرت شوكته، وكفَّ يده عنها، وبرغم ما لاقته عدلية من عنف وإهانة وتجريح، إلَّا أنها سامحته ورثت لحاله:

"رَقدِة الراجل تصعب على الكافر برضه"...

وأصبحت عدلية بصبرها وتفانيها في خدمة زوجها وتربية أولادها وإصرارها على استكمال تعليمهم مثارَ إعجاب أهل البيت، ولكنها في ذلك الوقت لم تَعُد تنتظر مُؤازَرةً من أحد، بعد موت الأب انفرط عِقدُ العائلة، وأصبح كل منهم على هواه، اضطرَّت عدلية إلى الوقوف في الفرن بدلًا من زوجها، لم يتركها عيالُها، وتفانوا في مساعدتها والوقوف إلى جانبها.

أمَّا نعيمة فظلَّت تنعم بحب حامد طوال سنوات العِشرَة الطيبة بينهما، محبَّة صادقة جمعتهما في القرية التي يسكنان بها، في بيتٍ ريفيٍّ تحيط به الخُضرَة من كل جانب، عندما تزورها صابرة تَسعَدُ من قلب قلبها، تضحك بصدقٍ، وتشعر لِلَحظاتٍ كأنَّ الوجع كله قد انقضى في يومين وتلاشى على

عتبة بنت الإيه نعيمة، تَشاكِسُ الثنائي عندما تجدهما مُستلقِيَيْن فوق الكليم، وتلاحظ قذارة قدمَيْ نعيمة بفعل الطين، فتقول لحامد:

- إزَّاي طايقها برجلها الوسخة دي يا حامد؟

يضحك قائِلًا:

- ده شقا يا خالتي، والشَّقيانين ينحطُّوا في القلب ويتشالوا على الراس...

صحيح... بيوت المُحبِّين عَمار يا اولاد...

ألحَقَ حامد حسين بالأزهر، ونبغ الولد بشهادة أساتذته، وأحبَّ العِلم، وتَعلَّق قلبه بمساجد الله، انتقل ليمكث مع جَدَّته وجَدِّه طوال سنوات دراسته، فلم يَرَوْا منه إلا حسنًا وأدبًا، كلَّما أَصرَّ جدُّه علوة على تفصيل ثياب جديدة له قال في خجل:

- العلم زبَّال يا جدِّي...

أمَّا وداد فباتت تراقب في صمتٍ ورضا ما يتحقَّق من نبوءاتٍ لأحبابها، تُواصِلُ قراءة الطالع في الوجوه، وعندما تخرَّجَت "سِتّ" وحصلت على شهادة الطب، وغمرت البيتَ أفراحٌ عزيزة بعد طول تعب وانتظار، كانت سعادة وداد غامرة لا توصف، لم تكن نبوءتها لتتحقَّق من دون مثابرة "ست" وجهدها وإصرارها العظيم، ولم تكن البِنتُ الحلوة الطيبة في حاجة إلى نبوءة، بل كانت فقط تحتاج إلى إيمان أحدهم بها، وقرَّرَت وداد أن تلعب هذا الدور. الآن تستطيع أن تقضي أيامها القادمة المتبقية في رحاب نفيسة العلم، حبيبتها القديمة التي لم تَنسَها، تشعر بالراحة والطمأنينة وهي بين المساكين، متسوِّلي مَحبَّة الله ورضاه، لا مُتسوِّلي تعاطف الناس وقروشهم، تجلس في ظل جناح الرحمة، تعبث نسمات الهواء العليل المحمَّل بالدعوات والعَبَرات بطرحتها فتغمض عينيها لترى حبيبتها قد زارتها وتُبشِّرها بمقام كريم في جنة الله العالية!

داعَبَت الأحلام الكبرى "سِت"، فتحت لها دراسة الطب عالمًا رحبًا من المعرفة الجسدية والروحية، لم تكن مثل أقرانها تأخذ ظواهر المعلومات دون بحث واستفاضة، وجدت ضالَّتها بين صفحات الكتب والمراجع، ثم أخذتها الرَّحمَةُ والرأفة بالمرضى الفقراء وعجزهم وقِلَّة حيلتهم، حتى إنها قضت سنة التدريب بين أروقة الأقسام تضع نفسها تحت تصرُّفهم، مع مرور الوقت، وبرغم محاولات الكثيرين الاقترابَ منها وطَلَب ودِّها، إلَّا أنها أغلقت هذا الباب بحسم، لم تسمح للحب بالتَّسلُّل إلى قلبها المشغول بمعالجة الفقراء والأخذ بأيديهم، اختيرت هذه الفتاة لمهمَّةٍ أخرى، بعيدة عن وظائفها الحيوية كأنثى، والتي سبق وأن دَرَستها تفصيلًا، تحرَّرَت من انتقادات الأهل والأصدقاء، ولم تُبالِ بما أرادوا لها، تَصالَحَت "ست" مع أحلامها، ومشت بثباتٍ في سبيل تحقيقها، راضيَةً كل الرِّضا بما اختارته لنفسها في الحياة، آخِذَةً في الاعتبار كل ما يمكن حدوثه لكي يعرقل تَقَدُّمها، صحيح أن همس وداد ظلَّ يَتردَّد في جنبات روحها، وهيَّأت لها الأخت العرَّافة يقينًا بحتميَّة وصولها لما تريد، إلَّا أنها لم ترسم لها الطريق، فعلت "ست" ذلك بنفسها، وبكامل إرادتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(34)

كيف تصبح مليونيرًا

كيف تصبح مليونيرًا؟

دَعْكَ من كل ما قيل، وكُتب، ونُشر حتى على لساني شخصيًّا: أنا حضرة أحمد عبُّود باشا، فالحقيقة أني تلقَّيتُ درسي الأول في الحمَّام الشعبي، المملوك لأبي، لم أكن أراقب الأجسادَ العارية، ولا أُصغي للحكايات والأسرار، لم أتلصَّص على المداعبات والأفعال المُشينة التي ظنَّ أصحابها أنها مستورةٌ عن الأعين، كان يُبهرني شيءٌ واحد:"دخول الحَمَّام مش زي خروجه"، قوة الماء يا عزيزي! لم تكن تُفَتِّتُ فقط طبقات القَذَر والجِلد الميِّت، وتُبدِّل الهيئة والرائحة، ولكنها أيضًا تُفتِّت الأحزان، تمحوها، بعد الحمَّام، ترتسم على وجوههم ملامح الارتياح بعد بلوغ الأمل، سوف يتخلَّل الماء أيَّ شيء ثم يمحقه بنعومة ولُطفٍ ويحلُّ محلَّه... تلك هي طريقتي المفضَّلة: أن أصبح كالماء...

أسمعك تهمس وأنت تقلِّب في دفاتري أني حصلت على شهادة الهندسة، إذًا للعلم دور وللشهادة فضل، أنت مخطئ، شهادتي ليست وراء ملاييني، تلك الشهادة لم أتقاضَ من ورائها إلا خمسة جنيهات شهريًّا! لم أنجح كمهندس يا صديقي، وإنما كمقاول حاصل على شهادة الهندسة، يتحدَّث الإنجليزية والفرنسية والإيطالية، وبعض اليونانية والألمانية، ويتعامل مع أي عِرقٍ خلقه ربنا، أي أنه قادر على التواصل، والتواصل يا عزيزي هو السر الثاني، هو الذي سيفتح لك البوابة على مصراعيها... إذا عرفت مثلًا كيف تكسب ضابطًا إنجليزيًّا فقد حيزت لك نصفُ أسباب الثراء، أمَّا إذا تزوَّجتَ ابنته فقد حيزت لك الدنيا وما فيها!

بقية الوصفة السحرية تتلخَّص في اختياراتك، اختيار الملعب الذي يكشف عن مواهبك، واختيار معاركك ثم اختيار ضحاياك.

لهذا أحببتُ كرة القدم، حتى ولو لم أكن لاعبًا، فالجميع هنا يلعب بفضلي وعلى طريقتي، وإيَّاكَ أن تصدِّق ما يقولونه إن 3 آلاف جنيه تبرَّعتُ بها لإنشاء حمام سباحة في النادي الأهلي وراء تَولِّي منصب رئاسة النادي! ما كانش حد غِلِب! التَّواصُل يا عزيزي، والكلمة السارية الحاكمة واجبة النفاذ بتولِّي فلان وإقصاء عِلَّان، حتى لو كان رئيس الديوان الملكي!

يا له من شعور مدهش، أن تكون واحدًا من المتحكِّمين في المزاج وما يدرُّ عليك من ربح، في البداية اجلبْ لهم ما يحبُّونه ببذخ، لا تنتظر المقابل، اجعلهم يدمنون عليه، ويشتاقونه، ولا يطيقون له فراقًا، اخدعهم، وأخبِرْهم أن سعادتهم تتوقَّف على هذا الشيء، ثم افعل ما شِئتَ. عندما يلعب صالح سليم ويضرب الكرة ويسجِّل الهدف والجماهير تستمتع وتهتف فرحًا؛ فإن الفوز في النهاية يؤول إليَّ.

ولا يَغُرَّنَّكَ ما يعلنونه من كراهيةٍ للإنجليز بمناسبة وبدون مناسبة، لقد عاش هذا الشعب المتبطِّر في نعيمَ أيام الحرب بسبب الإنجليز، كانت المتاجر والدكاكين تعجُّ بالزُّبد والسُّكَّر والبيض والزيوت وسلال الفواكه، والناس في أوروبا يبحثون عن كسرات الخبز، وفي الوقت الذي استأسد فيه

موسيليني على العالم كان الجميع في مصر يأكلون مكرونته الاسباجيتي بتَلَذذ. لو وَحَمت امرأةٌ على لبن العصفور لوَجَدَته. كان الفضل لقوات الإنجليز المرابطة في مصر، والتي كانت تنفق أكثر من 4 ملايين جنيه شهريًّا، ولَكَم تَغذَّى هذا الشعب على فتاتهم وقمامتهم بسعادة ورضا!

والآن، عندما انفضَّ مولد الحرب، وعاد أولياء النعمة إلى وطنهم، ما الذي حدث؟!

سأكمل لك وصايا المليونير، ولكن دعنا ندعو بإخلاصٍ الآن: اللهم اكفني شَرَّ الأجانب، أمَّا المصريون فأنا كفيلٌ بهم!

وإلَّا فمَن كان وراء استقالة طلعت حرب؟ مَن ضغط عليه وهَدَّد بسحب ودائعه وودائع ملك القطن فرغلي باشا، بل والأكثر من ذلك ودائع الحكومة؟ قلتُ لك من قبل: اختَر ضحاياك، وأضِفْ على تلك الوصية: اختَرْ أصدقاءك أيضًا، من المهم أن تُكوِّنَ جبهةً، ثُلَّة، ذات مصالح مشتركة، ومُتَّحِدَة، وستكون الروابط التي تربط بينكم أمضى وأقوى من روابط الدم!

آه، لكلِّ امرئٍ نصيبٌ من اسمه، وأنا عبُّود، خير من يُعبِّد الطُّرُقَ، ويبني الكباري، ويُنشِئ جسور التواصل بين الحضارات!

كل شيء أصبح تحت السيطرة، الثروة في ازدياد، الأملاك والشركات والصفقات في ازدياد، ولم يكن يعوقني سوى أولاد الحرام: الأجانب. اسمع وتعلَّم كيف يُطاح بأساطين التجارة والصناعة، منهم هنري نوس البلچيكي، والذي آلت له في النهاية أسهم شركة السُّكَّر، بعدما باع له ابن صاحبه تيودور كوزيكا نصيبَ العائلة بسعرٍ خياليٍّ، وبعد موت هنري، أصبح ابنه "هوج" هو المتحكِّم في الشركة بمفرده، وهذا لا يُعقَل، لا بأسَ من استخدام جُمَلٍ رَنَّانة مثل: "لن نترك العيال يمسكون بزمام مصالح مصر"، "لن نتركهم يتحكَّمون في مزاجنا"، "كوب الشاي بالسُّكَّر الزيادة هو الرفاهة الوحيدة الحقيقية في حياة الفلاح المصري". توصية صغيرة من حضرة الضابط الإنجليزي كانت كفيلةً بأخذ هوج إلى التجنيد، ليؤدِّي دَورَه ويشارك في الحرب مثل أقرانه، وبالطبع أنت تعرف البقيَّة!

هكذا كان النجاح مضمونًا دائمًا: يتخلَّلهم الماء ويُفتِّت صروحهم ومصانعهم وتجاراتهم، ستتصهر بداخله وتخرج في الصورة التي يُحدِّدها هو. حدث الأمر نفسه بطرق متشابهة مع شركة الأسمدة، والكَرَّاكات، والغزل والنسيج! والفضل للخُطَّة التي مضينا في تنفيذها بإحكامٍ على مدار سنوات.

تضافَرَت القوى السياسية المصرية في المطالبة بحقوق الشعب المصري واستقلاله، كلُّنا دَعَّم هذا الموقف المشرِّف، والحقَّ أقول: حَمَلَ حزبُ الوفد على عاتقه سَنَّ قوانين خَدَمَت العِمالة المصرية التي باتت تشكو من البطالة. من بعد إلغاء الامتيازات الأجنبية، أصبح الطريق مُمهَّدًا لأولاد البلد أن يظفروا بأماكنهم في المصانع والبنوك والشركات وغيرها، خاصَّةً بعدما أصبح الفلَّاحون -أسوَةً بالأجانب- يَسعَون سعيًا لتعليم أبنائهم، علَّهم يتحصَّلون على فُرَص العمل المناسبة، فصار أبناءُ الحُفاة العُراة أطبَّاء ومُعلِّمين ومحامين وقضاةً ومُوظَّفين عموميِّين، العُمَّال الذين تَرَبَّوا في مصانع الأجانب باتوا "مِعَلِّمين" ومحترفين، في الحقيقة كل ذلك كان غطاءً فعَّالًا لتمصير تلك المؤسسات الأجنبية الكبرى، وإحلال ما بها من عِمالَةٍ أجنبية بأخرى مصرية. تضييق الخناق عليهم، حتى أصبحت القوانين ضدَّهم وضدَّ بقائهم، حتى عندما سعوا من أجل الحصول على الجنسية المصرية كانت

العملية شديدةَ التَعقيد. ولا يخفى عليك يا عزيزي الباحث عن الملايين أن التمصير البطيء أتى بثماره، وحقَّق أهدافه، وبالتالي أهدافنا!

لم يتبقَّ منهم غير واحد، مشكلتي معه أنه على وفاق مع الجميع، يدفع الضرائب والرشاوى بلا تقصير، يلتزم بالقوانين، صديق للأمير إدوارد أمير اليونان حمي الأميرة إليزابيث وريثة العرش، ووليَّة العهد، وصديق لتشرشل الذي أهداه حصانه الرابح في سباقات الخيل العالمية، ومثار حُبِّ وعَطف الأمريكان منذ حكايته مع معبودتهم بيرل وايت، كريمٌ لدرجة السَّفَه في التبرُّعات وأعمال الخير، يعشقه المصريون، خاصَّةً بعد أن بنى مسجدًا! أُمُّه فرنسيَّة، وزوجته ابنة بيناكي الأخطبوط اليوناني وصاحب فابريكة الكحول والبيرة والمياه الغازيَّة، البلاد تعتمد على ثُلُثي ما ينتجه هذا الرجل بمفرده! غصَّةٌ في الحلق تيودور كوزيكا هذا!

ولكن لا تَقلَقْ أيُّها الصديق، سيأتي يومه، ومن الأفضل أن نَدَعه يكبر أكثر وأكثر، ما دام سيسقط كلُّ ذلك في حِجرِنا عند نهاية المطاف!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(35)
وجهَةٌ أخيرَة

كوَّن المسيو تيودور عائلةً كبيرة على مدار سنوات الحرب، مع هجوم النازيين على هيلاس أنجَبَت له ديسبينا الابنَ الأول چورچ، ثم ماري في العام التالي، وجاءت بعدها مباشرةً ألكسندرا، ومع انتهاء الحرب العالمية وبداية الحرب الأهلية وصلت الابنة الرابعة إيريني.

حاول تيودور أن يهتمَّ بعائلته ليصرف عن باله القَلَقَ حيال ما يحدث من حوله، مع وقوع الحرب الأهلية في اليونان شعر كأيِّ مواطن خارج وطنه بأنه مُحاصَرٌ، الوضع الداخلي لمصر لا يبشِّر بالخير، خاصةً أن الفترة الانتقالية أوشكت على الانتهاء، والتي سيعقبها إجراءات حاسمة تختصُّ بتنفيذ إلغاء الامتيازات والمحاكم المختلطة. إضافةً للضغوط المستمرة التي يتعرَّض لها لكي يبيع الفابريكة، كان ذكيًّا بالقدر الذي جعله يكتشف بسهولةٍ ما حدث لهوج نوس، وتجنيده لكي يذهب ولا يعود، وبالفعل تلقَّى المسيو خبرَ وفاة هوج بكثير من الحزن والأسى. شعر كأنها رسالة تهديد مباشرة له. ولكنه لم يبالِ كعادته، الحرب الجديدة أدخلته عالمًا مخيفًا لا نهاية له، مع مَن يقاتل؟ ومَن يساند يا تُرى؟

أسوأ شيء عندما لا تستطيع أن تختار فريقًا تنضمُّ إليه، وتضطر للوقوف صامتًا مكتوفَ الأيدي، كل ما يمكنك فعله أن ترسل الأموال للمُشرَّدين والمصابين، دون تمييزٍ أو تَفرِقَة، ولكن في قرارة نفسه كان تيودور راضيًّا عن موقفه المحايد.

ولكن ما يحدث في مصر يُرغِمُكَ على اتخاذ موقفٍ إنقاذًا لهذه الجالية التي تُهدَّد بين الحين والآخر، وخاصةً بعد حرب 48، ورغبة المصريين الجارفة في طرد جميع اليهود من مصر، ومعهم الأجانب؛ ليكتمل الخطاب الموجَّه لتحصل البلاد على استقلالها الكامل، ولكن بأي ثمن؟ وعلى حساب مَن؟

أيقن المسيو كوزيكا أنها النهاية، اجتمع بالعائلة كلها، وتحدَّث معهم في أمر حتميَّة الرحيل؛ لأن جميع الظروف أصبحت ضدَّهم، اتَّفَقَت إيكاترينا وزوجها ديمتري على ما قاله المسيو، خاصَّةً أن نيكوس يدرس في الولايات المتحدة، وأوشكت ابنتهما بينيلوب أن تلتحق هي الأخرى بالجامعة، لا بُدَّ أن يُفكِّرَا في مستقبَلَيْهما، حتى التعليم الأجنبي في مصر أصبح تحت الإشراف المصري! أمَّا أخو إيكا الدكتور تيودور، كما يحب أن يناديه الجميع، فلم يختلف حالُه كثيرًا بعد الحرب الثانية، الدكتور لم يعالج فأرًا واحدًا، يقرأ أشعار كفافيس، يطارد النظريات في مُختَبَرِه، ويقوم بالتجارب الخطرة، يريد أن يصل إلى سِرِّ القنبلة النووية، كل مرة يتحدَّث مع أمه كيكي بكل ثقة بأنه سيكتشفها في خلال أسابيع، تخفي أنچليكي دموعها، مُبتَسِمَةً للابن الذي أخذه عَقلُه بعيدًا جدًّا عن الواقع، هل هذا هو تيودور أمل العائلة ومستقبلها؟ وقُرَّة عَينِ زوجها الحبيب تيوخاري؟ ملأت الحسرَةُ قَلبَها، وأصبحت مريضةً طريحةَ الفِراش، لا تقدر على هجرة ولا رحيل عن مصر.

- خذوني إلى مدينتي، إلى الإسكندرية، راكوتيس، المدينة التي بارَكَها الإله، حيث وُلِدتَ، وحيث التقيتُ بحبيبي لأول مرة، سأنتظر الموت هناك، سيأتي من خلف البحر، سيأتي الموتُ من هيلاس على شاكِلَةِ الريح الطيب، لأستنشقه في المساء وأنا نائمة، لن أتعذَّب، ولن أتألَّم، سيحملني هواء المدينة إلى كل الأماكن التي أحببتها، سأذهب إلى ريو دي سيير: شارع الأخوات، راهبات الكنيسة اليونانية، الأخوات السبع اللاتي يُسرِعن إلى الأعمدة قبل أن ينفَدَ الضَّوء، عكفن على إنارة هذا الشارع ليلًا للمارة الخائفين من حوادث السطو والسرقة والخطف. سأتفقَّد الوجوهَ السُّمرَ التي اعتدتُ النظر إليها والابتسام لها، وسأجد الفلَّاح الذي أنقذني من القتل وأصافحه وأقول له:شكرًا، لقد منحتني فرصةً أخرى لحياة طويلة رائعة! سأسمع أجراس كنائس الرَّبِّ كلها، على اختلاف أطيافها ومعتقداتها، وسأشعر بأن يَدَ الله تدقُّها جميعًا في قلبي، وعندما أصل وجهتي الأخيرة سأسكب نفسي أمامه بكل حُبٍّ ورضا.

لن أذهب إلى أيِّ مكان!

نظَرَت إليها سيبيل في تَعجُّبٍ، وهمَسَت:

- كلاهما فقد عقله: الأمُّ وابنها! إنها مأساةٌ إغريقيَّة فعلًا...

في نهاية اللقاء المؤثر، وبحضور محامي العائلة، قرَّر المسيو تصفية جميع ممتلكاتهم، ولكن سيتمُّ الأمر على مراحل حتى يحصل كلٌّ منهم على أفضل عروض مُمكِنَةٍ في ظلِّ هذه الأزمة.

في اليوم الذي عُيِّن فيه المسيو تيودور كوزيكا كرئيس للجالية اليونانية في مصر، كانت الفابريكة التي حملت اسم العائلة لأكثر من خمسين عامًا قد بيعت لأحمد عبود باشا، المقاول المهندس، صاحب أطول عمارة في البلاد: "الإيموبيليا"، ذات الطوابق الثلاثة عشر، التي تقف كحارس شخصيٍّ له في وجه الجميع.

عاش عُمَّال الفابريكة حالةً قُصوى من الأسى، بكى عبد العليم ومصطفى كطِفلَيْن، مع المئات من زملائهما، أثناء توديع المسيو، ستافانوس الذي بالكاد يستطيع المشيَ صَمَتَ تمامًا، الكلمات لم تطاوعه، فلم تغادر قلبه، ترتعش يداه وشفتاه وتختلج نظرات عينيه، لا تعرف أين ترسو، تُرى ما الذي يحمله المجهول لشيخ مُسِنٍّ أجنبي بِيَدٍ مرتعشة لم تَعُد قادرة حتى على صَبِّ الماء في الكأس، ماذا تخبِّئ مصرُ الجديدة لَبارمان مُتقاعِدٍ، صانِعِ بيرةٍ مُحتَرِف، بلا عائلة، وبلا جنسيَّةٍ أخرى؟ أمَّا أنطون فاختبأ عند زاويةٍ بعيدة عن الحشد، تحت اللافتة التي تحمل اسم بوليخروني كوزيكا وشُرَكاه، فابريكة الكحول، طرة، القاهرة، مصر، يتطلَّع إلى الخواجة من بعيد، يريد فقط أن تلتقي عيونهما ليرسل إليه ما أراد قوله، كانت نظرات أنطون مُفعَمَةً بالامتنان والشكر، كان فقط يريد أن يقول: "شكرًا لك أيها الرجل الكريم، سأفتقِدُكَ"!

ظنَّ تيودور أنه أفنى كلَّ الحزن عندما رحلت بيرل، ولكن يبدو أن هناك حزنًا آخر ضخمًا جاثمًا على قلبه لن تفنيه السنوات، ولن تؤثِّر فيه هجرة ولا رحيل، لن ينسى هذا المشهد حيث الفابريكة النائمة على ضفَّة النيل، دير الأنبا أرسانيوس الذي بات يحرسها ليلَ نهارَ، أو كما يسمِّيه أهلُ البلد: دير البغل؛ إكرامًا له على حمله للماء العذب من النهر إلى رهبان الدير، وأجراس كنيسة مارجرجس

الممتدّة منه إلى أسفل، مختلطة بصوت أذان مسجد كوزيكا، لن تَخفف هذه الحسرَةَ مَزرَعة الخيول، والكازينو، ورؤية نساء باريس في الطُّرُقات، المفتوحة شهيَّتُهنَّ على الحياة والرجال، لن يفلح الخواجة في مَحوِ هذه الوجوه التي عملت له ومعه بصدقٍ وإخلاص، لن يقدر على تجاوز هؤلاء المصريين الذين عاشوا طويلًا جدًّا ككَومَةٍ مُهمَلَة بلا ملامح ولا صوت، في فقرٍ وحرمان وتجاهُل من العالم؛ من أجل أن يحيا أُناسٌ آخرون فوق أكتافهم وعلى حساب أنفاسهم.

يسأل نفسه في لومٍ وتأنيب:

"أتُراني وعائلتي ظَلَمناهم نحن أيضًا وصعدنا على أكتافهم؟".

لَكَم أشفق عليهم تيودور مِن القادم، الذي بدا في عيونهم -مع إعلانِ ثورة يوليو- باشًّا وجالِبًا للخير والرخاء، على مدار السنوات فهم الخواجة كيف تُدار المصانع وتُؤَسَّس الشركات الكبرى، وتُعقَد الصفقات الناجحة، وتُجمع الملايين، عرف أيضًا ما يوؤل إليه صُنعُ الآلهة الجُدُد، ومَحوُ التاريخ من الكتب، وتزييف الحقائق، وتعديل الدساتير بحسب الأهواء، وبناء الأسوار العالية، عرف ما تؤول إليه السياسة عندما تتنافى مع مصالح الشعوب، وعندما يُستَأثَرُ بالحُكم ويُستَبعَد أصحاب الرأي، ويُوَسَّد الأمر لغير أهله، عندما يتملَّك منا هَوَسُ التمييز، ونتَّبِع بإحسانٍ خطَايا مَن سبقونا من الهالكين...

برغم الارتباك الذي طال أُسرَةَ عبد العليم في البداية، والحديث عن انقلابٍ ككلمة جديدة على معجم الشارع المصري، مثلها مثل الضُّبَّاط الأحرار، ومجلس قيادة الثورة، كان شعوره بثورة 1919 مختلفًا تمامًا؛ ربَّما لأنه مشبع بروح تفتقد إليها هذه الحركة المباركة كما يسمُّونها، لَطالَما شعر عبد العليم بأنه واحِدٌ من صُنَّاعها، صاحب قرارٍ فيها، كمواطِنٍ مصري، الجموع والحشود والشهداء، صوت مصر الواحد المتَّحِد بلا تمييز، قوة رهيبة مثابرة، عازِمَة على تحقيق أهدافها، هَزَّت بريطانيا العظمى وأرغمتها، إلَّا أنهم -برغم ضبابيَّة المشهد الحالي- فَرِحوا واحتفلوا مع إخوانهم، مدفوعين برغبتهم الجارفة في الخلاص من الإنجليز ومن ملوكِ مصر الَذين فشلوا في الظهور كنُبَلاء أشراف يعملون لصالح الأُمَّة، غلبت فضائِحُهم فضائِلَهم، وغذَّى الملك فاروق الصِّراعَ السياسي الدائر بين الأحزاب بإخلاص؛ نكايةً في مصطفى النحاس، حتى جماعة الإخوان: دَعَّمَهم، وهيَّأ لهم التَّجذُّر والاستفحال، سمح لهم بأن يتضخَّموا ويتوغَّلوا في الشارع المصري المسالِم، هذا الصراع الذي لم تَحكُمه أي فضيلة وطنية تريد الخير لمصر والمصريين قد وصل إلى منتهاه، فرح الناس، وتأمَّلوا بما قيل بأن تلك الثورة هي السبيل الوحيد للاستقرار وللجلاء...

كان عبد العليم يريد الاحتفال على طريقته، معها هي: الست، فلم يجدها!

لاحَظَ -مثل الكثيرين- أن الإذاعة المصرية لا تذيع أغاني أم كلثوم، لا يوجد حفلات، عُيِّن محمد عبد الوهاب نقيبًا للموسيقيين بدلًا منها، ثم الحديث عن اعتزال الست، لم يصدق عِلوَة ما يُقال، ولكن لا يستطيع أن يُكذِّبَ أذنيه وقلبه، أين صوتها إذًا لو أن ما يقال مجرَّد شائعات لا صِحَّةَ لها؟ صحيحٌ أن عشقه لأم كلثوم أغناه عَمَّن سواها، لكن هذا لم يمنع أن يسمع الآخرين ويطرب لهم، لطالَما سمع عبد الوهاب، وأحب غناءه الذي يرقى ويسمو إلى ما هو أبعد من زمنهم، بحسٍّ شعبيٍّ بسيطٍ أدرَكَ أن موسيقى عبد الوهاب لم تكن مخلوقةً لهذا الزمان، مثل بحر عميق مليء بالأسرار التي لم تُكتَشَف بعد، ولكن ذكاءه الحاد مكَّنَه من التَّوازُن بين ما أراد الناس سَماعَه وما أراد هو غناءه، كانت الحرب

الباردة المشتعلة بين القطبين: لأصالة أم كلثوم ابنة الريف المصري ورسوخ ما قدّمَته للناس وإغراقها في شرقيتها، ولفن عبد الوهاب ابن حارة برجوان المتجدِّد المختلف، وسعة اطِّلاعه على ثقافات الغرب، كل هذا على أساسٍ مَتينٍ بُنِيَت عليه شخصية كلٍّ منهما؛ وهو مدرسة القرآن الكريم: تجويدًا وحفظًا وتلاوة...

لكن لا تزال أم كلثوم في شرع مواطن مصري شقيان مثل عبد العليم مُعجِزَةً؛ كونها امرأةً أصبح لها كل هذا الاحترام والحب الذي يَصِلُ إلى حَدِّ التقديس، هاموا بها، وكرَّسوا وجدانهم لسماعها دون أن ينظروا إليها نظرَةَ الأنثى المشتهاة، بل هي بطلتهم الخارقة التي تحارب نيابةً عنهم في دروب الحياة، أم كلثوم خرقت جميع أسباب النجاح اللازمة لرواج النساء إذا غنُّوا وأطربوا في زمن العوالم والصَّبِيِّتة من عُتاة المطربين الرجال.

يقول في نفسه بأسًى وتَعجُّب:

- هل كان ما فات هو أجمل أيَّامنا فعلًا؟

كيف سيقدر عِلوَة على الاستمرار وهو محرومٌ من صناعة البيرة وصوت السِّتّ؟

لقد تغيَّر كلُّ شيء، لم يَعُد له ولا لرفاقه مكان في فابريكة كوزيكا، سرعان ما سيتغيَّر نشاط المصنع ويتحوَّل إلى صناعة النَّشا والجلوكوز، سلعة بيضاء لها تاريخٌ ناصع وماض مُشرِّف ووجهة وطنية محترمة، حتى هذا الاسم "كوزيكا" سوف يُمحى ويُستَبدَل، مثل عالمه الذي عرفه طوال عمره:

"طب حتى سيبولنا السِّتّ"!

ثم تأكَّد الخبرُ أنها فعلًا مُستَبعَدَة لأن صاحبة العصمة كانت مطرِبَةَ الملك، وغنَّت له، ومحسوبة على العهد البائد...

ألم يكن محمد عبد الوهاب مطربَ الملوك والأمراء؟

أَيقَنَ العاشق بغيابها أن ثومة هي نوبات السُّكْر الخالص، خالي الكحول، سُكْرٌ حلال، ما تُغَيِّبه ثومة ليس العقل، بل ما يُفسِده ويُشقيه، عند سماعها تغيب الأنا، يمتزج الكُلُّ بالكُلِّ، تصير الأَثَرَة للحُبِّ والمحبين، للبشر على أحسن ما يُرام من الإنسانية الحقَّة التي خُلق الكون من أجلها.

وما الذي أراده هؤلاء من وراء منعها من الغناء؟ ما الرسالة التي أرادوا إيصالَها للمصريين عندما أسكتوا صوت أم كلثوم؟

هل أرادوا اختبار زِرِّ السلطة وما يحدث عندما يتمُّ تفعيله؟ أم أرادوا مشاهدة أم كلثوم مقهورَةً راضِخَةً مثل الجميع؟

انقضى الصيف في الانتظار، وفي أحد الأيام سأل عبد العليم عن "سِتّ"، فكانت عائِدَةً لِتَوِّها من المستشفى، أخذها من يدها إلى حجرتها وأمسك بحفنة من الأوراق وقال لها:

- اكتبي الجواب ده... هاملِّيكي يا دكتورة...

- حاضر يا بابا.

"إلى حضرة الست أم كلثوم العظيمة، دُرَّة الشرق...

كيف حالك يا ست؟ كان حظنا عظيم من الدنيا، عشان بنشوفك كل شهر ونطمئن على تحفة الزمان، سِتّنا وتاج راسنا وفرحتنا ودمعتنا، حَبِّيناكي يا ست أم كلثوم، حبيناكي قوي خالص، إحنا عايشين بنفسك، الكلمة دي اتعَمَلِت عشانك، صوتك هو صوتنا، إزَّاي يمنعوه؟ إزَّاي يمنعوا ضحكتنا وسَلوِتنا؟ أنا مش باشكيلك، بس أَحَلِّفِك بالنبي اللِّي مدحتيه وبَكِّتينا ما تسيبينا لوحدنا، إنتي عارفاني وشُفتيني كتير... أكيد عارفاني يا ست...

وعليكِ السلام والأمان من الله.

من المخلص لكِ العبد لله عبد العليم محمد المصري.

ملحوظة: كتَبِت الجواب لحضرتك بنتي الدكتورة ست أبوها عبد العليم".

طلب من ابنته إرسال الخطاب إلى بيت أم كلثوم بالعَجَل، وانطلق هو إلى وجهته، كل ما يدور في ذهنه أن يفعل شيئًا ولا يقف مكتوفَ اليدين، أخذته الخُطَى وهو يحدِّث نفسه طوال المسير، مُمسِكًا بمسبحته، يُتَمتِمُ بكلمات غير مفهومة، يضيق صدره بما لا يقدر على الإفصاح عنه، الطريق مفروشٌ بالضُّبَّاط والجنود والدبابات وعربات الجيش إلى ما لا نهاية، يلمح أحد السكارى يترنَّح في شارعٍ جانبيٍّ محاولًا الاختباءَ من العيون الرامقة، ممسكًا بزجاجة سبرتو كوزيكا، التي لم تُصنَع قَطُّ من أجلِ الشرب، توقَّف سيل الأفكار المشوَّشة فجأة في عقل عبد العليم، صمت علوة، وضع كَفَّيْه على جانبي رأسه كمن صُعِقَ من نفخ البوق، اختلَّ توازنه لثوانٍ، أسلم نفسه للسقوط، شعر بأن جسده قد خَفَّ فجأةً كأنه في حالة طرب، حفل أخير حيث هو المستمع والصَّيِّيت في الوقت نفسه، هذه المرة كان موقنًا أن عين الست التفَتَت ونظرت، بل وعطفت، أغمض عينيه كالقارئ الغارق في مقامات التلاوة، متحرِّيًا قَفلَة ممتازة تنتزع كلمة "الله" من أعماق القلوب، تعلَّم عبد العليم أن الحماس وحده لا يكفيه لمواصلة المسير، اكتشف أن الحفاظ على إيقاعٍ يُناسِب قُدرَتَه أهمُّ من إسراعٍ يُفقِده أنفاسه، في الطرب القَفلَةُ المضبوطة هي التي تُرضي المطربَ والسَّمِّيعة على حَدٍّ سواء، في الحياة أيضًا ليس المهم أن تحيا، بقدر إبداعك واجتهادك في رسم النهاية...

وغاب عبد العليم دون أن يعرف أحدٌ وجهَتَه الأخيرة.

عندما حلَّ الشتاء، وفي صبيحة عيد الغطاس، وعلى شاطئ البحيرة الخضراء في باسي، اجتمعت أسرة تيودور مع الأصدقاء في وجود الأب توماس، الذي رمى الصَّليبَ الخشبي في البحيرة كما يُفعل كل عام، قفز الشباب إلى مياه البحيرة العميقة شديدة البرودة، وغاصوا؛ ليظفر أحدهم بشرف التقاط الصليب من الماء، انتبَذَ تيودور مكانًا قصيًّا من الجمع، بعد أن قرأ الصحيفة اليونانية التي تعجُّ بأخبار مصر وثورتها، مانشيت عريض: "أم كلثوم ترأس اللجنة التي تشرف على اختيار السلام الوطني الجديد للجمهورية"... صورة حديثة للطَّرَّاد المدرَّع أ□يروف بمتحف السفن البحرية، بعد إخراجه من الخِدمَة الصيف الماضي، هو ذاته السفينة الحربية المقاتلة التي تَبرَّع أبوه وعَمُّه بمبالغ طائلة لإصلاحها...

يتذكر كلمات حبيبته بيرل: "لم أعُد صالِحَة لهذا الزمان يا تيو!".

تحسَّس القلادة التي يتدلَّى منها نصف الصَّحن المكسور، هديَّة بيرل، يتذكَّر الأيام الخوالي، وتترقرق الدموع في عينيه، يستحضر صورتها بابتسامتها الماكرة، يستعيد شريط حياته المتحرِّك الصامت والناطق، يُخَيَّل إليه أنه يشتَمُّ رائحة الكحول القوية المختلطة بنسيم النيل العليل، الرائحة الكريهة التي ينفر منها الناس، واعتادته أنوفُ العاملين وصُنَّاع الكحول والبيرة في الفابريكة، بل هي الدليل القاطع على أن العمل مُنتَظِم ومُستَمرٌّ في الفابريكا، لا يستطيع أن يمحو من ذهنه فكرةَ الخلود، وإحساسه العميق أن اسم عائلته سيبقى رغم كل شيء...

تناديه ديسبينا وسيبيل، يعود ليشاهد مَن الذي التقط الصليب من أعماق البحيرة الخضراء ليجد أنه چورچ ابنه، يضع أخواته ماري وألكسندرا وإيريني إكليلَ الغار فوق رأسه الأشقر، كأنَّه بَطَلٌ أولمبيٌّ من أبطال أثينا، تدير ديسبينا اسطوانةً، وتبدأ الموسيقى، يعزف البُزُق مع الـ□يولينه مع العود والتمبورين، يستشعر المستَمِعُ الفَطِنُ إلى أي مدى تلك الموسيقى مغزولَةٌ بضفائِرَ شَرقيَّة، يصنع الجَمعُ دائِرَةً لا من أجسادهم فقط، بل من أحلامهم، ومَحبَّتِهم، ومخاوفهم أيضًا، ويشرعون في رقصة "ساميكوس"، يُعضَّد فيها الرَّاقِصُ بذراع أخيه، يركلون الهواء بأقدامهم المرفوعة في الهواء، ويضحكون...

وبقيت خطواتهم في القلوب، تُراقِص الذكريات على إيقاع مُتكرِّرٍ من الاغتراب والشَّتات، هنا وهناك...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شكر وامتنان

Acknowledgment

Professor Alexander Kitroeff, the author of: (The Greeks and the making of modern Egypt), and (The Greeks in Egypt 1919-1937).

Pandelis Michalis Glavanis, the author of (Aspects of the economic and social history of the Greek community in Alexandria during the 19th century, thesis submitted for the degree of doctor of philosophy).

The International Writing Program, Iowa University, USA, my friends in Iowa, thanks for the aid and opportunity to know much about brewing.

Alexandrian and mediterranian Research center, for releasing and publishing the book: Voices from cosmopolitican Alexandria.

Academia.edu, Internet archive web sites.

دكتور عبد المعطي شعراوي، صاحب سلسلة "أساطير إغريقية"، بأجزائها الثلاثة، الصادرة عن مكتبة "الأنجلو مصرية".

الأستاذة أمل الجيار، مُؤلِّفة كتاب "يوميات الإسكندرية 1882"، الصادر عن "مكتبة الإسكندريَّة".

دكتورة سماح أنور عبد الغفار، ماچيستير الأدب اليوناني، جامعة عين شمس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نبذة عن الكاتبة

كاتبة وطبيبة مصرية، تخرجت في كلية الطب والجراحة طب عين شمس عام 2006، وحصلت على الماجيستير وعملت كصوليست في دار الأوبرا المصرية.

الأعمال الأدبية:

ليلة يلدا رواية 2018 - بيت اللوز مجموعة قصصية 2018 - الإسكافي الأخضر رواية 2017 – الفيشاويّ رواية 2016 - أولاد الحور قصص 2014 - حشيشة الملاك مجموعة قصصية 2013 - سدرة رواية 2021.

ترجمات:

- كتاب الأدب العالمي في القرن الواحد والعشرين - مؤسسة ديوا للنشر - الفلبين، 2018 يضم فصلا من رواية الفيشاوي مترجما إلى اللغة الإنجليزية كنموذج للأدب المصري والعربي في القرن الواحد والعشرين يدرس لطلبة الثانوية العامة في الفلبين.

الجوائز والتكريمات:

- وصول رواية ليلة يلدا إلى القائمة القصيرة لجائزة الشيخ زايد في دورتها الخامسة عشر لعام 2021-2020- فرع المؤلف الشاب.
- جائزة وشهادة تقدير عن مؤسسة ساويرس عام 2020 عن رواية ليلة يلدا لوصولها للقائمة القصيرة.
- جائزة أخبار الأدب لعام 2016 -فرع الرواية- عن الإسكافي الأخضر.
- جائزة نادي القصة لعام 2015-2016 -فرع القصة- المركز الأول عن قصة بيت اللوز.
- جائزة مجلة دبي الثقافية لعام 2015-2016 فرع الرواية.
- جائزة إحسان عبد القدوس للقصة القصيرة لعام2014- عن قصة (وحياة قلبي وأتراحه).
- جائزة نازك الملائكة للإبداع النسوي لعام 2014 -وزارة ثقافة العراق-فرع القصة القصيرة عن قصة (مانوليا).
- جائزة المسابقة المركزية لهيئة قصور الثقافة -دورة صبري موسى عام2014 - مركز أول عن أولاد الحور (مجموعة قصصية).
- حاصلة على الزمالة الفخرية في الكتابة من جامعة آيوا بالولايات المتحدة الأمريكية 2017
- حاصلة على منحة برنامج الكتابة العالمي لعام 2017 بجامعة آيوا بالولايات المتحدة

- عضو خريجي التبادل الدولي التابع لوزارة الخارجية الأمريكية
- عضو لجنة القصة - المجلس الأعلى للثقافة في الفترة من 2017 إلى 2019

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

إهداء..

(1)
يرتقالة حمراء
(2)
من هيلاس() إلى راكوتيس()
(3)
خَنَاقُ الكتاكيت
(4)
ركلة في رقصة هاسابيكو()
(5)
جَرْوٌ وسَبعُ رَضعاتٍ مُشبِعات
(6)
خراب مالطا
(7)
تجريح ذكَرِ النَّخلَة
(8)
الباب الضَّيِّق
(9)
حامِلُ الصُّرَّة
(10)
أغنيةُ لآذار
(11)
بطيخة صيفي
(12)
ريتيكو() للغَرَق و النَّجاة
(13)
ميتة كُبرَى و إمالَةٌ صُغرَى
(14)
البيرة تُنقِذ العالَم
(15)
جَري المتاعيس
(16)

مُنتج سيِّئ السُّمعَة (17)
بين امرأتَيْن (18)
أحفاد ديونيسوس (19)
عينان بلَونِ البيرَة (20)
الملك تيودور الثَّالث (21)
مسخرَةٌ هَزليَّة (22)
ما لا يعرفه سمعان (23)
تَعويذَةٌ ضِدَّ الحُبِّ (24)
يومٌ حافِلٌ بالقُبَّعات (25)
الذئبة و النقَّرزان (26)
شجرة الحُرِّيَّة و البذرة الإغريقيَّة (27)
وعودُ الآنِسَة (28)
شَريطٌ سينمائيٌّ مُتحرِّك صامت (29)
موسم الذَّبح (30)
رُسومُ الرَّبِّ (31)
حَلْبُ النُّجوم (32)
Long live America (33)
جَناحُ الرَّحمَة (34)

كيف تصبح مليونيرًا (35)
وجهةٌ أخيرَة
شكر وامتنان
نبذة عن الكاتبة

Notes

[←1]

(1) هيلاس هي اليونان، وكذلك هيلادا.

[←2]
(2) راكوتيس أو راقودة هو الاسم القديم للإسكندرية أثناء العصر اليوناني والروماني وقبل وصول الإسكندر الأكبر إليها وتسميتها باسمه.

(3) باليونانية: صباح الخير يا سيدي، رحلة موفقة. [←3]

(4) باليونانية: صباح الخير، شكرًا جزيلًا. [←4]

[←5]

(5) إحدى الرقصات اليونانية الشعبية.

(6) مدينة يونانية تقع في شمال البلاد. [←6]

(7) الاسم اللاتيني لكوزيكا. [←7]

(8) إنجيل متى (7: 13) [←8]

(9) إنجيل متى (8:18) [←9]

(10) إنجيل متى (5: 44)

[←10]

[←11]
(11) المَشرفيَّة: من الشرفة التي تُشرِف النساءُ منها على الطريق، وقيل هي أيضًا مشربية؛ لِما يوضَع عندها من قُلَل تُترَك في الهواء لتبرد.

[←12]

(12) الشُّوار بالعامية هو ما تحتاجه العروس قبل زواجها من ملبس وزينة.

[←13]
(13) علي كاكا كان شخصًا يرتاد الموالد، يلف حزامًا حول خصره، يتدلَّى منه في المنتصف ما يشبه الآلة الجنسية بشكل مُضخَّم، ويتحدَّث بالكلام الفاحش، يثير ضحك الرجال والنساء.

(14) نوع من أنواع الأغاني اليونانية الشعبية. [←14]

(15) شارع رشید. [←15]

[←16]
(16) الجملة مذكورة نصًّا في كتاب "أم كلثوم التي لا يعرفها أحد"، في "فصل القاهرة سنة 26"، نَقلًا عن إعلان للسُّلطانة.

[←17]

(17) سفر راعوث (1: 19-20)

[←18]
(18) ظهر مصطلح الليبرالية لأوَّل مرَّة في إنجلترا في أواخر القرن الثامن عشر، إلَّا أن الليبرالية كفكرة ظهرت قبل ذلك خلال القرن السابع عشر، فيما يُعرَف بعصر التنوير.

(19) (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل تسالونيكي 1: 5) [←19]

[←20]
(20) بظرميط أي غير متناسق، ويطلق الاسم على مَن يرتدي جلبابًا وطربوشًا، وليس الزِّيَّ الإفرنجيَّ المعروف.

[←21]

(21) مَثَل مصري، المقصود منه اجعل بينك وبين الشرِّ قناة. وفي قولٍ آخر: غَنِّي لُه.

[←22]
(22) مَثَل مصري شعبي يُضرب في تَغيُّر الأحوال وتَبَدُّلها، مثل فراشة "أبي دقيق" في أطوارها.

[←23]

(23) إحدى أغنيات أم كلثوم ألحان زكريا أحمد وكلمات بديع خيري.

[←24]
(24) هكذا رَدَّ أحدُ المصريين البسطاء عندما سأله فريدريك لاجرانج: ماذا تُمثِّل لك أم كلثوم؟

[←25]

(25) حركة حُرَّاس المستعمرات الاستيطانية في فلسطين.